إيلينا فيرّانتي

أيّام الهجران

مكتبة ٦٩٤

رواية

ترجمة : شيرين حيدر

دار الآداب

مكتبة | 694
سُر مَن قرأ

أيـَّــام الهجران

أيّام الهجران

إيلينا فيرانتي / روائيّة إيطاليّة

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2020

I GIORNI DELL'ABBANDONO
Copyright © 2002 by Edizioni / E/O

ISBN 978-9953-89-697-7

٢٠٢١٥٢٠ مكتبة
t.me/t_pdf

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

إيلينا فيرانتي

مكتبة 694
سُر مَن قرأ

أيَّـــام الهجران

ترجمة: شيرين حيدر

رواية

دار الآداب ـ بيروت

أيَّام الهجران

مكتبة
t.me/t_pdf

1

عصر يوم من أبريل بعد الغداء مباشرةً، أبلغني زوجي أنَّه يريد هجري. أخبرني بذلك فيما كنَّا نرفع الأطباقَ عن المائدة، وكان الولدان كعادتهما يتعاركان في الغرفة الأخرى، والكلب يحلم مبرطمًا قرب جهاز التدفئة. قال لي إنَّه مشوَّش، وإنَّه يعاني من لحظات مضنية من التعب، وعدم الرضا، والجُبْن ربَّما. تكلَّم طويلًا على أعوام زواجنا الخمسة عشر، وعن الولدَيْن مُقِرًّا أنَّه لا يلومني أو يلومهما على أيّ شيء. حافظ على سلوكٍ متماسكٍ كعادته، باستثناء حركةٍ انفعاليَّة وحيدة بدرت من يده اليُمنى وهو يشرح لي بتعبيرٍ طفوليٍّ أنَّ أصواتًا خافتة أشبه بالهمس تدفع به إلى مكانٍ آخر. وما لبث أن أعلن تحمُّله مسؤوليَّة كلّ ما يحدث مُغْلقًا وراءه باب البيت بتؤدة، مخلِّفًا إيَّاي مذهولةً قرب المجلى.

قضيتُ الليل بالتفكير في السرير الزوجيّ الكبير الموحش؛ وعلى الرَّغم من تفحُّصي لمراحل علاقتنا الأخيرة، لم أعثر على

مؤشِّرات أزمةٍ حقيقيَّة. كنتُ أعرفه حقّ المعرفة، وأعلم أنَّه رجلٌ يميل للأحاسيس الهادئة، وأنَّ البيت وطقوسنا المألوفة كانت ضروريَّةً له. كنَّا نتحدَّث عن كلّ شيء، وكان ما يزال يروق لنا أن نتعانق، ونتبادل القبل، وكان مسلِّيًا للغاية أحيانًا، فيُثير فيَّ ضحكًا تسيل له دموعي. بدا من المستحيل لي أنَّه يريد الرحيل حقًّا. وعندما تذكَّرتُ أنَّه لم يحمل معه أيًّا من الأغراض التي كان متمسِّكًا بها، وأنَّه لم يفطن حتى إلى السلام على الولديْن، أيقنتُ أنَّ المسألة ليست بالخَطِرَة. كان يجتاز إحدى تلك المراحل التي يُحكى عنها في الكتب، عندما تصدر عن إحدى الشخصيَّات، وقد ضاقت ذرعًا بالحياة، ردودُ فعلٍ مبالغَ بِها.

كان ذلك قد حصل له سابقًا على كلِّ حال، وقد استعدتُ تلك الفترة والأحداث لفرط ما تقلَّبتُ في فراشي. فقبل سنوات عدَّة، ولم تكن علاقتنا قد تعدَّت الأشهر الستَّة آنذاك، قال لي مباشرةً على إثر قبلة إنَّه يفضِّل ألَّا يراني بعد اليوم. كنتُ مغرمة به، وقد انطفأت أوردتي وأنا أستمع إليه، وسرى جليدٌ على جلدي. شعرتُ بالبرد. مضى هو وبقيتُ أنا عند الدرابزين الحجريّ تحت سانت إيلمو أتأمَّل المدينة الشاحبة، والبحر. غير أنَّه بعد خمسة أيَّام، اتَّصل بي مرتبكًا مبرِّرًا ما جرى، قائلًا إنَّ إحساسًا بغياب مفاجئ للمعنى قد باغته. رَسَخَتْ تلك العبارة في ذهني، وقلَّبتُها طويلًا في رأسي.

استخدمها مجدَّدًا بعد مرور وقتٍ طويل جدًّا، منذ أقلّ من خمس سنوات. كنَّا نتردَّد آنذاك على زميلةٍ له من معهد البوليتكنيك، جينا، وهي ابنة عائلة ميسورة جدًّا، امرأة ذكيَّة

ومثقّفة، أرملةٌ حديثة العهد وأمٌّ لفتاة في الخامسة عشرة من العمر. كنَّا قد انتقلنا منذ أشهر معدودة إلى مدينة تورينو، وكانت هي قد عثرت لنا على بيتٍ جميل يُطلّ على النهر. لم ترُق لي المدينة للوهلة الأولى، بدت لي معدنيَّة، لكنِّي سرعان ما اكتشفتُ جمال أن أُراقب الفصول من شرفة المنزل. في الخريف، كان يظهر اللون الأخضر لتلّ ڤالنتينو وهو يصفرّ أو يحمرّ وقد نزعت الريح أوراقَه، فراحت تتطاير في الجوِّ الضبابيّ، وتجري على قشرة نهر بو الرماديَّة. وفي الربيع، كانت نفخةٌ منعشة ولامعة تحيي البراعمَ الجديدة، وأغصان الأشجار.

تأقلمتُ سريعًا، لا سيَّما وأنَّ الأمّ والابنة لم تألوَا جهدًا في التخفيف من ضيقي، وقد ساعدتاني على التآلف مع الطرقات، ورافقتاني إلى متاجر كان أصحابها موضع ثقتهما. لم يكن من شكٍّ لديَّ في أنَّ جينا قد أُغرمت بماريو لفرط تدلُّلها، حتى إنّي كنتُ أسخر منه أحيانًا قائلةً لقد اتَّصلت خطيبتُكَ. كان يتلافاني وقد تملَّكه شيءٌ من الرضا، وكنَّا نضحك من ذلك معًا.. ومع ذلك، فإنَّ العلاقة بتلك المرأة قد توطَّدت أكثر فأكثر، ولم يكن ينقضي يومٌ من غير أن تتَّصل. تارةً كانت تطلب منه أن يرافقها إلى مكانٍ ما، وطورًا كانت تتذرَّع أنَّ ابنتها كارلا لم تُفلح في حلِّ تمرين كيمياء، أو تدَّعي أنَّها تبحث عن كتابٍ نفد من السوق.

بيد أنَّ جينا كانت تُجيد إجزال الكرم بالتساوي، فلا تحضر إلَّا محمَّلةً بالهدايا لي وللولديْن، وتسلِّفني سيَّارتَها، وتُعيرنا منزلًا تملكه على مقربة من كيراسكو لنقضي فيه إجازة نهاية الأسبوع. وكنَّا نرحِّب بذلك، فكان المكان يعجبنا على الرَّغم من خطر

وصول الأمّ والابنة المباغت مطيحتَيْن بعاداتنا العائليَّة. زِدْ على ذلك أنَّ الخدمة تستدعي الخدمة وقد باتت المجاملات سلسلةً تُقيِّدنا. شيئًا فشيئًا، اتَّخذ ماريو دوْر الوصيّ على الفتاة، وذهب لمقابلة أساتذتها جميعًا كما لو كان يحلّ مكان الوالد المتوفَّى؛ وعلى الرَّغم من أنَّه غارق في العمل، شعر أنَّ عليه أن يُعطيها دروسًا بالكيمياء. ما العمل؟ حاولتُ لبرهة أن أُبقي على مسافةٍ مع الأرملة، فبدأت تزعجني طريقتها في تأبُّط ذراع زوجي وفي همسها الضاحك في أذنه. وفي يوم من الأيَّام، اتَّضح لي كلّ شيء. من باب المطبخ، رأيتُ أنَّ كَارلا الصغيرة وهي تستودع ماريو في الممرّ بعد أحد دروسهما عوض أن تقبِّله على وجنته قبَّلته على فمه. أدركت فجأةً أنَّه ليس عليَّ أن أخشى الأمّ بل الابنة. فالفتاةُ، وربَّما من غير أن تفطن إلى ذلك، كانت تقيس، الله يعلم منذ متى، قوَّة موجات جسدها، وعينيْها القلقتيْن، من خلال زوجي، وهو كان ينظر إليها كما ينظر المرء من موقعٍ ظليل إلى جدارٍ أبيض تسطع عليه الشمس.

ناقشنا ذلك، إنَّما بهدوء. كنتُ أكره نبرات الأصوات المرتفعة، والحركات الفجَّة جدًّا. كانت أحاسيس أهلي ضاجَّة، ومعروضةً للعيان، وأنا، أثناء المراهقة خاصَّة، حتى عندما كنتُ أجلس خرساء ويداي على أذنيَّ في زاويةٍ من البيت في نابولي، تضغط على صدري حركة شارع سالڤاتور روزا المحمومة، كنتُ أشعر داخلي بحياةٍ صاخبة، وينتابني انطباعٌ بأنّ كلّ شيء سيتبدَّى فجأةً بسبب جملةٍ جارحة، أو حركةٍ جسديَّة يشوبها الانفعال. لذلك، تعلَّمتُ أن أتكلَّم قليلًا متأمِّلة ما أقوله، وألَّا أستعجل

أبدًا، وألَّا أركض حتى لأستقلَّ حافلة، وأن أُرجئ قدر الإمكان ردود أفعالي، مالئة الفترة الفاصلة بالنظرات الحائرة، والابتسامات المتردِّدة. وقد زاد العمل في ما بعد من انضباطي. غادرتُ المدينة مصمِّمةً ألَّا أعود إليها، وقضيتُ سنتيْن اثنتيْن في مكتب شكاوى شركة طيران في روما إلى أن استقلتُ بعد الزواج، وتبعت ماريو في تحرُّكاته عبر العالم حيثما كان يحمله عمله كمهندس. أماكن جديدة وحياة جديدة. ولأسيطر على القلق من التغييرات، عوَّدتُ نفسي تمامًا على أن أنتظر بصبر أن ينبجس أيّ انفعال سالكًا درب الصوت المتَّزن فأحرسه في حلقي لئلَّا أصبح فُرجة المتفرِّجين.

بانَ ذاك الانضباط الذاتيّ مفيدًا خلال أزمتنا الزوجيَّة الصغيرة. كنَّا قد قضينا لياليَ طويلة من الأرق، تناقشنا خلالها بهدوء وبصوتٍ خافت متفاديَيْن أن يسمعنا الولدان، ومتفاديَيْن ضربات كلمات قد تحفر فينا جروحًا لا تندمل. ماريو بدا متلبِّسًا كمريضٍ لا يعرف أن يعدِّد بدقَّة عوارضه، ولم أنجح أبدًا في جعله يُخبرني بما يشعر به، وبما يريده، وبما عليَّ أن أتوقَّعه. وبعد ظهر أحد الأيَّام، عاد إلى البيت بعد العمل وكأنَّه خائف، أو ربَّما لم يكن خائفًا حقًّا، ولم يكن ذلك سوى انعكاس الخوف الذي رآه على وجهي. والواقع، أنَّه فتح فاه ليقول لي أمرًا، غير أنَّه في جزيئةٍ من الثانية قرَّر أن يقول لي شيئًا آخر. ولكنِّي لاحظتُ ذلك، وشعرتُ وكأنَّني قادرةٌ على أن أرى الكلمات وهي تتبدَّل في فمه، غير أنّي طردتُ فضولي في تبيُّن الجمل التي عدل عن لفظها. اكتفيتُ بالتسليم بأنَّ تلك الفترة البشعة قد انتهت، وأنَّها لم تكن سوى دُوار موقَّت. إنَّه غياب المعنى. شرح لي

بإصرارٍ لم يعهده، مكرِّرًا العبارة التي كان قد استخدمها لسنواتٍ خلت. كان قد أصاب رأسه سالبًا إيَّاه القدرة على أن يرى ويسمع بالطريقة المألوفة إيَّاها. أمَّا الآن، فكفى. لم يعد يشعر بأيِّ اضطراب.

وابتداءً من اليوم التالي، كفّ عن التردُّد على جينا وكارلا، فانقطع عن دروس الكيمياء، وعاد الرجلَ المعهود.

كانت تلك الأحداث القليلة العابرة في علاقتنا العاطفيَّة، وقد تفحَّصت في تلك الليلة كافَّة تفاصيلها. غادرتُ بعدها السرير يائسةً وقد جافاني النوم، وأعددتُ لنفسي فنجانًا من البابونج. وقلتُ لنفسي إنَّ ماريو هكذا: يلازم الهدوء لسنوات من غير لحظة ضياع واحدة، وعلى حين غرَّة، يُشتِّته أمرٌ تافه. والآن أيضًا، أقلقه أمرٌ ما، لكنْ عليَّ ألَّا أقلق، فيكفي أن أتيح أمامه الوقت ليستعيد هدوءه. وقفت مطوَّلًا أمام النافذة المطلَّة على الحديقة العامَّة المظلمة، وأنا أحاول التخفيف من الألم الذي ألمَّ برأسي ضاغطةً جبيني إلى برودة الزجاج. ارتعدتُ فقط عندما سمعتُ صوت سيَّارةٍ تُركن. نظرتُ إلى الأسفل، لم يكن زوجي. رأيتُ الموسيقيّ الذي يقطن في الطابق الرابع، كارانو، الذي كان يصعد الرواق محنيَّ الرأس معلِّقًا إلى كتفه علبة آلة موسيقيَّة ما. عندما اختفى تحت أشجار الساحة، أطفأتُ الضوء وعدتُ إلى السرير. كانت المسألةُ مسألةَ أيَّام، يعود بعدها كلّ شيء إلى جاري عادته.

2

مرَّ أسبوع، لم يحافظ خلاله زوجي فقط على الوعد الذي قطعه، بل تمسَّك به بقوَّة بصيرةٍ لا رحمة فيها.

في البداية، كان يأتي إلى البيت مرَّةً في اليوم وفي الساعة نفسها دائمًا عند الرابعة عصرًا تقريبًا. كان يهتمّ بالولديْن، ويتحادث مع جاني، ويلعب مع إيلاريا، وكان ثلاثتهم يخرجون أحيانًا يرافقهم أوتو كلبنا الطيِّب من فصيلة الكلب الذئب، فيصطحبونه إلى أروقة الحديقة العامَّة ليركض خلف العصيِّ، وكريات التنس.

كنتُ أتظاهر بانهماكي في المطبخ، ولكنَّني كنتُ أنتظر بقلق أن يمرّ بي ماريو موضحًا لي نواياه، وإذا ما كان قد حلَّ أو لم يحلّ تلك العقدة المتشعِّبة التي اكتشفها في رأسه. كان يأتيني عاجلًا أم آجلًا، إنَّما مكرهًا. بانزعاج، كان يزداد وضوحًا في كلِّ مرَّة، فأردّ عليه، وفقًا لاستراتيجيَّةٍ رسمتها في ليالي الأرق،

عارضةً جليًّا راحة الحياة المنزليَّة، والنبرات المتفهِّمة، والاعتدال البيِّن ترافقه حتى في بعض الأحيان بعض التعليقات الفرحة. كان ماريو يهزّ رأسه قائلًا إنَّني غاية في الطيبة، فأتأثَّر بقوله، وأعانقه، وأحاول تقبيله فيتهرَّب منِّي. فقد جاء، كما يؤكِّد لي، ليحدِّثني فقط. كان يريد أن يُفهمني مع من عشتُ لخمسة عشر عامًا، لذا كان يروي على مسمعي ذكريات فظَّة عن طفولته، وبعض فصول مراهقته البشعة، واضطرابات طوْر الشباب الأوَّل المزعجة. كان يريد فقط أن يسيء الكلام على نفسه، ومهما قلتُ له، محاوِلَةً أن أخفِّف من ميله للهزء من نفسه، لم يكن يقنعه؛ فكان يريد، مهما كلَّف الثمن، أن أراه كما كان يصف نفسه: رجلٌ لا طائل منه، عاجزٌ عن الشعور بأحاسيسَ حقيقيَّة، ومن دون المستوى حتى في عمله.

كنتُ أستمع إليه بالكثير من الانتباه، وأُجيبه بهدوء، ولم أكن أطرح أيّ سؤال، أو أُملي عليه الإنذارات. كنتُ أسعى فقط لإقناعه أنَّه يستطيع الاعتماد عليَّ متى شاء. ولكنْ عليَّ أن أُقرّ أنَّه وراء تلك الواجهة سرعان ما نمت موجةٌ من القلق والغضب أخافتني. استذكرتُ في إحدى الليالي صورةً سوداء من طفولتي في نابولي: كانت امرأةٌ تقطن في بنايتنا خلف ساحة ماتزيني. كانت تجرّ خلفها دائمًا، لتتسوَّق، في الأزقَّة المكتظَّة، أبناءها الثلاثة. تعود محمَّلةً بالخضار، والفاكهة، والخبز، وبالأطفال الثلاثة الذين يتمسَّكون بطرف ثوبها، وبالأكياس الطافحة، فتسيِّرهم بإيقاع كلماتها الفرحة. عندما كانت تراني ألعب على درج البناية، كانت تتوقَّف، وتُسند حِمْلها إلى إحدى الدرجات،

وتبحث في حقيبتها عن حبَّات بون بون توزِّعها عليَّ، وعلى رفيقاتي في اللعب، وعلى أبنائها. كان مظهرها وطريقتها بالتصرُّف يوحيان بأنَّها امرأةٌ سعيدةٌ بأعبائها، تنبعث منها كذلك رائحةٌ عطرة، كرائحة القماش الجديد. كانت متزوِّجة من رجلٍ تعود أصوله إلى إقليم أبروتزو، أصهب وعيناه خضراوان، يعمل كممثِّل تجاريٍّ متجوِّل، لذا كان يسافر من دون انقطاع على متن سيَّارته بين نابولي ولاكويلَّا. لا أذكر منه الآن سوى أنَّه كان يتعرَّق كثيرًا، كان وجهه ممتقعًا كما لو أنَّه مُصاب بطفح جلديّ، وكان يلعب أحيانًا مع أبنائه على الشرفة صانعًا أعلامًا ملوَّنة من الورق الناعم، ولم يكن ليتوقَّف إلَّا عندما تصرخ المرأةُ من الداخل بفرح: الطعام جاهز: إلَّا أنَّ شيئًا ما قد انقطع بينهما. وبعد الكثير من الصراخ الذي كان يوقظني في قلب الليل، فيبدو وكأنَّه يشقّ حجارة المبنى والزقاق، كما لو كان أسنانَ منشار، صراخٌ طويل وبكاء كانا يبلغان الساحة، حتى يصلا إلى النخيل بأقواس السعف الطويلة، والأوراق المرتجفة من الفزع، غادر الرجل البيتَ حُبًّا بامرأةٍ من بيسكارا، وتوارى عن الأنظار منذ ذلك الحين.

ومذّاك الوقت، بدأت جارتُنا تنتحب كلّ ليلة. كنتُ أسمع من سريري هذا البكاء الضاجّ والأشبه بالتأوُّهات التي تخرق كثور الجدرانَ وترعبني؛ كانت أمِّي تتطرَّق إلى الموضوع مع العاملات لديها، كنَّ يقصصن ويخطن، ويتكلَّمن، ويتكلَّمن ويخطن، ويقصصن، فيما كنت ألعب تحت الطاولة بالدبابيس، والطبشور، وأكرِّر لنفسي ما كنت أستمع إليه، تلك الكلمات ما بين الشجن

والتهديد، فعندما لا تجيدين الاحتفاظ برجلٍ تخسرين كلّ شيء، قصصٌ نسويَّة عن الأحاسيس المنتهية، عمَّا يجري عندما تكون النساء طافحاتٍ بالحبِّ فيفقدنه، ويبقين خاليات الوفاض. فقدت المرأة كلّ شيء حتى اسمها (ربَّما كان اسمها إيميليا) فباتت على لسان الجميع «المسكينة»، ورحنا نتكلَّم عليها مطلقين هذا الاسم. كانت المسكينة تبكي، كانت المسكينة تصرخ وقد مزَّقها غياب الرجل الأصهب المتعرِّق، ذي العينيْن الخضراويْن الماكرتيْن. كانت تفرك بين يديْها منديلًا رطبًا، وتقول للجميع إنَّ زوجها هجرها، وألغاها من ذاكرته، وتجعّد المنديل بمفاصل أصابعها البيضاء لاعنةً الرجل الذي فرَّ منها، كحيوانٍ شرِه، صعودًا باتِّجاه تلَّة ڤوميرو. وراح هذا الألم الجليّ الصافع يُثير قَرَفي. كنتُ في الثامنة من العمر، إلَّا أنَّني كنتُ أخجل نيابةً عنها. لم يعد يرافقها أبناؤها، ولم تعد تفوح منها تلك الرائحة العطرة. كانت تنزل الآن الدرجات المنتصبة وقد جفَّ جسدها. فقدت اكتناز ثديَيْها، ووركيْها، وفخذيْها، وفقدت الوجه المتَّسع والبشوش، والابتسامة العريضة. أمست جلدًا شفَّافًا يغطِّي عظمًا، وعيناها غارقتان في بئريْن ليلكيَّيْن، واليدان شِباك عنكبوتٍ رطبة. صرخت أمِّي مرَّة: المسكينة باتت نحيلة كسمكة أنشوة مملَّحة. ورحتُ، منذ تلك اللحظة، أتابعها بنظراتي يوميًّا، لأراقبها وهي تخرج من البوَّابة من غير كيس التسوُّق، ومن غير العينيْن وقد أحاطتهما الهالات السوداء، وخطواتها تترنَّح. كنتُ أريد اكتشاف الطبيعة الجديدة للسمكة الرماديَّة المزرورقة، وحبوب الملح التي كانت تلتمع على ذراعيْها وساقيْها.

وبفضل هذه الذكرى أيضًا، ثابرتُ في التصرُّف مع ماريو مُظهرة تفهُّمًا متعاطفًا. ولكنَّني بعد فترة، لم أعد أعرف كيف أردّ على قصصه المبالغ بها عن حالاته العصبيَّة، واضطراباته في الطفولة، أو المراهقة. وخلال عشرة أيَّام، ونظرًا لأنَّ زياراته للولديْن أيضًا بدأت تتضاءل، شعرتُ بضغينةٍ حامضة تنمو داخلي، أُضيف إليها لاحقًا الشكّ بأنَّه كان يكذب عليّ. وخُيِّل إليَّ أنَّه تمامًا مثلما كنتُ أُظهر له، على نحوٍ محسوب، جميع فضائلي كامرأة مغرمة، ومستعدَّة بالتالي لدعمه في هذه الأزمة الغامضة، كان هو أيضًا، وعلى نحوٍ محسوب، يسعى لإثارة قَرَفي ليدفعني للقول: ارحل، إنَّك تقرفني، لم أعد أحتملك.

سرعان ما قطعتُ الشكّ باليقين، فقد كان يريد أن يساعدني على الإقرار بضرورة انفصالنا. كان يريد أن أقول له بنفسي: أنتَ محقّ، لقد انتهى ما بيننا. ولكنِّي تصرَّفتُ حتى وقتها بوقار. مضيتُ قُدُمًا بحذر كما كنتُ أفعل عادةً أمام أحداث الحياة. المؤشِّر الظاهر الوحيد على اضطرابي كان ميْلي للفوضى، والأصابع المنهكة، التي كلَّما زاد القلق ضَعُفت قدرتها على الإطباق على الأشياء.

لأسبوعيْن تقريبًا، لم أطرح عليه السؤال الذي داهم في الحال لساني. فقط، عندما لم أعد قادرةً على احتمال أكاذيبه، قرَّرت حشره في الزاوية. أعددتُ صلصةً بكريات اللحم كانت تروق له كثيرًا، وقطَّعت البطاطا لأطهوها في الفرن مع إكليل الجبل. لكنَّني لم أطبخ بمتعة، كنتُ خاملة، وجرحتُ يدي بفتَّاحة العلب، وسقطت من يدي زجاجة نبيذ، فتناثر الزجاج

والنبيذ في كلِّ مكان، حتى على الجدران البيضاء. على إثر ذلك وفي الحال، وفي حركةٍ فظَّةٍ للغاية لتناول خرقة، أوقعتُ السكَّريَّة أيضًا. وفي جزيْئة طويلةٍ من الثانية، تفجَّرت في أذنيّ ضربات مطر السكَّر على رخام المطبخ أوَّلًا، ومن ثم على الأرض التي بقَّعها النبيذ. بثّ في ذلك إحساسٌ بالتلاشي، فتركتُ كلّ شيء على فوضاه وذهبتُ لأنام ناسيةً الولديْن وكلّ ما عداهما، على الرَّغم من أنَّ الساعة لم تكن قد تجاوزت الحادية عشرة صباحًا. عند استيقاظي، وفيما كان ظرفي الجديد كامرأةٍ مهجورة يعود إلى ذهني شيئًا فشيئًا، قرَّرتُ أنْ لا طاقة لي على الاحتمال بعد اليوم. نهضتُ مذهولةً ورتَّبتُ المطبخ، وهرعتُ لاصطحاب الولديْن من المدرسة، وانتظرتُ أن يقوم بزيارته السريعة حبًّا بابنيْه!

وصل مساءً، وبدا لي مزاجه جيِّدًا. بعد السلامات، اختفى في غرفة جاني وإيلاريا، وبقي معهما إلى أن غرقا في النوم. وعندما ظهر من جديد، أراد التملُّص، غير أنِّي أجبرته على أن يتعشَّى معي، فوضعتُ أمامه قِدْرَ الصلصة التي حضَّرتُها، وكريات اللحم، والبطاطا، وغطَّيتُ المعكرونة الملتهبة بطبقةٍ سميكةٍ من الصلصة الحمراء الداكنة. أردتُه أن يرى في طبق المعكرونة ذاك كلّ ما كان سيستحيل عليه أن يرنو إليه ولو بنظرة إذا ما رحل، أو يتذوَّقه، أو يداعبه، أو يستمع إليه، أو يشمّه: أبدًا، من الآن فصاعدًا. غير أنَّني لم أستطع أن أنتظر أكثر من ذلك، ولم يكن حتى قد بدأ بالأكل عندما سألتُه:

«هل أُغرمتَ بامرأةٍ أخرى؟»

ابتسم، ونفى ذلك بدون ارتباك، مُظهرًا لامبالاةً رائعة إزاء ذاك السؤال الذي لم يكن في محلِّه. لم يقنعني، فكنتُ أعرفه جيّدًا! هكذا كان يتصرَّف عندما يكذب، فهو ينزعج عادةً من أيِّ سؤال. أردفتُ:

«أهذا صحيح؟ هل هناك امرأة أخرى؟ من هي؟ هل أعرفها؟» ومن ثم، وللمرَّة الأولى منذ بدأت فيها تلك القصَّة، رفعتُ صوتي. صحتُ أنَّه يحقّ لي أن أعرف، وقلتُ له أيضًا:

«لا يمكن أن تتركني هنا لتأمُّلاتي فيما قرَّرتَ في الواقع كلّ شيء سلفًا!»

عندها أشار لي بيده خافضًا عينيْه، وبعصبيَّة، أن أخفض صوتي. كان القلق باديًا عليه عندئذٍ، ربَّما لم يكن يريد إيقاظ الولديْن. أمَّا أنا، فكان يضجّ في رأسي كلّ العتاب الذي كنتُ قد أسكتُّه في نفسي، وكانت كلماتٌ كثيرة قد تجاوزت الخطّ الذي لم أعد أفلح بعده بتمييز ما يُستحسن قوله أو عدم قوله.

«لا أريد خفض صوتي» قلتُ بما يُشبه الفحيح، «يجب أن يعرف الجميع ما فعلتَه بي».

حدَّق هو إلى الطبق أمامه، ومن ثم نظر إلى وجهي قائلًا:

«نعم هناك امرأة أخرى».

وباندفاعٍ خارج عن السياق، تناول بشوكته كمِّيَّةً كبيرةً من المعكرونة وحشرها في فمه كأنَّه يُسكت نفسه، لئلَّا يُخاطر في أن يقول أكثر ممَّا يُفترض أن يقول. غير أنَّه كان قد قال المهمّ، قرَّر قوله؛ وكنتُ أشعر الآن في صدري بألمٍ طويل يُلغي فيّ أيَّ

إحساس. أدركتُ ذلك عندما فطنتُ أنَّه لم تكن لي من ردود فعلٍ إزاء ما يحدث له.

كان قد بدأ يمضغ الطعام بطريقته المنهجيَّة المعتادة، غير أنَّ شيئًا ما أصدر فجأة صريرًا في فمه. توقَّف عن المضغ، وسقطت شوكته في الطبق، وصدر عنه أنين. كان الآن يبصق اللقمة في راحة يده، معكرونة، وصلصة، ودمًا.. كان دمًا أحمر.

نظرتُ إلى فمه الملوَّث من دون أدنى تفاعل، كما يشاهد المرء شريحةً ضوئيَّة تبثّ أمامه. أمَّا هو، وقد جحظت عيناه في الحال، فنظَّف يده بالفوطة وحشر أصابعه في فمه، وانتزع من حلقه شظيَّة من الزجاج.

حدَّق إليها مرتعبًا، وأراني إيَّاها صارخًا وقد فقد صوابه بكراهيةٍ ما كنتُ أظنّ أنَّها يمكن أن تتملَّكه:

«هكذا؟ أهذا ما تريدين فعله بي؟ هكذا!»

وقف منتصبًا، قَلَب الكرسيّ، رفعه، وضرب به الأرض مرارًا، كما لو كان يأمل أن يثبِّته بشكلٍ نهائيٍّ على البلاط. قال إنِّي امرأة لاعقلانيَّة وعاجزة عن فهم دوافعه، وإنَّني لم أفهمه حقّ الفهم أبدًا، أبدًا. ووحده صبره، أو ربَّما ضآلته هي التي أبقت علينا معًا طوال هذا الوقت. أمَّا الآن، فكفى. صرخ في وجهي إنَّني كنت أخيفه، فكيف استطعتُ أن أضع له الزجاج في المعكرونة، كيف استطعتُ ذلك؟ إنِّي مجنونة. خرج صافقًا الباب خلفه غير عابئ بالولديْن النائميْن.

3

بقيتُ جالسةً لبعض الوقت، ولم أكن أقوى على التفكير إلَّا في أنَّ لديه امرأةً أخرى، لقد أُغرم بامرأةٍ أخرى، لقد أقرَّ بذلك. نهضتُ بعدها، ورحتُ أرتِّب المائدة. على الفوطة، رأيتُ شظيَّة الزجاج تُحيط بها هالة من الدم، وبحثت بأصابعي في الصلصة وانتشلتُ شظيَّتين أخريين من الزجاجة التي كانت قد وقعت من يدي صباحًا. فقدتُ رباطة جأشي وأجهشتُ بالبكاء. عندما هدأتُ، رميت الصلصة في النفايات، ومن ثم جاء أوتّو يتمسَّح بجانبي مهمهمًا. تناولتُ رسنه، وخرجنا.

كانت الساحة مقفرةً في ذاك الوقت، وأوراق الأشجار تأسر نور عواميد الإنارة، وظلالٌ سوداء تُعيد إلى ذهني مخاوفَ طفوليَّة. كان ماريو عادةً من يصطحب الكلب في نزهته بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل، ولكنْ مذ رحل وهذه المهمَّة أيضًا تقع على عاتقي. الولدان، والكلب، والتسوُّق، والغداء،

والعشاء، والمال. كان كلّ شيء يشير إلى التبعات العمليَّة للهجر. لقد سحب زوجي منِّي الانشغال، والرغبات، لينقلها إلى مكانٍ آخر. ومن الآن فصاعدًا، هذا ما سيكون عليه الحال. أنا وحدي سأتحمَّل المسؤوليَّات التي كانت سابقًا من نصيب الاثنيْن.

كان عليَّ أن أتفاعل، أن أنظِّم نفسي.

لا تستسلمي ـ كنتُ أكرِّر لنفسي، لا تهوي إلى الأمام.

إن كان هو يحبّ امرأةً أخرى فلا طائل ممَّا قد تفعلينه، فسينزلق ذلك عليه فقط من غير أن يخلِّف أيّ أثر. فعضِّي على الألم، وتجنَّبي حدَّة الحركات، والصوت الزاعق. خذي علمًا بأنَّه غيَّر انشغالاته، وبدَّل غرفته، وهرع يختبئ في جسد آخر. لا تتصرَّفي كالمسكينة، لا تذوبي دمعًا. تفادي أن تتشبَّهي بالنساء المهمَّشات في كتابٍ شهيرٍ قرأتِه في مراهقتك.

استرجعتُ الغلاف في أدقّ تفاصيله. كانت معلِّمة اللغة الفرنسيَّة قد فرضته عليَّ عندما قلتُ بطيشٍ كبير، وحماسةٍ ساذجة، إنَّني أُريد أن أصبح كاتبة. كان ذاك في العام 1978 لأكثر من عشرين عامًا خَلَت. قالت لي «اقرأي هذا»: فقرأتُه بمثابرة. ولكنْ عندما أعدتُ إليها الكتاب، تلفَّظتُ بتلك الجملة المتعالية: هؤلاء النساء غبيَّات. سيِّدات مثقَّفات وميسورات كنَّ يتكسَّرن كأواني زينة في أيادي رجالهنَّ الشاردين. بدَوْن لي حمقاواتٍ عاطفيًّا. أمَّا أنا، فكنتُ أريد أن أكون مختلفة، وأن أكتب قصص نساءٍ خلَّاقات، نساءِ الكلمات التي لا تُقهر، لا دليل الزوجات المهجورات وقد احتلّ الحبّ الضائع كلّ وجدانهنَّ. كنتُ فتيَّة وكانت لي طموحاتي. لم تكن تعجبني كثيرًا الصفحة المقفلة

كدرفة نافذةٍ أُغلقت بالكامل. كنتُ أحبّ النور، والهواء، والأشعَّة المتسلِّلة التي تتطاير فيها ذرَّات دقيقة. وكنتُ أحبّ كتابة من يجعلك تطلّ من كلِّ سطر لتنظر إلى الأسفل وتشعر بدُوار الأعماق، وسواد الجحيم. قلتُ ذلك لاهثةً على نحوٍ متَّصل كما لم أفعل يومًا، فارتسمت على وجه معلِّمتي ابتسامةٌ ساخرة، ومستاءةٌ بعض الشيء. لا شكَّ في أنَّها فقدت أحدًا، أو شيئًا، هي أيضًا. والآن، وبعد أكثر من عشرين عامًا، كان الأمر نفسه يحدث لي. ها أنا بدأتُ أفقد ماريو، أو ربَّما فقدته بالفعل. كنتُ أسير متشنِّجةً وراء نفاد صبر أوتو، وكنتُ أشعر بنفَس النهر الرطب، والإسفلت البارد الذي يخرق نعل الحذاء.

لم أُفلح في أن أُهدِّئ من روعي. أيُعقل أن يهجرني ماريو هكذا بدون سابق إنذار؟ يصعب عليَّ أن أصدِّق أن يفقد اهتمامه فجأةً بحياتي كنبتةٍ تُروى لسنوات، وتُترك على حين غرَّة لتموت عطشًا.

لم أكن أستطيع أن أتصوَّر أنَّه قرَّر من جانبه فقط أنَّه لم يعد يدين لي بالاهتمام. قبل سنتيْن فقط، كنتُ قد قلتُ له إنَّني أريد أن أستعيد فسحةً زمنيَّة لي، وعملًا يُخرجني من المنزل لعدد محدَّد من الساعات. كنتُ قد عثرتُ على عملٍ في دار نشر صغيرة أثار فضولي، إلَّا أنَّه دفعني إلى التخلِّي عن الفكرة. وعلى الرَّغم من أنَّني كنتُ أؤكِّد له أنَّني بحاجةٍ لأن أكسب المال بنفسي، ولو كان قليلًا، أو قليلًا جدًّا، كان يثنيني عن ذلك قائلًا: لِمَ الآن؟ لقد اجتزنا الأسوأ، ولسنا بحاجةٍ للمال. أنتِ تريدين العودة للكتابة، فاكتبي. عملتُ بنصيحته، واستقلتُ بعد

بضعة أشهر، وعثرتُ للمرَّة الأولى على امرأةٍ تساعدني في تصريف شؤون البيت. لكنَّني عجزتُ عن الكتابة، أضعتُ الوقت في محاولاتٍ مدَّعية، ومشوَّشة في آن. كنتُ أنظر بغضبٍ إلى المرأة التي تُلمِّع الشقَّة، امرأة روسيَّة عزيزة النفس، لا تتقبَّل النقد أو اللوم بسهولة. لا وظيفة إذًا، ولا كتابة، والعلاقات الشخصيَّة قليلة، وطموحات الشباب تتفتَّت كقماشٍ مستهلك. سرَّحتُ الخادمة، فلم أكن أتحمَّل أن تتعب هي مكاني وأنا عاجزة عن أن أُخصِّص لنفسي وقتًا للفرح المبدع، والكثيف. وهكذا، عاودتُ الاهتمام بالبيت، والولديْن وماريو، كما لو كنتُ أؤكِّد لنفسي أنَّني ما عدتُ أستحقّ سوى ذلك. هذا ما كنتُ أستحقّه بالأحرى. وجد زوجي امرأةً أخرى، داهمتني الدموع ولم أبكِ. عليَّ أن أظهر في مظهر المقاوِمة، عليَّ أن أكون كذلك. كان عليَّ أن أُثبت قدرتي، فإذا ما فرضتُ ذلك على نفسي نجوتُ. أفلتُّ أوتو أخيرًا، وجلستُ على المقعد وأنا أرتجف من البرد. ومن كتاب المراهقة ذاك، استحضرتُ الجمل القليلة التي رسخت آنذاك في ذاكرتي: أنا نظيفة وحقيقيَّة، وأنا لعبةٌ مفتوحة الأوراق. لا، قلتُ لنفسي. هذه تأكيداتٌ على التشتُّت، عليَّ أن أضع الفواصل دائمًا كبداية، عليَّ أن أتذكَّر ذلك. من يتلفَّظ بكلماتٍ كهذه يكون قد اجتاز الخطّ، ويشعر بضرورة أن يُمجِّد نفسه فيداني التلاشي. كما أنَّ كلّ النساء رطبات ـ ويا للإحساس الذي ينتابهنَّ لعلمهنَّ أنَّ قضيب الرجل منتصب! عندما كنتُ فتاة، كان يُعجبني الكلام الفاحش، كان يُعطيني إحساسًا بالحرِّيَّة الذكوريَّة. والآن، أعلم أنَّ الفُحش يبثُّ شرارات الجنون إذا ما تفوَّه به فمٌ مؤدَّبٌ كفمي.

لذلك، أغمضتُ عينيَّ، ووضعتُ رأسي بين يديّ ضاغطةً جفنيّ. تخيَّلتُها ناضجة، وتنُّورتها مرفوعة فيما هو مرميٌّ عليها يُمسك بشقَّي عجيزتها ويُدخل أصابعه فيها، والأرض لزجة من المنِيّ. لا، عليّ بالتوقُّف. انتشلتُ نفسي فجأةً، وصفَّرت مناديةً على أوتو في صفير علَّمني إيَّاه ماريو. فلتذهب عنِّي تلك الصور، وتلك اللغة، فلترحل عنِّي النساء المكسورات. وفيما كان أوتو يركض هنا وهناك وهو يختار بدقَّة الأماكن التي يبول فيها، شعرتُ في كلِّ زاوية من جسمي بخرمشات الهجر الجنسيّ، وخطر الغرق في اشمئزاز نفسيٍّ والحنين إليه. نهضتُ وعدتُ أدراجي على الدرب، وصفَّرت مجدَّدًا منتظرةً أن يعود أوتو.

لستُ أدري كم مرَّ من الوقت. نسيت الكلب، وأين أنا. وانزلقتُ من دون أن أدري في ذكريات الحبِّ الذي كان يجمعني بماريو. قمتُ بذلك بلطف، وبإثارةٍ خفيفة، وضغينة. وقد أيقظتني نبرة صوتي، فكنتُ أردِّد لنفسي كترنيمة: «أنا جميلة، أنا جميلة». ومن ثم، رأيتُ كارانو، جارنا الموسيقيّ الذي كان يجتاز الرواق متَّجهًا إلى الساحة صوب البوَّابة.

رجل منحنٍ، وساقاه طويلتان، والظلّ الأسود يحمل الآلة الموسيقيَّة، عَبَر قربي على مسافة مائة متر منِّي، وتمنَّيتُ ألَّا يراني. كان من أولئك الرجال الخجولين الذين لا يمتلكون ميزانًا ثابتًا في العلاقات مع الآخرين. فإذا ما خرجوا عن طورهم يخرجون عنه تمامًا، وإذا ما كانوا لطفاء فهم يصبحون دبقين كالعسل. وكان قد أنَّب ماريو غالبًا على الماء الذي يتسرَّب من حمَّامنا والذي بقّع السقف لديه، أو لأنَّ أوتو أزعجه بنباحه. وعلاقته معي لم تكن

ممتازة بدورها، إنَّما لأسبابٍ أخرى. ففي المرَّات التي صادفتُه فيها، قرأتُ في عينيْه اهتمامًا أثار ارتباكي. لم يكن مبتذلًا، فهو لم يكن قادرًا على الابتذال. إلَّا أنَّ النساء، كلّ النساء كنَّ يشوِّشنه، وكان يُخطئ عند ذلك اختيار النظرات، والحركات، ويُخطئ اختيار الكلمات كاشفًا عن غير قصد عن رغبته. وهو كان يعرف ذلك، ويخجل منه، وعندما يحدث ذلك، كان يُشركني، رغمًا عنِّي، في خجله. لذلك، كنتُ أسعى دائمًا لتفاديه، وكان يوتِّرني حتى أن أقول له صباح الخير، أو مساء الخير.

كنتُ أراقبه، وهو طويل وقد أطاله أكثر طيف العلبة، ونحيل. ومع ذلك، ثقيل الخطو، وقد شاب شعره، وهو يجتاز الساحة. وفجأةً، تسارعت مشيته غير المتعجِّلة، وتخبَّط متفاديًا الانزلاق. توقَّف، ونظر إلى نعل حذائه الأيمن، وأطلق شتيمة. ثم لاحظ وجودي، وقال بأسف:

«أرأيتِ لقد تلف حذائي».

لم يكن هناك ما يدلّ على ذنبي، ومع ذلك، سارعتُ بالاعتذار منه بارتباك، ورحتُ أُنادي بغضبٍ أوتو، كما لو أنَّ على الكلب أن يُبرِّر نفسه أمام جارنا مباشرةً مُسقطًا عنِّي أيّ ذنب. إلَّا أنَّ أوتو بلونه المصفرّ عَبَرَ بسرعة بقع ضوء أعمدة الإنارة، واختفى بعدها في الظلام.

مسح الموسيقيّ بعصبيَّة نعله على العشب عند جانب الدرب، ونظر إليه بانتباهٍ شديد.

«لا حاجة للاعتذار، اصطحبي فقط كلبك إلى مكانٍ آخر، بعض الناس قد تذمَّر...».

«أعتذر، زوجي عادة متنبِّه...».

«زوجكِ، عذرًا، عديم التهذيب».

«عديم التهذيب هو أنتَ ـ أجبتُه توًّا.» ولسنا الوحيديْن اللذيْن يمتلكان كلبًا».

هزَّ رأسه، وقام بحركةٍ واسعة مفادها أنَّه لا يريد التلاسن، وتمتم:

«قولي لزوجك ألَّا يتمادى. أعرف من لن يتردَّد في ملء المنطقة بالطعام المسموم».

«لن أقول أيّ شيء لزوجي» صرختُ بغضب؛ وأضفتُ بدون داعٍ كما لو شئتُ تذكير نفسي به:

«لم يعد لديَّ من زوج».

تركتُه عندها في منتصف الدرب، ورحتُ أركض في الحقل، في هواء الجحيم والأشجار الأسود منادية أوتو ملء رئتيَّ وكأنَّ ذاك الرجل يريد اللّحاق بي، وكأنَّني أحتاج الكلب ليدافع عنِّي! عندما استدرتُ لاهثةً، رأيتُ الموسيقيّ يتفحَّص للمرَّة الأخيرة نعل حذائه، ويختفي ماضيًا باتِّجاه البوَّابة بمشيته المتراخية.

4

في الأيَّام التالية، لم يأتِ ماريو. وعلى الرَّغم من أنَّني فرضتُ على نفسي ضوابطَ سلوكيَّة، على رأسها عدم الاتِّصال بالأصدقاء المشترَكين، لم أستطع المقاومة واتَّصلت بهم.

اكتشفتُ أنَّ أحدًا لم يكن يعرف شيئًا عن زوجي، ويبدو أنَّهم لم يكونوا يرونه منذ أيَّام. أعلنت عندها للجميع بغضب أنَّه هجرني من أجل امرأةٍ أخرى. ظننتُ أنَّني سأفاجئهم، لكنَّه بدا لي أنَّهم لم يندهشوا البتَّة. وعندما سألتُ، متظاهرةً باللامبالاة، إذا ما كانوا يعرفون من هي عشيقته، وكم عمرها، وماذا تفعل، وإذا ما كان يسكن في منزلها، لم أتلقَّ سوى إجاباتٍ مبهمة. وحاول زميلٌ له من الجامعة يُدعى فاراكو أن يواسيني قائلًا:

«إنَّها السنّ. ماريو في الأربعين. هذه أمور تحصل».

لم أتحمَّله، وهمستُ بخبث:

«أصحيح ذلك؟ أهذا ما حدث لك؟ أيحدث لكلِّ من في

عمركم بدون استثناء؟ ولماذا ما تزال تعيش مع زوجتك؟ دعني أتكلَّم قليلًا مع ليا، أودّ أن أقول لها إنَّ هذا ما حدث لك أيضًا!»

لم أكن أريد أن أتصرَّف على هذا النحو، فكانت إحدى القواعد ألَّا أُمسي كريهة. غير أنَّني كنتُ عاجزة عن ضبط نفسي، وكنتُ أسمع في الحال غليان دمي إلى أن يصمّ أذنيَّ ويحرق عينيَّ. عقلانيَّة الآخرين، ونيَّتي في الهدوء، كانتا تُثيران أعصابي. كانت أنفاسي تتراكم في حلقي، وتستعدّ لتنبعث مذبذبةً بالكلمات الحانقة. كانت تنتابني رغبةٌ في المشادَّة، وقد تخاصمتُ بالفعل مع أصدقائنا من الذكور أوَّلًا، ومن ثم مع زوجاتهم، أو رفيقاتهم؛ ورحتُ بعدها أتصادم مع كلِّ من كان يسعى، أكان رجلًا أو امرأة، لمساعدتي على قبول ما كان يجري لحياتي.

ثابرتْ ليا، زوجة فاراكو، على ذلك بصبرٍ خاصّ، وهي امرأةٌ تتمتَّع بالقدرة على التوسُّط وإيجاد المخارج، حكيمة، ومتفهِّمة، حتى إنَّ التخاصم معها كان أشبه بإهانة حفنة الأشخاص الطيِّبين الضئيلة. إلَّا أنَّني عجزتُ عن كبح جماحي، وسرعان ما بتُّ أشكّ فيها أيضًا. أقنعتُ نفسي أنَّه ما إن تتكلَّم معي حتى تهرع إلى زوجي أو إلى عشيقته لتروي لهما بالتفصيل ردود فعلي، وكيفيَّة عنايتي بالولديْن والكلب، وكم من الوقت ما يزال يلزمني لأتقبَّل الوضع. لذلك، كففتُ فجأةً عن لقائها لأُمسي بلا صديقة ألجأ إليها.

بدأت أتغيَّر. وخلال شهر، أقلعتُ عن عادة التبرُّج باهتمام، وانتقلتُ من اللغة الأنيقة التي تحرص على ألَّا تصدم الآخر إلى طريقةٍ ساخرة دائمًا في التعبير، تتخلَّلها ضحكاتٌ مجلجلة بعض الشيء. وشيئًا فشيئًا، على الرَّغم من تمنُّعي، أذعنتُ للكلام الفاحش.

كان الفُحش يخرج من بين شفتيّ بعفويَّة، وكان يبدو لي أنَّه يساعدني في أن أؤكِّد، للمعارف القليلة التي كانت تسعى ببرود لأن تواسيني، أنَّ الكلمات العذبة لا تنطلي عليَّ. وما إن أفغر فاهي حتى أشعر بالرغبة في السخرية من ماريو، وتلويث سمعته، وتمريغه مع عاهرته بالوحل. كنتُ أكره فكرة أن يعرف كلّ شيء عنِّي، فيما لم أكن أعرف عنه سوى القليل، أو لا شيء البتَّة ربَّما! كنتُ أشعر كالأعمى الذي يُدرك أنَّ أولئك الذين يودّ أن يراقب كلّ ما يبدر عنهم شاخصون إليه. وكنتُ أتساءل، والضغينة تشتعل متفاقمةً في صدري، إذا ما كان يُعقل أن ينقل الخبثاء أمثال ليا كلّ ما يخصّني لزوجي، فيما لم أستطع أنا أن أتبيَّن أيّ نوع من النساء يضاجع، من أجل مَنْ هجرني، وبماذا هي أفضل منِّي؟ الذنب ذنب الجواسيس، كان يُخيَّل لي، ذنب الأصدقاء المزيَّفين، أولئك الذين يقفون إلى جانب من يتمتَّع بحياته حرًّا وهانئًا لا إلى جانب المقهورين. كنتُ أُدرك ذلك تمامًا. كانوا يفضِّلون الأزواج الجدد، الفرحين دائمًا، والذين يتنزَّهون حتى ساعة متقدِّمة من الليل بوجوههم المترعة لانصرافهم الدائم للمضاجعة. يتبادلون القُبل، والعضّ، يلحسون ويمصُّون بعضهم بعضًا، ليتذوَّقوا طعم القضيب والعانة. لم أكن أتخيَّل من ماريو وامرأته سوى ذلك: كيف ومتى يتضاجعان. كنتُ أفكِّر بذلك ليل نهار، فيما كنتُ، وقد أَسَرتْني الأفكار، أُهمل نفسي، فلم أعد أسرِّح شعري أو أغتسل. كم مرَّة يتضاجعان! كنتُ أتساءل، بألم فظيع، كيف وأين؟ وبذلك، انسحبت بدورها القلَّة القليلة التي كانت تسعى لمعاونتي، فكان من الصعب تحمُّلي. ألفيتُ نفسي وحيدةً ومذعورةً من يأسي.

5

وبشكلٍ موازٍ، بدأ ينمو في داخلي إحساسٌ دائم بالمخاطرة، فعبءُ ولديْن، والمسؤوليَّة، ومتطلِّبات حياتهما المادِّيَّة باتت هاجسًا دائمًا. كنتُ أخشى ألَّا أكون قادرةً على رعايتهما بعد اليوم، حتى إنَّني كنتُ أخاف أن أُسيء إليهما في لحظة إنهاكٍ أو شرود، لا لأنَّ ماريو كان يبذل الكثير لمساعدتي في الماضي، فقد كان دائمًا منصرفًا للعمل، بل لأنَّ وجوده، أو على الأصحّ غيابه الذي كان يمكن أن يتحوَّل دائمًا إلى حضور إذا دعت الحاجة، كان يطمئنني. وفكرة ألَّا أعلم الآن أين هو، وألَّا أملك رقم هاتفه، وأن أتَّصل بوتيرةٍ محمومةٍ بهاتفه الخلويّ لأكتشف أنَّه يُبقيه دائمًا مطفأً ليستحيل اقتفاء أثره، حتى إنَّ زملاءه في العمل، أو المتواطئين معه كانوا يقولون لي إنَّه كان غائبًا لإصابته بالمرض، أو إنَّه في إجازة، أو حتى إنَّه في الخارج للكشف على بعض المواقع، كلّ ذلك كان يُشعرني وكأنَّني ملاكمٌ نسي

الضربات الصحيحة، وراح يدور على الحلبة وقد ارتخت ساقاه، وتراجعت حدَّة انتباهه!

كنتُ أعيش في ذعر من أن أنسى اصطحاب إيلاريا من المدرسة، وإذا ما أرسلتُ جاني ليشتري لي بعض الحاجيات من المتاجر القريبة، كنت أخشى أن يصيبه مكروه، أو أسوأ من ذلك، أن يغيب عن ذهني ـ وأنا مستغرقة في همومي ـ وجوده وألَّا أتفقَّد عودته!

كنتُ في وضعٍ هشٍّ، أتصدَّى له بضبطٍ مشدودٍ ومضنٍ للنفس. كان رأسي مشغولًا كلّه بماريو، بالتخيُّلات حوله وحول تلك المرأة، بإعادة تفحُّص الماضي، والهَوَس في أن أُدرك النقص الذي فيّ. ومن جهة أخرى، كنتُ أسهر يائسةً على الواجبات المفروضة عليّ: الحرص عند رشّ الملح على المعكرونة لئلَّا أملِّحها مرَّتيْن، والحرص على مدَّة صلاحيَّة الأطعمة، والحرص على ألَّا أترك الغاز مشتعلًا.

سمعتُ في إحدى الليالي أصواتًا في البيت كورقةٍ تنزلق بسرعة على الأرض وقد طيَّرتْها نسمةُ هواء.

كان الكلب يهمهم خائفًا.. فأوتو، وعلى الرَّغم من أنَّه كلبٌ ذئب، لم يكن شجاعًا.

نهضتُ ونظرتُ أسفل السرير، وتحت الأثاث. وبين الغبار الذي تراكم، رأيتُ شكلًا أسود يفرّ من تحت المنضدة، ويخرج من غرفتي، ويتوارى في غرفة الولديْن وسط نباح الكلب.

هرعتُ إليهما، وأنرتُ الضوء، وجذبتهما وقد تعتعهما النوم إلى خارج الغرفة. أخافهما خوفي، وشيئًا فشيئًا، تمالكتُ نفسي.

طلبتُ من جاني أن يجلب المكنسة، وهو بحرصه المفرط، حمل المجرود أيضًا. أمَّا إيلاريا، فبدأت بالصراخ:

«أريد بابا.. اتَّصلي ببابا».

فلفظتُ مقاطع الكلمات بغضب:

«أبوكما تركنا. ذهب ليعيش في مكانٍ آخر مع امرأةٍ أخرى، لم نعد نجديه نفعًا».

على الرَّغم من الاشمئزاز الذي كان يُثيره فيَّ أيُّ كائن حيّ يذكِّرني بالزواحف، فتحتُ بتؤدة باب غرفة الولديْن، ودفعتُ جانبًا أوتو الذي كان يريد الدخول، وأقفلته ورائي.

عليَّ أن أبدأ من هناك، قلتُ في قرارة نفسي. لا تراخٍ بعد الآن، فأنا وحدي. حشرت المكنسة بغضبٍ وقرف تحت سريريْ جاني وإيلاريا، من ثم تحت الخزانة. سحلية خضراء مصفرَّة، لا أعلم كيف وصلت إلى بيتنا في الطابق الخامس، فرَّت مسرعة على طول الجدار باحثةً عن فجوة، عن ثغرةٍ تختبئ فيها. حبستها في زاوية وسحقتها ضاغطة بكلِّ ما أوتيت من قوَّة على عصا المكنسة. بعد ذلك، خرجتُ مشمئزَّةً بجيفة السحلية الكبيرة في المجرود، قائلةً:

«كلّ شيء على ما يرام، لسنا بحاجة لبابا».

ردَّت إيلاريا بقسوة:

«في المرَّة القادمة، أريد أنا نحرها».

«بابا ما كان ليقتلها، كان ليمسكها من ذنبها ويحملها إلى الحديقة».

هزَّ جاني رأسه، واقترب منِّي. تفحَّص السحلية، وعانقني وقال لي:

«في المرَّة القادمة، أُريد أن أنحرها أنا».

في تلك الكلمة المفرطة ـ أنحرها، شعرتُ بضيقه العارم. كانا ابنيّ، وكنت أعرفهما حقّ المعرفة، وكانا يستوعبان، من غير أن يُظهرا ذلك، الخبر الذي أعلنته لهما للتوّ: والدهما رحل وقد آثر عليهما، وعليَّ، امرأةً غريبة.

لم يطرحا عليَّ أيّ سؤال أو يُطالباني بشرح. عاد الاثنان إلى سريريْهما خائفيْن من فكرة أن تكون حيوانات أخرى من الحديقة العامَّة قد تسلَّقت المبنى وصولًا إلى شقَّتنا. استسلما للنوم بصعوبة، وعند استيقاظهما، كانا مختلفَيْن، كما لو أنَّهما اكتشفا أنَّه لم يعد في العالم من مكانٍ آمن. وتلك كانت قناعتي أنا أيضًا.

6

بعد حادثة السحليَّة، باتت الليالي التي كان يُجافيني فيها النوم أصلًا عذابًا. من أين أتيتُ، وإلى ماذا سيؤول بي الحال؟ في الثامنة عشرة من العمر، كنتُ أعتبر نفسي متميِّزةً حافلةً بالوعود. عند بلوغي العشرين، كنتُ قد بدأتُ العمل. وفي الثانية والعشرين، تزوَّجتُ ماريو. كنَّا قد غادرنا إيطاليا، وقصدنا كندا أوَّلًا ومن ثم إسبانيا، لننتقل بعدها إلى اليونان. في الثامنة والعشرين، كنتُ قد أنجبتُ جاني، وفي أشهر الحَمْل، كنتُ قد كتبتُ قصَّةً طويلة تدور أحداثها في نابولي نشرتُها العام التالي بسهولة. في الحادية والثلاثين، رُزقت بإيلاريا. والآن، وقد بلغتُ الثامنة والثلاثين، بتُّ لا شيء، لم أعد حتى قادرة على التصرُّف كما ينبغي. فقدتُ العمل والزوج. تقلَّصتُ، وانكسرتُ.

عندما يكون الولدان في المدرسة، كنتُ أستلقي على

الأريكة، أنهض، وأعاود الجلوس، وأشاهد التلفزيون. ولكنْ لم يُفلح أيّ برنامج في أن يُنسيني نفسي. كنتُ أدور ليلًا في البيت، وينتهي بي الأمر أمام قنوات حيث النساء، خاصَّة النساء، يتأوَّهن على أسرَّتهنَّ كطيور أمّ سكعكع على أغصان الشجر. يتدلَّلن بعهرٍ خلف رقم الهاتف المطبوع على الشاشة، ووراء العبارات التي تَعِد بألذِّ النشوات، أو كنَّ يتأوَّهن بأصواتهنَّ الناعمة وهنَّ يتلوَّيْن. كنت أنظر إليهنَّ وأنا أتخيَّل أنَّ عاهرة ماريو قد تكون مثلهنَّ، حلم البورنوغرافيّ أو كابوسه، وأنَّ هذا ما كان يتمنَّاه سرًّا في الخمسة عشر عامًا التي قضيناها معًا، هذا بالضبط وأنا لم أفهم ذلك. لذا، كنتُ أغضب على نفسي أوَّلًا، ومن ثم منه، إلى أن أنخرط في البكاء كما لو أنَّ سيِّدات الليل التلفزيونيّ، في تلمُّسهنَّ لنهودهنَّ العملاقة المستميت، أو لحس الواحدة منهنَّ لحلمتيْها وهنَّ يتلوَّيْن من متعةٍ زائفة، مشهدٌ حزين حتى البكاء.

لأُهدِّئ من روعي، رحتُ أكتب حتى الفجر. في البداية، حاولتُ إنجاز الكتاب الذي كنت أعمل على تجميع أجزائه منذ سنوات، وسرعان ما أقلعتُ عن ذلك متقزِّزة. كتبتُ، الليلة تلو الليلة، رسائل لماريو، مع أنَّني لم أكن أعلم إلى أيّ عنوان أرسلها. كنتُ آمل أن أتمكَّن عاجلًا أم آجلًا من إعطائها له، وكان يروق لي أن أتصوَّر أنَّه سيقرأها. كنتُ أكتب في البيت الصامت، فلا أسمع سوى أنفاس الولديْن في الغرفة المجاورة، وأوتو الذي يدور بين الغرف مزمجرًا قلقًا. في تلك الرسائل المطوَّلة، كنت أبذل جهدي لاعتماد نبرةٍ رصينة، وودِّيَّة. كنتُ

أُخبره بأنّني أعترف بأنّ تناقضات الحياة الزوجيّة كثيرة، وأنا كنتُ منكبّة على تفحُّص تناقضاتنا لأحلّها فأتخلّص منها. المهمّ، الأمر الوحيد الحقيقيّ الذي كنتُ أودّ مطالبته به هو أن يستمع إليّ، وأن يوضح لي إذا ما كان ينوي أن يشاركني التحليل الذاتيّ الذي أقوم به. لم أكن أحتمل غيابَه، ما كان عليه أن يحرمني من مواساةٍ كنتُ أحتاجها، كان يدين لي بالانتباه على الأقلّ. بأيّ جرأة كان يتركني وحيدةً، ومنهارة، أنظر بالمجهر إلى سنوات حياتنا معًا الواحدة تلو الأخرى. كنتُ أكتب إليه كاذبةً أن لا أهمّيّة تُعلّق على أن يعود للعيش معي ومع ابنَيْنا. أولويّتي كانت مختلفة، أولويّتي كانت أن أفهم: لماذا رمى بهذه الخفّة خمسة عشر عامًا من المشاعر، والانفعالات، والحبّ؟ الزمن، الزمن.. أخذ زمن حياتي كلّه ليتخلّص منه بخفّةِ نزوة. يا للقرار الظالم، الأُحاديّ الجانب! نفخ الماضي كما ينفخ حشرةً استقرّت على يده. ماضيّ وليس ماضيه فقط جاور التداعي. كنتُ أطلب منه، وأرجوه أن يساعدني، لأفهم إذا ما كان لذاك الزمن من كثافة على الأقلّ، ومنذ متى اتّخذ درب الانحلال تلك، وإذا ما كان مجرّد هدرٍ للساعات، والأشهر، والسنوات، أو أنّ معنًى سرّيًّا كان يفتديه ليجعله تجربةً قادرة على الإتيان بثمارٍ جديدة. كنتُ أختم بالقول إنّ ذلك كان ضروريًّا وملحًّا. بالمعرفة فقط، كنتُ سأستعيد أنفاسي وأبقى على قيد الحياة ولو من دونه! أمّا هكذا، في خضمّ اضطراب العيش بالمصادفة، فإنّي أذوي، وأجفّ، لقد كنتُ يابسة كصَدَفةٍ على شاطئٍ ذات صيف.

عندما كان القلم يحفر أصابعي المتورّمة حتى أشعر بالألم، وعندما كانت تُعمى العينان لفرط البكاء، كنتُ أتوجّه إلى النافذة.

كنتُ أشعر بموجة الريح وهي تصفع أشجار الحديقة العامَّة، ووحشة الليل الخرساء الذي تُنيره بالكاد أعمدة الإنارة ببراعمها المضيئة وقد غطَّتها الأوراق. في تلك الساعات الطويلة، كنتُ حارسة الألم، أسهر مع حشدٍ من الكلمات الميِّتة.

7

نهارًا، كانت تأخذني حركةٌ محمومة تزداد شرودًا. كنتُ أفرض على نفسي ما عليَّ فعله، وأركض من أقصى المدينة إلى أقصاها لأصرِّف شؤونًا لم تكن بالملحَّة، أعدّ لها طاقة المُلحّ من الأمور. كنتُ أريد أن أبدو مأخوذةً بتصميم ما، غير أنَّ سيطرتي على جسدي كانت ضعيفة، ووراء ذاك النشَاط، كنتُ أحيا كمن يسير في نومه.

كانت تورينو تبدو لي قلعةً ضخمة، أسوارها محمرَّة، وجدرانها رماديَّة جليديَّة تعجز شمس الربيع عن بثِّ الحرارة فيها. في أيَّام الصحو، كان ضوءٌ بارد يتمدَّد في الطرقات ويجعلني أتعرَّق من الضيق. وإذا ما خرجتُ سيرًا على الأقدام، كنتُ أصطدم بالأشياء، والأشخاص، وكنتُ أجلس غالبًا كيفما اتَّفق لأهدِّئ من رَوْعي. في السيَّارة، كنتُ أرتكب الخطأ تلو الآخر، وأنسى أنَّني أقودها. كانت الطرقات سرعان ما تُستبدل بذكرياتٍ

نابضة من الماضي، أو بخيالاتٍ تُثير حَنَقي، وكنتُ أصطدم غالبًا بدفاعات السيَّارات، أو أضغط على المكبح في اللحظة الأخيرة بغضب، كما لو أنَّ الواقع دخيلٌ يداهمني ليهدم عالمًا أستشفّ طيفه وهو العالم الوحيد الذي كان، في تلك اللحظات، يعنيني.

في تلك الحالات، كنتُ أستشيط غضبًا، أتجادل مع مَن يقود السيَّارة التي صدمتها، أصرخ شاتمةً، وإذا ما كان رجلًا، كنتُ أقول له إنَّه كان على الأرجح شاردًا تراوده أفكار فاحشة بالتأكيد كالتفكير بعشيقة فتيَّة.

تملَّكني الهلع فقط عندما سمحتُ بشرود مرَّةً لإيلاريا أن تجلس إلى جواري. كنتُ أقود السيَّارة في جادَّة ماسيمو داتزيليو، وكنتُ قد بلغتُ شارع غاليليو فيراريس. كان المطر يهمي على الرَّغم من أنَّ الشمس كانت مشرقة، ولستُ أدري بماذا كنتُ أفكِّر، ربَّما توجَّهتُ إلى الطفلة بالكلام لأتأكَّد من أنَّها وضعت حزام الأمان، أو ربَّما لم أفعل! لا شكّ في أنَّني رأيتُ في اللحظة الأخيرة ضوءَ إشارة السير الأحمر، وظِلّ رجلٍ هزيل كان يعبر على درب المشاة. كان الرجل ينظر إلى الأمام، وبدا لي كارانو جارنا. ربَّما كان هو، إنَّما بدون الآلة الموسيقيَّة التي يعلِّقها إلى كتفه، رأسه مطأطأ، وشعره أشيب. ضغطتُ على المكبح، توقَّفت السيَّارة، وقد صدر عنها صريرٌ طويل متأوِّه، على بعد سنتيمترات معدودة منه. إيلاريا كسرت الزجاج الأماميّ بجبينها، فتشعَّبت هالة من الشروخ المضيئة على الزجاج، وازرورق جلدها في الحال.

صراخٌ وبكاء. سمعتُ جَلَبة الترام إلى يميني، ومضت عرباته

الرماديَّة والصفراء أبعد من الرصيف والحاجز الحديديّ، متجاوزة إيَّاي. لم أنبس ببنت شَفَة وراء المقود، فيما كانت إيلاريا تسُدِّد إليَّ ضرباتٍ غاضبة وقد كوَّرت قبضتيْها زاعقة:

«لقد آلمتني! أنتِ غبيَّة لقد آلمتني كثيرًا!»

قال لي أحدهم جُملًا مُبْهمة، ربَّما كان جاري، هذا إذا ما سلَّمنا جدلًا أنَّه كان هو. هزَّني، فرددتُ عليه بكلماتٍ مسيئة. عانقتُ بعد ذلك إيلاريا، وتأكَّدتُ من عدم وجود دم. صرختُ ردًّا على الأبواق التي كانت ترتفع بإلحاح، ودفعتُ المارَّة جانبًا وقد أزعجتني عروضهم للمساعدة وقد تجمَّعوا في غيمةٍ من الظلال والأصوات. اجتزتُ عربات الترام متَّجهةً بدون مبرِّر إلى حمّام عام رماديّ، برزت عليه يافطةٌ قديمة كُتب عليها «بيت الفاشي». وما لبثتُ أن عدلتُ عن الفكرة. ما أنا فاعلة؟ عدتُ أدراجي. جلستُ إلى المقعد عند محطَّة الترام وقد أجلستُ إيلاريا على حُجْري وهي تصرخ، مبعدةً بحركاتٍ حاسمة من يدي الأطياف والأصوات التي احتشدت حولي. عندما أفلحتُ في تهدئة ابنتي، قرَّرتُ التوجُّه إلى المستشفى. أذكر أنَّ فكرةً واحدة واضحة كانت تلحّ عليّ. سيخبر أحدٌ ما ماريو أنَّ ابنته أُصيبت بمكروه، وعندها سيحضر.

إلَّا أنَّه تبيَّن أنَّ حالة إيلاريا كانت ممتازة، ولم تحمل، طويلًا وبشيء من الفخر، سوى كدمةٍ ليلكيَّة وسط جبينها لا تُثير قلق أحدٍ وتحديدًا قلق والدها، هذا إذا افترضنا أنَّ أحدًا ما أخبره بما جرى. الذكرى المزعجة الوحيدة التي تبقَّت من ذلك اليوم، كانت فكرتي تلك، ذاك الدليل على ضحالتي اليائسة، والرغبة

الطائشة في استخدام الطفلة لاستدراج ماريو إلى البيت، فأقول له: أترى ما قد يحدث عندما لا تكون موجودًا؟ أترى بأيِّ اتِّجاه تدفعني يومًا بعد يوم؟

كنتُ خجلى من ذلك. ومن جهة أخرى، ما كان باليد حيلة، فلم أكن أفكِّر سوى بالوسيلة لاسترجاعه. وسرعان ما تملَّكني هذا الهَوَس: أن ألتقيه، أن أقول له إنَّه أُسقط في يدي، وأن أُريه إلى ماذا آل بي الحال من دونه. كنت على ثقة أنَّه، وقد أصاب العمى مشاعره، بات عاجزًا عن إدراجي وإدراج ابنيْنا في ظرفنا الحقيقيّ، وأنَّه يتخيَّل أنَّنا ما نزال نحيا، كالعادة، بهدوء.

ربَّما كان يتصوَّر حتى إنَّنا مرتاحون قليلًا، لأنَّني لم أعد مُلزمة بالاهتمام به، ولم يعد على الولديْن أن يخشيا سلطته، فجاني لم يعد يؤنَّب إذا ما ضرب إيلاريا، ولم تعد إيلاريا تؤنَّب إذا ما أزعجت أخاها، وكان الجميع يعيشون، نحن من جهة، وهو من الجهة الأخرى، بسعادة. عليّ، كنتُ أقول لنفسي، أن أفتح عينيْه. كنتُ آمل أنَّه، لو تمكَّن من رؤيتنا، لو تمكَّن من تبيُّن حالة البيت، ولو استطاع أن يُتابع ليوم واحد ما آلت إليه حياتنا وقد باتت فوضويَّة، ولاهثة، ومشدودةً كخيطٍ حديديٍّ يشقّ الجلد.. ولو استطاع قراءة رسائلي، وفهم العمل الجدِّي الذي أقوم به لتحديد الأعطال التي طرأت على علاقتنا، لاقتنع بضرورة العودة إلى العائلة في الحال!

ما كان ليهجرنا أبدًا لو كان يعرف وضعنا. فحتى الربيع وقد انتصف، والذي قد يبدو له، أينما كان، موسمًا رائعًا، لم يكن بالنسبة لنا سوى قاعٍ من الشقاء والتلاشي. ليل نهار، كان يبدو

وكأنَّ الحديقة تندفع باتِّجاه بيتنا كما لو كانت تريد أن تلتهمه بالأغصان والأوراق. كان لقاح النبات يجتاح المبنى ويُشعل حيويَّة أوتو. أمَّا إيلاريا، فقد تورَّم جفناها، وكان طفحٌ جلديّ قد أصاب جاني عند منخرَيْه ووراء أذنيْه. وأنا، بسبب التعب، والإنهاك، كنتُ أستسلم للنعاس عند العاشرة صباحًا أكثر فأكثر، وما إن أستيقظ حتى أهرع إلى مدرسة الولديْن لاصطحابهما، حتى إنَّني، ومخافة ألَّا أنتشل نفسي في الموعد المحدَّد من ذاك النوم المباغت، رحتُ أعوِّدهما على الرجوع إلى البيت بمفردهما.

ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ النعاس النهاريّ الذي كان يُثير حَذَري في البداية بصفته عارضًا مرضيًّا أصبح يروق لي الآن، وكنتُ أنتظره. أحيانًا، كان يوقظني صوت الجرس البعيد، كانا الطفليْن وهما يقرعان الباب منذ وقتٍ طويل على الأرجح! وفي إحدى المرَّات، وقد فتحتُ الباب بعد وقتٍ طويل، قال لي جاني:

«خلتُ أنَّكِ ميِّتة».

مكتبة
t.me/t_pdf

8

في إحدى تلك الصبيحات، التي قضيتها بالنوم، استفقتُ مذعورةً وكأنَّ نحلةً وخزتني. خلتُ أنَّه أوان عودة الولديْن. نظرتُ إلى الساعة، لكنَّ الوقت كان مبكرًا. أدركتُ أنّ ما مزَّق سمعي كان جرس الهاتف الخلويّ. أجبتُ غاضبةً، بتلك النبرة الحانقة التي بتُّ أعتمدها مع الجميع، فإذا بماريو على الخطِّ، فغيَّرتُ صوتي في الحال. قال إنَّه يتَّصل بي على الهاتف الخلويّ، لأنَّ عطلًا أصاب هاتف المنزل، وقد حاول الاتِّصال به مرارًا فلم يسمع سوى صفير، وحديث بعيد بين غرباء. انفعلتُ لسماعي صوته، ونبرته اللطيفة، ولوجوده في مكانٍ ما من هذا العالم. وكان أوَّل ما قلتُه له:

«الزجاج في طبق المعكرونة لم أضعه أنا، سقط سهوًا.. فقد أوقعتُ زجاجة...».

«لا عليكِ أبدًا» ردَّ عليَّ قائلًا، مُضيفًا «أنا من تصرَّف بطريقةٍ خاطئة».

أخبرني أنَّه اضطرَّ للسفر فجأةً في رحلة عمل إلى الدانمارك، كانت الرحلة جميلة إنَّما منهكة. سألني إذا ما كان يستطيع المرور بنا مساءً ليسلِّم على الولديْن، وليأخذ بعض الكتب التي يحتاجها لكتاباته.

«بالطبع» أجبته، «هذا بيتك».

في رمشة عين، ما إن أقفلتُ الخطّ، حتى تبدَّد مشروعي في أن أُظهر له وضع البيت، ووضع الولديْن، ووضعي المزري. نظَّفتُ البيت، ولمَّعتُه، ورتَّبته.. استحممتُ، ونشَّفتُ شعري، وغسلتُه مجدَّدًا لأنَّ التسريحة لم ترق لي. تبرَّجتُ بعناية، وارتديتُ فستانًا خفيفًا صيفيًّا كان قد أهداني إيَّاه وكان يُعجبه. اعتنيتُ بيديّ وقدميّ.. بقدميَّ تحديدًا، فكنتُ أخجل منهما، ويبدو لي شكلهما فظًّا. حرصتُ على كلِّ تفصيل، حتى إنَّني أخذتُ مفكِّرتي، وقمتُ بحساباتي لأكتشف بخيبة أمل أنَّ عادتي الشهريَّة ستحلّ قريبًا، فتمنَّيتُ أن تتأخَّر.

عندما عاد الولدان من المدرسة، فوجئا أيّما مفاجأة. قالت لي إيلاريا:

«كلّ شيء نظيف، وأنتِ أيضًا. كم أنتِ جميلة»!

إلَّا أنَّ علامات الرضا توقَّفت عند هذا الحدّ، فقد اعتادا العيش في الفوضى، والعودة المفاجئة للنظام السابق أثارت حذرهما. جاهدتُ طويلًا لأقنعهما بالاستحمام، ليلمعا هما أيضًا

كما لو كنَّا في عيد. قلتُ لهما:

«سيأتي أبوكما مساء اليوم، وعلينا جميعًا أن نعمل على ألَّا يرحل مجدَّدًا».

أعلنت لي إيلاريا في ما يُشبه التهديد:

«سأخبره إذًا عن الكدمة».

«أخبريه ما شئتِ».

قال جاني بانفعالٍ كبير:

«أنا سأقول له إنَّه منذ ذهب وأنا أُخطئ في واجباتي، وقد تراجعتُ في المدرسة».

«نعم» قلتُ موافقة.. «قولا له كلّ شيء. قولا له إنَّكما بحاجةٍ إليه، قولا له إنَّ عليه أن يختار بينكما وبين امرأته الجديدة».

مساءً، عاودتُ الاستحمام والتبرُّج، غير أنَّني كنتُ عصبيَّةً ولم أكفّ عن الصراخ من الحمَّام على الولديْن وهما يبثَّان الفوضى. كنتُ فريسة ضيقٍ متنام، ورحتُ أقول لنفسي: انظري ها هي البثور تغطّي ذقنكِ، وصدغيكِ.. لم أكن يومًا محظوظة.

ثم خطر على بالي أن أضع القرطَيْن اللذيْن كانا لجدَّة ماريو، وقد كان متمسِّكًا جدًّا بهذه الحِلى، وكانت أمُّه أيضًا قد ارتدتهما طيلة حياتها.

كانا قيِّميْن، وكان قد سمح لي، خلال خمسة عشر عامًا من الزواج، أن أضعهما مرَّة واحدة فقط بمناسبة زفاف أخيه، وحتى في تلك المناسبة، أبدى الكثير من التحفُّظ. كان شديد الحِرص

عليهما، لا خوفًا من أن أضيِّعهما، أو أن يُسرقا، أو لأنَّه كان يعتبرهما ملكيَّته الحصريَّة.. أعتقد، بالأحرى، أنَّه عندما كان يراني أضع القرطيْن كان يخشى أن أُشوِّه ذكريات، أو خيالاتٍ تعود إلى طفولته أو مراهقته!

أردتُ أن أُريه بشكلٍ حاسم أنَّني كنتُ التجسيدَ الوحيدَ لهذه الخيالات. نظرتُ إلى المرآة، وعلى الرَّغم من هزالي، والهالات المزرقَّة تحت العينيْن، واللون الشاحب الذي لم يفلح التبرُّج في تغطيته، بدا لي أنَّني جميلة، أو بالأحرى كنتُ أريد أن أبدو جميلة مهما كلَّف الأمر. كنتُ بحاجة للشعور بالثقة. كان جلدي ما يزال متماسكًا، ولم تظهر عليّ آثار السنوات الثماني والثلاثين. وإذا ما كنتُ قادرةً على أن أُخفي عن نفسي الانطباع بأنَّ الحياة قد امتُصَّت منِّي كالدم، واللعاب، والمخاط في أثناء عمليَّة جراحيَّة، قد أنجح في خداع ماريو أيضًا.

غير أنَّني سرعان ما شعرتُ بالإحباط. شعرتُ بجفنيَّ ثقيلَيْن، وبألم في ظهري، والرغبة في البكاء. نظرتُ إلى لباسي الداخلي فألفيتُه مبقَّعًا بالدم. تلفَّظتُ بشتيمةٍ مقذعة في لهجة مدينتي، بصوتٍ غاضب، لدرجة جعلتني أخشى أن يكون الولدان قد سمعاني. اغتسلتُ مجدَّدًا وغيَّرتُ لباسي الداخلي. أخيرًا، قُرع الجرس.

في الحال، شعرتُ بالضِّيق، ها هو السيِّد يتصرَّف كغريب ولا يستخدم مفاتيح بيته، أراد أن يؤكِّد أنَّها مجرَّد زيارة. كان أوَّل من اندفع في الرواق أوتو، في قفزاتٍ مجنونة، وأنفاسه المحمومة تتلاحق، ونباحه المتحمِّس يرتفع بالعرفان. التحق به

جاني الذي فتح الباب وتجمَّد مستنفرًا. خلفه، وكأنَّها تختبئ وراء أخيها ضاحكةً وعيناها تلمعان، وقفت إيلاريا. أمَّا أنا، فبقيتُ في أقصى الرواق عند باب المطبخ.

دخل ماريو محمَّلًا بالعلب. لم أكن قد رأيتُه منذ أربعة وثلاثين يومًا بالضبط. بدا لي أكثر شبابًا، وأكثر عنايةً بمظهره، لا بل أكثر راحة، فتقلَّصت معدتي متسبِّبةً لي بألمٍ كدتُ أغيب معه عن الوعي. في جسده، وفي وجهه لا أثر لاشتياقه إلينا. فيما كانت باديةً على محيّاي، وهو ما تأكَّدتُ منه ما إن وقعت عليَّ نظرته القلقة، آثار المعاناة كافَّة، كان هو عاجزًا عن إخفاء آثار الراحة، أو ربَّما السعادة.

قلتُ بسعادة زائفة: «يا أولاد اتركوا أباكما وشأنه»، بعد أن انتهت إيلاريا وجاني من تمزيق الورق الذي غطَّى الهدايا، ومعانقته، وتقبيله والتخاصم بينهما لإثارة انتباهه. غير أنَّهما لم يعيراني اهتمامَهما. لازمتُ إحدى الزوايا مستاءةً فيما كانت إيلاريا تُجرِّب الفستان الذي اشتراه لها أبوها متأنِّقة، وبينما كان جاني يُطلق في الرواق سيَّارةً إلكترونيَّة، كان أوتو يركض خلفها نابحًا. بدا لي الوقت في حالة غَلَيان كما لو كان يفور من قِدْر على النار في موجاتٍ دبقة. كان عليَّ أن أتحمَّل الطفلة التي كانت تروي بألوان قاتمة قصَّة الكدمة مؤكِّدة على ذنبي في ذلك، فيما ماريو يُقبِّل جبينها ويطيِّب خاطرها. جاني كان يبالغ في وصف إخفاقاته المدرسيَّة، ويقرأ له بصوتٍ مرتفع واجبًا لم يلقَ استحسان معلِّمته، فيما كان أبوه يمتدحه، ويطمئنه. يا للمشهد المنفِّر! في النهاية، ضقتُ ذرعًا ودفعتُ الطفلَيْن إلى غرفتهما

باستياء، وأغلقتُ الباب مهدِّدةً بمعاقبتهما إذا ما خرجا منها، وبعد جهدٍ ملحوظ لأُعيد لصوتي جاذبيَّته، باء بالفشل الذريع، هتفتُ:

«حسنًا! هل تسلَّيتَ في الدانمارك؟ هل رافقتك عشيقتكَ؟»

هزَّ رأسه وزمَّ شفتيْه، وأجاب بنبرةٍ منخفضة:

«إذا ما تصرَّفتِ على هذا النحو آخذ أغراضي وأذهب في الحال».

«إنِّي أسألكَ فقط كيف كانت الرحلة. ألا يسعني أن أطرح السؤال عليكَ؟»

«ليس بهذه النبرة».

«وكيف هي نبرتي؟ بأيّ نبرةٍ عليَّ أن أكلِّمكَ؟»

«بنبرة شخصٍ حضاريّ».

«هل كنتَ حضاريًّا معي؟»

«أنا كنتُ مغرمًا».

«وأنا من قبلكَ، كنتُ مغرمة بكَ. لكنَّك أذلَّيتَني وما فتئتَ تذلّني».

77خفض نظره، وبدا لي آسفًا بالفعل، فانفعلتُ عندها، ورحتُ أحدِّثه فجأةً بعاطفةٍ لم أستطع أن أتفاداها. قلتُ له إنَّني أفهم وضعَه، وإنَّني كنتُ أتخيَّل مدى تشويشه، ولكنْ أنا، قلتُ هامسةً في وقفاتٍ طويلة مفعمة بالعذاب، مهما حاولتُ إعادة الترتيب، والفهم، والانتظار بصبر أن تنقضي العاصفة، كنتُ أستسلم أحيانًا، وأفشل. لذلك، ولأبرهن له على حُسن نواياي، أخرجتُ من دُرْج طاولة المطبخ رزمة الرسائل التي كتبتُها له، وعرضتُها عليه مستحثَّة إيَّاه.

«أنظر كم عملتُ»، قلتُ له شارحةً «في هذه دوافعي، والجهد الذي أبذله لأفهم دوافعك.. إقرأ».

«الآن؟»

«متى إذًا؟»

فتح منزعجًا الصفحة الأولى، وقرأ سطورًا قليلة، ونظر إليّ.

«سأقرأها في البيت».

«بيت من؟»

«كفى أولغا. أعطني بعض الوقت، لا تظنّي أنَّ المسألة سهلة. بالنسبة لي «لا شكَّ في أنَّ المسألة أصعب بالنسبة إليّ».

«ليس هذا صحيحًا، أشعر وكأنَّني أسقط في الفراغ. أخشى الساعات، والدقائق...».

لستُ أدري ما قاله بالضبط. الحقّ يُقال، إنِّي أعتقد أنَّه لمَّح فقط إلى أنَّه عند العيش معًا، والنوم في سريرٍ واحد، يمسي جسد الآخر أشبه بساعة، بـ «عدَّاد» كما قال، استخدم هذه المفردة تحديدًا، «عدَّاد الحياة التي تمضي مخلِّفة وراءَها ذيولًا من الكَرْب». بيد أنَّه بدا لي أنَّه كان يريد قول شيءٍ آخر، لا شكَّ في أنَّني فهمتُ أكثر ممَّا قاله بالفعل؛ وبابتذالٍ محسوبٍ ومتنامٍ، حاول أن يصدّه بدايةً ومن ثم أخرسه، همستُ:

«أتعني أنَّني كنتُ أُثير فيك الكرْب، أيْ أنَّك كنتَ تشعر أنَّك هرمتَ عندما تنام قربي؟ كنتَ تقيس الموت على عجيزتي، التي كانت طريَّة في ما مضى وكيف باتت الآن؟ أهذا ما تريد قوله؟»

«الطفلان هناك في الغرفة...».

«هنا وهناك... وأنا، أين أنا؟ أين تضعني أنا؟ هذا ما أريد أن أعرفَه؟ إذا ما كنتَ تشعر أنتَ بالكرْب، فهل تعرف أيّ كرْب أعيش أنا فيه؟ اقرأ، اقرأ الرسائل! إنّي عاجزة عن الخروج من هذه المشكلة.. لا أفهم ما حدث لنا!»

نظر إلى الرسائل بنظرةٍ طافحة بالاشمئزاز.

«إذا ما تعاملتِ مع المسألة بهَوَس لن تفهمي أبدًا».

«أصحيح هذا؟ كيف عليَّ أن أتصرَّف لئلّا تتحوَّل المسألة إلى هَوَس؟»

«عليكِ أن تنشغلي عنها».

شعرتُ بتقلُّص داخليّ مفاجئ، داهمتني الرغبةُ في أن أعلم إذا ما كان يشعر بالغيرة على الأقلّ، إذا ما كان ما يزال حريصًا على امتلاك جسدي، وإذا ما كان يقبل تسلُّل رجلٍ آخر.

«إنّي أروِّح عن نفسي بالفعل». قلتُ بنبرة هادئة «لا تظنّ أنّي جالسة هنا في انتظاركَ. إنّي أكتب، وأحاول أن أفهم، وأتألّم. لكنّي لا أفعل ذلك إلّا من أجلي، ومن أجل الولديْن، وليس لإسعادك بالتأكيد. هل أَلْقَيْتَ نظرة؟ هل رأيتَ حياتنا الهانئة نحن الثلاثة؟ وهل رأيتَني أنا؟»

قوَّست جذعي، وهززتُ القرطيْن بسخريةٍ مرَّة من جهة، ومرَّة من الجهة الأخرى.

«تبدين بخير»، قال بدون اقتناع.

«بخير؟ أنا في أحسن حالاتي. اسأل جارنا، اسأل كارانو كيف حالي؟»

«العازف؟»

«الموسيقيّ»

«تتردَّدين عليه؟» سألني بغير اكتراث.

ضحكتُ في شبه غصَّة.

«نعم. لنقل إنِّي ألتقيه، ألتقيه كما تلتقي عشيقتكَ».

«لماذا هو بالذات؟ هذا الرجل لا يُعجبني».

«عليَّ أن أضاجعه أنا لا أنتَ».

وضع كفَّيْه على وجهه وفَرَكه طويلًا، ومن ثم همس:

«أتفعلين ذاك أمام الولديْن؟»

ابتسمت.

«المضاجعة؟»

«الكلام بهذه الطريقة».

فقدتُ السيطرة على نفسي، وبدأتُ بالصراخ:

«الكلام بأيِّ طريقة؟ ضاق ذرعي بأن أتكلَّم لا لا لا، لا لا لقد جرحتَني. أنتَ تدمِّرني، أعليَّ أن أتكلَّم كزوجةٍ طيِّبةٍ ومهذَّبة؟ اذهب إلى الجحيم! ما هي الكلمات التي يجب أن أستخدمها لأصف ما فعلته بي، وما تفعله بي؟ ما هي الكلمات التي ينبغي أن أستخدمها لأصف ما تقوم به مع تلك؟ فلنتكلَّم على ذلك! هل تلحس عانتَها؟ هل تضع قضيبَكَ في طيزها؟ هل تفعل معها كلّ ما لم تفعله معي؟ قل لي! فأنا أراكما! أنا أرى بهاتيْن العينيْن كلّ ما تفعلانه معًا، أراه مائة ألف مرَّة، أراه ليلًا وأراه نهارًا، أراه بعينيْن مفتوحتيْن وعينيْن مغمضتيْن! ولكنْ لئلَّا أزعج الأستاذ،

ولئلَّا أزعج ابنَيْه، عليَّ أن ألجأ إلى لغةٍ نظيفة، عليَّ أن أكون مهذَّبة، عليَّ أن أكون أنيقة. . اذهب من هنا! اذهب يا كلب!»

نهض في الحال، دخل غاضبًا إلى مكتبه، حشر بعض الكتب والدفاتر في حقيبة. توقَّف لحظةً كما لو أنَّ حاسوبه سحره! أخذ علبةً فيها بعض الأقراص المدمجة، وبعض الأغراض من الأدراج.

التقطتُ أنفاسي وركضتُ خلفه. كان حشدٌ من التهم واللَّوْم يعجّ في رأسي. كنتُ أريد أن أصرخ في وجهه قائلة: لا تلمس أيّ شيء. هذه أشياء عملتُ على تحقيقها بينما كنتُ هناك، أرعاكَ، وأتسوَّقُ، وأطبخ. . هذا الوقتُ ملكي بعض الشيء، اترك كلّ شيء في مكانه. إلَّا أنَّني كنتُ الآن مرعوبةً من نتائج كلّ كلمة تلفَّظتُ بها، وتلك التي كان يمكن أن أتلفَّظ بها، كنتُ أخشى أن يكون قد اشمأزَّ منِّي، وأن يرحل بالفعل.

«ماريو، عفوًا، تعال، فلنتكلَّم. . . ماريو، أنا عصبيَّة قليلًا . . .».

توجَّه إلى الباب دافعًا إيَّاي جانبًا، فتحه وقال:

«عليّ أن أذهب. لكنَّني سأعود، لا تقلقي. . سأعود من أجل الولديْن».

كاد يخرج إلَّا أنَّه توقَّف قائلًا:

«لا تضعي هذيْن القرطيْن بعد اليوم، لا يليقان بكِ».

اختفى بعد ذلك من غير أن يُغلق الباب.

دفعتُ الدرفة بقوَّة، كان الباب قديمًا ومخلخلًا، حتى إنَّه

صفق وارتدَّ إلى الخلف لينفتح من جديد. رحتُ أسدِّد الركلات للدرفة بغضب إلى أن أقفلتها. هرعتُ بعدها إلى الشرفة فيما كان الكلبُ يزمجر حولي قلقًا. انتظرتُ أن يظهر في الشارع لأُناديه يائسةً:

«قل لي أين تسكن، اترك لي على الأقلِّ رقم هاتفكَ! ماذا أفعل إذا احتجتُ إليكَ، إذا ما مرض الولدان...».

لم يرفع حتى رأسه. صرختُ وقد فقدتُ أعصابي:

«أريد أن أعرف ما اسم تلك العاهرة، عليكَ أن تقوله لي... أريد أن أعرف إذا ما كانت جميلة، أريد أن أعرف كم عمرها...».

صعد ماريو إلى متن السيَّارة، أدار المحرِّك.. اختفت السيَّارة تحت النباتات وسط الساحة، عادت للظهور، واختفت مجدّدًا.

«ماما» ناداني جاني.

9

استدرتُ. كان الطفلان قد فتحا باب غرفتهما، ولكنَّهما لم يجرؤا على اجتياز العتبة. لا شكّ في أنَّ مظهري لم يطمئنهما. وكانا يتجسَّسان عليَّ من هناك مرعوبَيْن.

كانت نظراتهما توحي بأنَّهما يَرَيان، على غرار بعض شخصيَّات قصص الأشباح، أكثر ممَّا تمكن رؤيته في الواقع. ربَّما كانت تقف إلى جانبي، جامدةً كتمثالٍ جنائزيٍّ، امرأة ذكرياتي الطفوليَّة المهجورة، المسكينة. جاءت من نابولي إلى تورينو لتمسك ذيل تنُّورتي قبل أن تطير إلى الأسفل من الطابق الخامس. كانت تعلم أنَّني أريد أن أذرف على زوجي دموعًا من العرق البارد ودمًا، وأن أُناديه قائلة: إبقَ. هي، المسكينة، أذكر أنَّها فعلت ذلك. في إحدى الليالي، كانت قد سمَّمت نفسها. كانت أمِّي تقول بصوتٍ خفيض للعاملتيْن لديها ـ وكانت إحداهما سمراء والأخرى شقراء: «كانت المسكينة تظنّ أنَّ زوجها سيندم

ويركض فورًا ليرتمي عند سريرها معتذرًا»، إلّا أنّه بقي بعيدًا، حذرًا مع المرأة الأخرى التي كان مغرمًا بها الآن. وكانت أمّي تضحك بمرارة من تلك القصّة، ومن قصصٍ أخرى مشابهة كانت تعرفها. النساء بلا حبٍّ يبدِّدن نور العيْن، النساء بلا حبٍّ يمتن في الحياة. هذا ما كانت تقوله فيما كانت تخيط لساعاتٍ طويلة، وتقصّ التفصيلات على جسم الزبونات اللواتي كنَّ، في نهاية الستِّينيَّات، ما يزلن يخطن لديها ثيابهنَّ. روايات، ونميمة، وخياطة: وأنا أستمع. وقد اكتشفتُ هنالك الحاجة لكتابة القصص، هناك تحت الطاولة فيما كنتُ ألعب. الرجل الخائن الذي فرَّ إلى بيسكارا لم يهرع إليها حتى عندما تعمَّدت زوجته أن تتأرجح بين الحياة والموت، وكان لا بدَّ من استدعاء سيَّارة الإسعاف، ونقلها إلى المستشفى. جُمَلٌ رسخت إلى الأبد في ذهني. تعمَّدت التأرجح بين الحياة والموت، بَيْن بَيْن كالبهلوان. كنتُ أسمع كلمات أمّي، ولستُ أدري لِمَ كنتُ أتخيَّل أنَّ المسكينة استلقت حبًّا بزوجها على حدِّ سيف، وأنَّ الحدّ قد قصَّ الثوبَ والجلد. عندما رأيتُها، وقد عادت من المستشفى، بدت لي مسكينة أكثر من ذي قبل، تحت ثوبها، كانت تحمل جرحًا أحمر داكنًا. كان الجيران يتفادونها فقط لأنَّهم لم يكونوا يعرفون كيف يحدِّثونها، وماذا يقولون لها.

استفقتُ. عاد الحَنَق. كنتُ أُريد السقوط على ماريو بكلِّ ثقلي، أريد أن ألاحقه، وابتداءً من اليوم التالي، قرَّرتُ الاتِّصال مجدَّدًا بالأصدقاء القدامى لاستئناف العلاقة، غير أنَّ الهاتف كان معطَّلًا. ماريو كان قد قال الحقيقة حول ذلك. ما إن أرفع

السمَّاعة حتى أسمع وشوشة لا تُطاق، وأصداءَ أصواتٍ بعيدة.

لجأتُ إلى الهاتف الخلويّ. اتَّصلتُ منهجيًّا بجميع معارفي بنبرة اصطنعتُ فيها الهدوء، جعلتُهم يشعرون أنَّني بدأتُ أتمالك نفسي، وأعتاد الواقع الجديد. كنتُ أبدأ بسؤال أولئك الذين يبدون لي متجاوبين بحذر عن أخبار ماريو، وامرأته تلك، متظاهرةً بأنَّني أعرف كلّ شيء، وبأنَّني أرغب فقط بالكلام لأفرِّج عن كرْبي. كان أغلبهم يُجيبونني باقتضابٍ وقد أدركوا أنَّني أُجري تحقيقًا مستترًا. غير أنَّ البعض لم يقاوموا، وكشفوا لي بحذر بعض التفاصيل الصغيرة: كانت عشيقة زوجي تمتلك سيَّارة ڤولسڤاكن لونها معدنيّ، وكانت تنتعل دائمًا جزمةً حمراء مبتذلة. كانت شقراء شاحبة يصعب تحديد سنّها. بدت ليا فاراكو الأكثر استعدادًا للكلام. لم تثرثر، الحقّ يُقال، بل اكتفت بإخباري بما تعرفه. لم تكن قد التقتهما أبدًا، ولم يكن لديها ما تُخبرني به عن تلك المرأة. إلَّا أنَّها كانت تعلم أنَّهما يعيشان معًا. لم تكن تعرف العنوان، لكنَّ بعض الإشاعات تُشير إلى أنَّهما يقطنان في منطقة مستديرة بريشا، نعم بالضبط هناك، في مستديرة بريشا. كانا قد لجأا إلى مكانٍ بعيد، لم يكن بالجذَّاب، لأنَّ ماريو لم يكن يريد أن يرى أحدًا، ولم يكن يريد أن يراه أحد، خاصَّة الأصدقاء القُدامى من الجامعة.

كنتُ أُحاصرها لأعرف المزيد عندما لفظ الهاتف الخلويّ، الذي لم أكن قد شحنتُه منذ فترة ما عدتُ أذكرها، أنفاسه الأخيرة. بحثتُ بحثًا محمومًا عن سلك الشحن، ولم أجده. كنتُ قد رتَّبتُ في اليوم السابق كلّ زاوية في البيت استعدادًا

لقدوم ماريو، لا شكَّ في أنَّني وضعتُه في مكانٍ آمن، لكنَّني الآن، وعلى الرَّغم من بحثي العصبيّ في كلِّ مكان، لم أعد أذكره. راح أوتو يُطلق نباحًا لا يُطاق، قذفت الهاتف باتِّجاه الحائط لئلَّا أقذفه على الكلب.

انقسم الجهاز شطرَيْن، وسقطت القطعتان على الأرض من غير أن تُصدرا صدى، هجم عليهما الكلب نابحًا كما لو كانا كائنَيْن حيَّيْن. عندما هدأتُ توجَّهتُ إلى هاتف المنزل، ورفعتُ السمَّاعة. كنتُ ما أزال أسمع الصفير المتَّصل، والأصوات البعيدة. ولكنْ عوضًا عن إعادة السمَّاعة إلى موضعها، وبحركة لاوعي ربَّما، وبحركةٍ اعتياديَّة من أصابعي، شكَّلتُ رقم ليا. توقَّف الصفير فجأة، وعاد الخطّ.. تلك هي أسرار الهواتف.

لم يكن من تلك المكالمة الثانية طائل. كان قد انقضى بعض الوقت، وعندما أجابتني صديقتي، شعرتُ بها تكابد للتحفُّظ. ربَّما أنَّبها زوجها، أو ربَّما ندمت على التعاون في تعقيدِ وضعٍ معقَّد أصلًا. قالت لي بانزعاج ودود إنَّها لا تعرف أكثر من ذلك. لم تكن ترى ماريو منذ فترة، وكانت تجهل كلّ شيء عن عشيقته، إذا كانت شابَّة، أو مُسنَّة، إذا كانت تعمل! أمَّا موقع منزلهما في مستديرة بريشا، فلم يكن سوى إشارةٍ عامَّة. ربَّما كانا يسكنان في جادَّة باليرمو، أو شارع تيرامو، أو شارع لودي، يصعب تحديد الموقع، فتلك المنطقة ملأى بأسماء المدن. وعلى كلِّ حال، كان يبدو من الغريب بالنسبة لها أن يكون الأمر قد آل بماريو هناك. ونصحتني بألَّا أفكِّر بهذه القصَّة مؤكِّدةً أنَّ الزمن كفيلٌ بإصلاح الأمور.

إلّا أنَّ ذلك لم يمنعني، ذلك المساء تحديدًا، من أن أنتظر أن يغطّ الطفلان في النوم لأستقلَّ بعدها سيَّارتي، وأدور بها حتى الواحدة، أو الثانية بعد منتصف الليل في مستديرة بريشا، وجادَّة بريشا، وجادَّة باليرمو. كنتُ أتقدَّم ببطء. بدا لي أنَّ تماسك المدينة ينشرط في تلك المنطقة، كان يجرحها مِزْقٌ واسع تحدّه سكَّتا الترام اللامعتان، كانت السماء السوداء التي تدفعها فقط رافعةٌ شاهقةٌ وأنيقة، تضغط الأبنية المنخفضة، والنور المعتلّ للأعمدة الكهربائيَّة كقعرٍ ثابتٍ لمكبسٍ متحرِّك. كانت شراشف بيضاء أو زرقاء منشورةً على الشرفات تصفِّق، يُحرِّكها النسيم، مرتطمةً بأطباق الالتقاط الصناعيَّة الرماديَّة. ركنتُ السيَّارة، سرتُ في الشوارع بتشبُّثٍ حانق. كنتُ آمل أن ألتقي ماريو وعشيقته. كنتُ أتمنَّى ذلك. كنتُ أتخيَّل أن أفاجئهما وهما يخرجان من سيَّارتها الڤولسڤاكن عائدَيْن من السينما أو من المطعم، فرحَيْن كما كنَّا أنا وهو، على الأقلّ، قبل ولادة الطفليْن. ولكنْ لا شيء: سيَّارات، وسيَّارات خالية، متاجر مقفلة، وسكِّير متقوقع في إحدى الزوايا. كانت تلي الأبنية التي رُمِّمت مؤخَّرًا أبنيةٌ متهالكة، تضجّ فيها أصواتٌ أجنبيَّة. قرأتُ على سطح بناءٍ منخفض من الآجرّ باللون الأصفر: سيلڤانو حرّ. حرّ هو، أحرار نحن، جميعنا أحرار. قرف من الاضطرابات التي تُقيِّدنا، أزقَّة الحياة الثقيلة. استندتُ تعِبةً إلى الجدران المطليَّة بالأزرق لمبنى في شارع أليساندريا، حروفٌ منحوتةٌ في الحجر «حضانة أمير نابولي». كنتُ هناك إذن، لهجاتٌ جنوبيَّة كانت تضجّ في رأسي، مدنٌ بعيدة كانت تتحوَّل إلى ملزمةٍ واحدة تقرع بلاطة البحر

الزرقاء، وبلاطة جبال الألب البيضاء. مسكينةٌ ساحة ماتزيني! كانت تستند منذ ثلاثين عامًا مثلي الآن إلى جدار، إلى حائط، عندما كانت أنفاسها تنقطع من اليأس. ولم أكن قادرةً، مثلها، على أن أجد راحتي في الاحتجاج، في الانتقام. إذا ما كان ماريو وعشيقته قد أويا حقًّا إلى أحد هذه الأبنية، في ذاك البناء الضخم الذي يُطلّ على فِناءٍ واسع، وقد كُتب على مدخله «ألومنيوم»، وقد امتلأت جدرانه بالشرفات المزدانة جميعها بالشراشف، كانا ليخبِّئا بالتأكيد وراء إحدى الشراشف المشمَّعة سعادتهما في أن يكونا معًا، وأنا ما كنتُ لأستطيع فعلَ أيّ شيء، أيّ شيء، بألمي كلّه، لأمزِّق الشاشة التي يختبئان خلفها، لأظهر أمامهما وأنغِّص سعادتَهما ببؤسي.

همتُ طويلًا في الطرقات السوداء الضاربة إلى الليلكيّ بيقينٍ لامنطقيّ (ذاك اليقين الذي لا أساس له من الصحَّة الذي نسمِّيه الحدس، أي الترجمة الخياليَّة لرغباتنا) أنَّهما كانا هناك في مكانٍ ما، وراء بوَّابة، أو وراء زاوية، أو وراء نافذة، أو ربَّما كانا يرياننى ويتراجعان كمجرمَيْن سعيدَيْن بجرائمهما.

ولكنَّني لم أصل إلى أيِّ شيءٍ أتمسَّك به، وعدتُ إلى المنزل عند الثانية فجرًا تقريبًا وقد أنهكتني خيبةُ الأمل. ركنتُ السيَّارة في الطريق وصعدت باتِّجاه الساحة، ورأيتُ طيف كارانو يتوجَّه إلى البوَّابة. كانت علبة الآلة الموسيقيَّة تنصبُّ فوق كتفيْه المنحنييْن كشوكة.

راودني حافزٌ في أن أُناديه، لم أعد أحتمل الوحدة، كنتُ بحاجةٍ لأن أتكلَّم مع شخصٍ ما، لأتخاصم، لأصرخ.. حثثتُ

خطوي لأبلغه، إلّا أنّه كان قد اختفى داخل البوّابة. ولو كنتُ قد ركضتُ (لم أكن أتحلّى بالشجاعة الكافية لذلك، فكنتُ أخشى أن يتمزّق الإسفلت، والحديقة، وجذوع كلّ الشجرات، وحتى سطح النهر الأسود)، ما كنتُ لأبلغه قبل أن يستقلّ المصعد. كدتُ أقوم بذلك عندما رأيتُ أرضًا، تحت عمود الإنارة وفانوسيْه، شيئًا ما.

انحنيتُ، كان ظرفًا بلاستيكيًّا لرخصة قيادة. فتحتُه ورأيتُ وجه الموسيقيّ، غير أنّه كان أصغر بكثير في الصورة: آلدو كارانو. وُلد في قريةٍ في الجنوب، وعلمتُ من تاريخ ميلاده أنّه كان في الثالثة والخمسين من العمر تقريبًا، وكان سيتمّها في أغسطس. بات لديّ الآن عذرٌ مقبول لأقرع باب بيته.

وضعتُ الرخصة في جيبي، واستقلّيتُ المصعد، وضغطتُ على زرّ الرقم أربعة.

بدا لي المصعد أبطأ من العادة، وقد سارع هديره في الصمت المطبق ضرْبات قلبي. ولكنْ، عندما توقّف عند الطابق الرابع، داهمني الهلع، ولم أتردّد ولو للحظة، فضغطتُ على الرقم خمسة.

إلى البيت، إلى البيت في الحال. ماذا لو استيقظ الولدان؟ ماذا لو بحثا عنّي في الغرف الفارغة؟ سأُعيد لكارانو رخصة القيادة غدًا، لِمَ قَدْ أقرع باب غريبٍ عند الثانية فجرًا؟

كان خليطٌ متشابكٌ من الأحقاد، والرغبة في الانتقام، وضرورة أن أمتحن قدرة جسدي المهانة يحرق ما تبقّى داخلي من حسٍّ سليم.

نعم.. إلى البيت.

10

في اليوم التالي، انزلق كارانو، ورخصة قيادته مع بعض التمنُّع إلى النسيان. كان الولدان قد ذهبا لتوِّهما إلى المدرسة عندما رأيتُ أنَّ النمل قد اجتاح البيت. كان ذلك يتكرَّر سنويًّا في ذاك الموسم ما إن يحلَّ حرُّ الصيف. كان النمل يتقدَّم في أرتالٍ مرصوصةٍ من النوافذ، ومن الشرفات، وكان ينفذ من تحت الباركِيه، ويهرع ليختبئ من جديد، ويسير باتِّجاه المطبخ، نحو السكَّر، والخبز، والمربَّى. كان أوتو يشمّ النملات، وينبح، ومن غير أن يقصد ذلك كان ينقلها إلى كلِّ زاوية من البيت وقد اختبأت في وبره.

هرعتُ لأتناول خرقة المسح، ومسحتُ أرض كلّ الغرف بعناية. حففتُ قشرة ليمون في المواضع التي بدت لي أكثر عرضةً للخطر. انتظرتُ بعدها بعصبيَّةٍ كبيرة. وما إن عادت النملات للظهور حتى حدَّدتُ بدقَّة أماكن وصولها إلى الشقَّة،

مداخل أوكارها الكثيرة، ومخارجها، وملأتُها بالبودرة. عندما أدركتُ أنَّ الليمون والبودرة لا يكفيان، قرَّرتُ اعتماد مبيدٍ حشريّ على الرَّغم من قلقي على صحَّة أوتو الذي كان يلحس كلّ شيء، وكلّ الناس، من غير أن يُفرِّق بين ما لا ضيْر منه وما هو مؤذٍ.

ذهبتُ إلى غرفة المؤونة حيث وجدتُ عبوة رشّ. قرأتُ بإمعان التعليمات، وحجزتُ أوتو في غرفة الولديْن، ورششتُ السائل السامّ في كافَّة زوايا المنزل. فعلتُ ذلك بانزعاج شاعرةً أنَّه يمكن للعبوة أن تكون الامتدادَ الحيّ لجسمي، مرشَّة للمرارة التي كنتُ أشعر بها داخل جسمي. انتظرتُ بعد ذلك محاوِلَةً عدم الاكتراث بنباح أوتو الذي كان يخرمش الباب. اتَّجهتُ إلى الشرفة لئلَّا أشمّ رائحة البيت المسمومة. كانت الشرفة معلَّقة في الفراغ كلوحةِ قفزٍ فوق بركة سباحة. كانت الحرارة الخانقة ترخي بثقلها على أشجار الحديقة الجامدة، تضمّ صفحة نهر البو الزرقاء، والزوارق الرماديَّة والزرقاء للمجذّفين، وقناطر جسر الأميرة إيزابيلَّا. في الأسفل، رأيتُ كارانو وهو يتحرَّك منحنيًا في الطريق باحثًا عن رخصة قيادته بالتأكيد، فصرخت: «سيِّدي! سيّد كارانو!»

إلَّا أنَّ صوتي طالما كان منخفضًا، ولم أكن أعرف كيف أصرخ! فالكلمات تسقط على مسافةٍ قريبةٍ منِّي كما تتساقط الحصى وقد قذفتْها يدُ طفل. كنتُ أريد أن أُخبره أنَّ رخصة قيادته في يدي، غير أنَّه لم يلتفت. لزمتُ عندها الصمت وأنا

أنظر إليه من الطابق الرابع نحيلًا إلّا أنَّ منكبيْه عريضان، وشعره أشيب وكثيف. شعرتُ أنَّ عداءً تجاهه يتعاظم داخلي، يشتدّ بقدر ما أُدرك أنَّه لاعقلانيّ. ما قد تكون عليه أسرار الرجل الوحيد التي يخبِّئها، والهوس الذكوريّ بالجنس القويّ، وتمجيد القضيب حتى عمرٍ متأخِّر! لا شكَّ في أنَّه هو أيضًا لا يرى أبعد من دفق سائله المنويّ الذي ما فتئ يشحّ، كان يسعد فقط عندما يتأكَّد من أنَّه ما يزال ينتصب كالأوراق المائتة لنبتةٍ متيبِّسة إذا ما رُويت. فظّ مع أجساد النساء التي تتوافر له، مستعجل، وقذر، ولا شكّ في أنَّ جُلَّ ما يصبو إليه هو تسديد الأهداف كما لو كان في حقل رماية، والغرق داخل عانة زهريَّة كفكرةٍ ثابتة تُحيطها دوائر تنطلق من نقطة واحدة. يُستحسن أن تكون بقعة الشعر فتيَّة ولامعة، آه لروعة عجيزةٍ متماسكة! هذا ما كان يفكِّر به. نسبتُ إليه تلك الأفكار، وعبرني وميضٌ لامعٌ من الغضب. لم أستفق من أفكاري إلّا عندما أدركتُ أنَّ طيْف كارانو الهزيل لم يعد يقطع الطريق بشفرته القاتمة.

عدتُ إلى الداخل، كانت رائحة المبيد الحشريّ قد خفَّت. كنستُ الآثار السوداء للنمل الميِّت، وغسلتُ مجدَّدًا باندفاعٍ، مطبقةً شفتيَّ، الأرضَ، وذهبتُ أُطلق سراح أوتو الذي كان ينبح يائسًا. لكنَّني اكتشفتُ بقرف أنَّ النمل كان قد اجتاح غرفة الولديْن. من خشبات الباركِيه القديم المفكَّكة، كان النمل ينفذ في أرتال بتصميمٍ وطاقةٍ عظيميْن، كدوريَّات سوداء تفرّ يائسة.

استأنفتُ العمل، فلم يكن من مفرٍّ أمامي. لكنّ رغبتي

فترت، وقد انتابني حَنَقٌ لانطباعٍ بالحتميَّة يزداد إزعاجًا، لا سيَّما وأنَّ جيش النمل بدا لي مطالبةً حيويَّة وكثيفة بالحياة، لا تعرف حواجز، لا بل، كلَّما تعرقلتْ تكشف عن إرادةٍ عنيدة، قاسية في أن تتصرَّف على هواها.

بعد أن رششتُ المُبيد الحشريّ في تلك الغرفة أيضًا، وضعتُ لأوتو الرسن، وتركته يجرّني على الدرج من طابقٍ إلى طابق لاهثًا.

11

كان الكلب يتقدَّم في الدرب منزعجًا من الرسن الذي يكبح جماحه. مررتُ أمام الجزء البارز للغوَّاصة الأخضر الذي كان يروق كثيرًا لجاني، دخلتُ في النفق المليء بالكتابات النابية، وصعدتُ باتِّجاه حرج الصنوبر. في ذاك الموعد، كانت الأمَّهات، عبارة عن مجموعاتٍ حافلةٍ بالأمَّهات الثرثارات، يقفن تحت ظلال الأشجار في حلقةٍ مقفلة بعربات الأطفال كالمستعمرين يقفون لاستراحة في فيلمٍ عن الغرب الأميركيّ، أو يراقبن الأطفال الصغار يصرخون على مسافة قريبة ويلعبون بالكرة. كانت أغلبيَّتهنَّ لا يستحسنَّ الكلاب غير المقيَّدة. كُنَّ يسلِّطن مخاوفهنَّ على تلك الحيوانات، ويخشين أن تنهش الأطفال أو تلوّث مساحة اللعب.

كان الكلب يُعاني الأمرَّيْن. كان يريد أن يجري ويلعب، لكنِّي لم أكن أعلم ما عساني أفعل. كنتُ أشعر أنَّ أعصابي مشدودة، وكنتُ أودّ تفادي أيّ مسوِّغات للخلاف. كان من

الأفضل أن أكبح أوتو شادَّة إيَّاه بعنف عوضًا عن المجادلة.

تقدَّمتُ داخل حرج الصنوبر آملةً ألَّا ألتقي بمزعجين. كان الكلب يشمّ الأرض مرتجفًا. قلَّ ما كنتُ أراه، إلَّا أنَّني كنتُ أحبّه، وهو أيضًا كان يحبّني إنَّما من غير أن يتوقَّع منِّي مقابلًا. من ماريو كان يأتيه دائمًا الدعم، واللعب، والجري في الهواء الطلق. والآن، وقد اختفى زوجي، كان أوتو، هذا الحيوان السهل المراس، يتأقلم مع غيابه بشيءٍ من الشجن والنباح المستاء لعدم احترامي عاداته المتأصِّلة. فماريو، على سبيل المثال، كان ليفلته منذ برهة، ما إن يخرجا من النفق بالتأكيد، وكان ليستهلّ حديثًا مع السيِّدات الجالسات على المقاعد ليمتصّ استياءهنَّ مؤكِّدًا أنَّ الكلب حَسَن الطباع، وصديق الأطفال. أمَّا أنا، فأردتُ أن أتأكَّد، حتى في الحُرْج، من أنَّني لن أُثير غضب أحد لأطلقه فقط عند ذلك. جُنَّ من الفرح، وراح يجري مسرعًا في الاتِّجاهات كافَّة.

التقطتُ عندها غصنًا طويلًا وطريًّا وحرَّكتُه في الهواء، بليِّنٍ بدايةً، ومن ثم بعزم. كان الصفير يروق لي، تلك كانت لعبة درجتُ على لعبها في صِغَري. ألفيتُ نفسي مرَّة في فِناء البيت، كنتُ قد عثرتُ على غصنٍ رفيع كذاك، فرحتُ أقطع الهواء وأجعله يعوي. عندها سمعتُ من يقول إنّ جارتنا، وبما أنَّها لم تقضِ نحبها بالسمِّ، أغرقت نفسها في منطقة كابو ميزينو. كان الخبر ينتقل من نافذةٍ إلى أخرى، ومن طابقٍ إلى طابق. نادتني أمِّي في الحال للرجوع إلى البيت، كانت عصبيَّة، غالبًا ما كانت تغضب منِّي بدون سبب يُذكر، لم أكن قد اقترفتُ ذنبًا. أحيانًا،

كان يبدو لي أنَّني لا أُعجبها، كما لو أنَّها كانت تتعرَّف في وجهي على شيءٍ منها تكرهه، على عيبٍ سرِّيٍّ فيها. منعتني تلك المرَّة من النزول إلى الفِناء بعد ذلك، والجلوس على الدرج. لازمتُ زاويةً مظلمة في البيت، أحلم بقصَّة الجسد المليء بالماء والخامد الأنفاس، جسد المسكينة، سمكة أنشوة فضِّيَّة جاهزة للتمليح. بعد ذلك، كلَّما لعبتُ جالدةً الهواء لأنتزع منه الأنين، كنتُ أتذكَّرها هي، المرأة المكبوسة بالملح. كنتُ أسمع صوت الغرق فيما كان الماء يجري طيلة الليل حتى كامبو ميزينو. كانت تلك الفكرة كافية الآن لأجلد هواء الحُرْج بمزيدٍ من القوَّة، كما عندما كنتُ طفلة لأستدعي الأرواح، أو ربَّما لأطردها، وكلَّما بذلتُ جهدًا أكبر بات الصفير قاطعًا. انفجرتُ ضاحكة وحدي وأنا أرى نفسي امرأة في الثامنة والثلاثين من العمر تواجه صعوباتٍ جمَّة تستعيد فجأةً لعبة طفوليَّة كانت تلعبها. صحيح، كنتُ أقول لنفسي، نحن نفعل ونتخيَّل، عندما نصبح كبارًا، أمورًا كثيرة لا معنى لها، من باب الانشراح أو التلاشي. وكنتُ أضحك وأنا أحرِّك غصنًا طويلًا ورفيعًا، وكانت رغبتي في الضحك تتنامى.

لم أتوقَّف عن ذلك إلَّا عندما سمعتُ صوت صراخ. صرخةً طويلةً لامرأة شابَّة. فتاة ظهرت على حين غرَّة في آخر الدرب. كانت طويلة القامة ولم تكن سمينة، عظامها غليظة تحت جلدها الأبيض، وكانت عظام الوجه أيضًا ناتئة، والشعر حالك السواد. كانت تصرخ ممسكةً بعزم مقودَ عربة أطفال، حيث كان يردّ عليها كرجع الصدى بكاء وليد. كان أوتو ينبح حولها مهدِّدًا، وقد دبَّ فيه الخوف هو أيضًا من الصراخ والبكاء. رحتُ أركض باتِّجاههم

صارخةً أنا أيضًا، وزاجرةً الكلب: ارقد، ارقد. إلّا أنّه واصل نباحه، فيما صرخت المرأة في وجهي:

«أتعلمين أنَّ عليك أن تضعي له رسنًا؟ أتعلمين أنَّ عليكِ أن تكمِّيه بحجام؟»

كانت ابنة الكلب تلك من يحتاج إلى رسن. صرختُ في وجهها من غير أن أتمالك نفسي:

«هل لديكِ بعض العقل؟ إذا ما صرختِ تخيفين الطفل الذي يبدأ بالصراخ بدوره، فتخيفان أنتما الاثنان الكلب، لذلك ينبح! فعل وردّ فعل! عليك أنتِ أن تضعي الحجام!»

لم يكن ردّ فعلها يقلّ عدائيَّة عن ردّ فعلي. غضبتْ منِّي ومن أوتو الذي لم يكفَّ عن النباح. زجَّتْ زوجها في المسألة مهدِّدةً وقائلةً إنَّه يعرف ما عليه أن يفعل، وإنَّه سيحلّ نهائيًّا مشكلة الكلاب الفالتة في الحديقة، وصرخت تقول إنَّ المساحات الخضراء مخصَّصة للأطفال لا للحيوانات. تناولتْ بعدها ابنها الذي كان يبكي في عربته، ورفعته، وضمَّته إلى صدرها هامسةً كلماتٍ مطمئنة، لا أعلم ما إذا كانت توجِّهها لنفسها أو له. همستْ أخيرًا جاحظةً عينيْها، موجِّهةً نظرتها إلى أوتو:

«أرأيتِ؟ أسمعتِ؟ إذا ما جفَّ حليبي سأجعلك تدفعين الثمن!»

ربَّما كانت تلك الإشارة إلى الحليب هي السبب، لستُ أدري! إلّا أنَّني شعرتُ بهزَّةٍ في صدري، بعودةٍ مفاجئة للسمع، وللعينيْن. على حين غرَّة، رأيتُ أوتو على حقيقته مكشِّر الأنياب، وأذناه متحفِّزتان، ووبره منتصب، ونظرته شرسة، وكلّ عضلة فيه

مشدودة، ونباحه يرتفع مهدِّدًا. كان المنظر مخيفًا بالفعل. بدا لي أنَّه قد خرج عن طوْره، وتحوَّل إلى كلبٍ آخر شديد الشرّ، يصعب توقُّع أفعاله. يا للذئب الغبيّ كذئب الخرافات الشرِّير! كانت تلك، كما أقنعتُ نفسي، بادرة عصيانٍ لا تُغتفر. فلم يرقد بصمت كما أمرتُه، لا بل واصل نباحه معقِّدًا الوضع. زجرته قائلة:

«كفى أوتو! كفى!»

وبما أنَّه لم يكفّ عن النباح، رفعتُ الغصن الذي كنت ممسكةً به مهدِّدة، غير أنَّه مع ذلك لم يسكت. ساءني ذلك، جلدتُه بقوَّة. سمعت الصفير في الهواء، ورأيتُ نظرته المندهشة عندما تلقَّى الضرب على إحدى أذنيْه. كلب غبيّ، كلب غبيّ كان قد أهداه ماريو، وهو ما يزال جروًا، لجاني وإيلاريا، فكبر في بيتنا، وأصبح حيوانًا كبيرًا محبًّا. تلك هديَّة كان قد أهداها زوجي في الواقع لنفسه، كان يحلم بكلبٍ مماثل منذ صِغَره. لا لم تكن تلك رغبة جاني وإيلاريا، كلب مدلَّل، حيوان طالما نال كلّ ما أراده! رحتُ أصرخ في وجهه، يا حيوان، يا أيُّها الحيوان الملعون. وكنتُ أسمع صراخي بوضوح، كنت أجلده، وأجلده، وأجلده وهو يئنّ راقدًا، وبدنه يلتصق أكثر فأكثر بالأرض، أذناه مطويَّتان، جامد وحزين أمام انهمار الضربات غير المفهوم. «ماذا تفعلين؟» همست المرأة.

بما أنَّني لم أُجِبْها، وواصلتُ ضرب أوتو، ابتعدتْ بسرعة دافعةً العربة بيد واحدة، مرتعبةً ليس من الكلب، بل منِّي.

12

عندما أدركتُ ردّ الفعل توقَّفتُ. نظرت إلى المرأة التي كانت تهرول تقريبًا في الدرب رافعةً بعض الغبار، وسمعتُ بعدها أوتو يئنّ حزينًا، وخطمه بين قائمتيْه.

رميتُ السوط، قرفصتُ قربه، وداعبته طويلًا. تحلَّلتُ، كما لو تعرَّضتُ لحمض، داخل مشاعر الحيوان المسكين الحائر. سددتُ إليه الضربة القاسية لما يأتينا عبثًا. زعزعتُ لديه التركيبة التراكميَّة للتجربة، وقد بات كلّ شيء الآن دفقًا من النزوات. نعم، يا أوتو المسكين، همستُ له طويلًا، نعم.

عدنا إلى البيت، فتحتُ الباب، دخلت. لكنَّني شعرت أنَّ البيت لم يكن خاليًا، كان هناك أحدٌ ما.

جرى أوتو مسرعًا في الرواق مستعيدًا حيويَّته، وفرحه. ركض إلى غرفة الولديْن. كانا هناك، وكلٌّ منهما يجلس على

سريره، والحقيبتان المدرسيَّتان كانتا مطروحتيْن على الأرض، وقد بَدَيا حائريْن. نظرتُ إلى الساعة، لقد نسيتُهما.

«ما هذه الرائحة المقيتة؟» سأل جاني دافعًا جانبًا أوتو الذي كان يرحِّب به.

«مُبيد حشريّ. لدينا نمل في البيت».

تأفَّفت إيلاريا:

«متى سنأكل؟»

هززتُ رأسي. كان سؤال مشوَّش يدور في رأسي، فيما كنتُ أشرح للطفليْن بصوتٍ عالٍ أنَّني لم أذهب للتسوُّق، ولم أطبخ، ولم أكن أعلم ما أقدِّمه لهما كطعام، والذنب كان ذنب النمل.

ثم انتفضتُ. السؤال كان:

«كيف دخلتما إلى البيت؟»

نعم، كيف دخلا؟ لا مفاتيح لديهما، لم أكن قد أعطيتهما المفاتيح، فلم أكن على ثقةٍ من قدرتهما على فتح قفل. ومع ذلك، كانا هناك في غرفتهما كشبحيْن. ضممتهما إليَّ بقوَّة مبالغ بها، عانقتهما لأتأكَّد من أنَّهما هما بلحمهما وشحمهما، وأنَّني لا أتحدَّث مع الهواء.

أجاب جاني قائلًا:

«كان الباب مشقوقًا».

توجَّهت إلى الباب وفتحته. لم أعثر على أثرٍ للخَلْع، لا بل

كان عاديًّا. كان القفل قديمًا، وكانت دفعة صغيرة كفيلة بفتحه.

«هل كان هناك أحد في البيت؟» سألتُ الولديْن وقد أخذ منِّي الاضطراب كلّ مأخذ، فيما كنت أفكِّر: ماذا لو فوجئ اللصوص بقدوم الولديْن وكانوا مختبئين الآن في مكانٍ ما؟

سرتُ في البيت ضامَّة إليّ ابنيَّ، لا يواسيني سوى أنَّ أوتو ما فتئ يقفز من غير أن تظهر عليه علامات التنبُّه. نظرت في كلّ مكان، لا أحد. كان كلّ شيء مرتَّبًا تمامًا، ونظيفًا، ولم يكن هناك حتى أثر لتحرُّكات النمل.

عاودت إيلاريا الإصرار:

«ماذا سنأكل؟»

حضَّرتُ عجَّة بالبيض. التهمها جاني وإيلاريا، وأنا لم آكل سوى القليل من الخبز والجبن. أكلتُ شاردةً، واستمعتُ بالشرود نفسه إلى ثرثرة الطفليْن، ما فعلاه في المدرسة، وماذا قال ذاك الرفيق، وما هي المضايقات التي تعرَّضا لها..

وفي هذه الأثناء، كنت أفكِّر: اللصوص يبحثون في كلِّ مكان، يقلبون الأدراج، وإذا ما لم يجدوا ما يسرقونه ينتقمون، يشخُّون على الشراشف، يبوِّلون في كلِّ مكان. لا أثر لذلك إطلاقًا في الشقَّة. وعلى كلِّ حال، ليست تلك بالقاعدة. تهتُ في ذكرى تعود لعشرين عامًا خَلَتْ عندما كنتُ ما أزال أقطن في منزل والديَّ. كانت الذكرى تناقض كلّ ما يُقال عن سلوك اللصوص. عند عودتنا إلى المنزل، كنَّا قد وجدنا الباب مخلوعًا، إلَّا أنَّ

البيت كان في أفضل ترتيب. لم يكن هناك من أثرٍ لأيِّ انتقام دنيء. بعد بضع ساعات، اكتشفنا غياب الغرض الوحيد القيِّم الذي كنَّا نمتلكه: ساعة ذهبيَّة كان أبي قد أهداها لأمِّي منذ سنوات طويلة.

تركتُ الولديْن في المطبخ، ورحتُ أتفقَّد المال في المكان الذي كنتُ أضعه فيه عادةً. كان هناك. إلَّا أنَّني لم أعثر على مجوهرات جدَّة ماريو. لم يكن القرطان في مكانهما في دُرْج المنضدة، ولم يكونا في أيِّ مكانٍ آخر في البيت.

13

قضيت الليل، والأيَّام التالية بالتفكير. كنتُ أشعر بأنَّني أُقاتل على جبهتيْن: الحفاظ على واقع الأحداث متصدِّيةً لتدفُّق الصور الذهنيَّة والأفكار؛ والسعي في آنٍ معًا لتشجيع نفسي، متخيِّلةً نفسي كالسلمندر التي تجتاز النار، كما في الأسطورة، من غير أن تتألَّم.

لا تستسلمي، كنتُ أحفِّز نفسي. قاتلي. كنتُ أخشى، على نحوٍ خاصّ، عجزي المتعاظم عن التوقُّف عند فكرةٍ واحدة، والتركيز على عملٍ ضروريّ. كانت تُخيفني الانقلابات المفاجئة التي لا أتحكَّم بها. ماريو، كنتُ أكتب لأستمدّ الشجاعة، لم يحمل معه العالم بأسره، حمل نفسه فقط ورحل. وأنتِ لستِ كما كانت النساء منذ ثلاثين عامًا. أنتِ امرأة اليوم، تمسَّكي باليوم، لا تتراجعي، لا تتوهي، حافظي على رباطة جأشك. لا تستسلمي أمام مونولوجاتٍ مشوَّشة، أو مُسيئة، أو غاضبة. إلغي نقاط

الاستفهام. هو رحل وأنت تبقين. لن تتمتَّعي بعد اليوم برؤية التماع عينيْه، وبكلامه.. وإنْ كان! ما همّ؟ نظِّمي دفاعَك، وحافظي على تماسكك، لا تدعي نفسك تنكسرين كآنية، لستِ تحفة، لا يمكن لأيِّ امرأة أن تكون مجرَّد تحفة. المرأة المنكسرة، المنكسرة! حاشا وكلَّا. كنتُ أظنّ أنَّ واجبي أن أُثبت أنَّه يمكن البقاء في كامل عقلنا، أن أُثبت ذلك لنفسي وليس لأيِّ أحدٍ آخر. إذا ما كنتُ عرضةً لخطر السحليَّات. إذًا، سأُقاتل السحليَّات. إذا ما كنت عرضة لخطر النمل، سأُقاتل النمل. إذا ما كنت عُرضة لخطر اللصوص، سأُقاتل اللصوص. إذا كنت عُرضة لخطر نفسي، سأُقاتل نفسي.

وكنت أتساءل: من جاء إلى هذا البيت؟ من أخذ القرطيْن فقط ولم يسرق أيّ شيءٍ آخر؟ وكنتُ أُجيب نفسي: هو، أخذ قرطَي العائلة. يُريد أن يُفهمني أنَّني لم أعد كما لو كنتُ من دمه، جعلني غريبةً، نفاني نهائيًّا عنه.

إلَّا أنَّني غيَّرتُ رأيي، فبدت لي أنَّ تلك الفكرة لا تُطاق البتَّة. كنت أقول لنفسي: انتبهي. لا تظنِّي أنَّهم لصوص بالضرورة، ربَّما هم مدمنو مخدّرات تدفعهم إلى السرقة الحاجة الملحَّة إلى جرعة. ممكن، معقول. وخوفًا من أن أتمادى في خيالاتي، كنت أتوقَّف عن الكتابة، وأتوجَّه إلى باب البيت، وأفتحه، وأقفله من غير أن يصفُق. كنتُ أمسك بعد ذلك مقبضه وأجذبه بقوَّة باتِّجاهي، فينفتح الباب بالفعل، ولا يحول القفل دون ذلك. كان الزنبرك مستهلكًا، وكان اللسان المعدنيّ يدخل بصعوبة لميليمتر فقط. كان الباب يبدو مقفلًا، غير أنَّه كان يكفي

جذبه قليلًا ليُفتح. الشقَّة، وحياتي، وحياة ابنيَّ، كان كلّ شيء مشرَّعًا، معرَّضًا ليل نهار لأيٍّ كان!

سرعان ما وصلتُ إلى خلاصة أنَّ عليَّ أن أغيِّر القفل. إذا ما كان اللصوص قد دخلوا إلى البيت، فيمكن أن يعودوا. وماذا لو كان ماريو قد دخل خلسةً، ما الذي يُميِّزه عن السارق؟ لا بل كان ليكون أسوأ منه. رجل يدخل خفيةً إلى منزله. يبحث في الأماكن التي يعرفها، وقد يقرأ ما أكتبه من باب التنفيس عن الاحتقان، رسائلي. كاد قلبي ينفجر في صدري من الغضب. لا، يجب ألَّا يجتاز بعد اليوم تلك العتبة، أبدًا. حتى إنَّ الولديْن كانا ليتَّفقا معي، فلا يمكن الكلام مع أب يتسلَّل إلى بيته خلسةً، ولا يخلِّف وراءه أيّ أثر منه، لا يقول مرحبًا أو إلى اللقاء، ولا يسألنا حتى عن أحوالنا.

هكذا، مدفوعةً حينًا على موجة الحقد، وأحيانًا على موجة القلق، أقنعتُ نفسي أنَّ عليَّ أن أضع قفلًا جديدًا للباب، ولكنْ، وكما شرح لي الباعة الذين توجَّهتُ إليهم، فعلى الرَّغم من أنَّ الأقفال تُقفِل كما يجب مخارج البيت بصفائحها، وعلبها، ورؤوسها، وسقَّاطاتها، وألسنتها المعدنيَّة، إلَّا أنَّ كلّ ذلك يُمكن أن يُفكّ، أو يُخلع. نصحوني لذلك، لراحة البال، أن أصفِّح الباب.

تردَّدتُ طويلًا. لم أكن أستطيع أن أُنفق المال بغير اكتراث. مع فرار ماريو كان يسهل أن أتصوَّر أنَّ مستقبلي الاقتصاديّ سيسوء أيضًا. ومع ذلك، حسمتُ أمري، ورحت أجول في المتاجر المختصَّة مقارِنَةً بين الأسعار، والخدمات، الإيجابيَّات

والسلبيَّات. أخيرًا، وبعد أسابيع من المسح والمساومة، اتَّخذتُ قراري. وهكذا، وصل في إحدى الصبيحات عاملان، أحدهما في الثلاثينيَّات من العمر والآخر في الخمسينيَّات، وكانت رائحة التبغ تنبعث منهما.

كان الولدان في المدرسة، وكان أوتو قابعًا في إحدى الزوايا غير مبالٍ بالغريبيْن، فيما شعرتُ أنا في الحال بالانزعاج. ساءني ذلك. فكلّ تغييرٍ في سلوكي الاعتياديّ كان يُسيئني. في الماضي، كنت لطيفةً مع كلّ من يقرع باب البيت: عمَّال شركة الغاز، وشركة الكهرباء، ووكيل المبنى، والسمكريّ، وعامل تصليح السجّاد، وحتى البائعين المتجوِّلين، وسماسرة العقارات الذين يبحثون عن شقق للبيع. كنتُ أشعر بأنِّي امرأة تثق بالآخرين، حتى إنَّني كنتُ أتبادل مع الغرباء أحيانًا الكلام، وكان يروق لي أن أُبدي اهتمامًا بحيواتهم. كنتُ واثقةً كلّ الثقة بنفسي، حتى إنَّني كنت أدعهم يدخلون البيت. كنتُ أقفل الباب، وأسألهم أحيانًا إذا ما كانوا يريدون تناول أيّ شيء. ومن جهة أخرى، كان سلوكي، يبدو على الأرجح، لائقًا ورسميًّا في آن. لذا، لم يجل يومًا في ذهن زوَّاري التلفُّظ بجملةٍ لا تنمّ عن الاحترام، أو اللجوء إلى معانٍ مزدوجة ومبطَّنة ليكتشفوا ردّ فعلي، ويقوِّموا تجاوبي الجنسيّ. إلَّا أنَّ هذيْن العامليْن بدءا في الحال بتبادل التلميحات، والتضاحك، والغناء الهامس لأغانٍ مبتذلة فيما كانا يعملان بلا حماسة. شككتُ عندها في أنَّه راح يبدر عن جسدي، وحركاتي، ونظراتي ما بتّ عاجزةً عن التحكُّم به. اضطربتُ. ما كان يمكن أن يُقرأ فيَّ؟ إنَّني لم أنم مع رجل منذ حوالى الثلاثة

أشهر؟ إنَّني لم أكن أمصّ قضيب رجل، وإنّ أحدًا لا يلحس عانتي؟ إنَّني لم أكن أضاجع أحدًا؟ ألذلك كان هذان لا يكفَّان عن القول لي ضاحكيْن إنَّ لكل مفتاح قفلًا يلجه؟ كان عليَّ أن أتصفَّح أنا، أو أن أضع بيني وبين الأنظار سدًّا منيعًا. ما فتئت عصبيَّتي تزداد. فيما كانا يضربان بقوَّة بالمطرقة، ويدخِّنان من غير أن يستأذنا منِّي، ويَنْشُرا في البيت رائحة مقيتة من العرق، لم أكن أعرف ما أنا فاعلة!

انسحبتُ أوَّلًا إلى المطبخ آخذةً أوتو معي. أقفلت الباب، وجلست إلى الطاولة، وحاولت قراءة الصحيفة، إلَّا أنَّني كنت أشرد. فقد كانا يثيران ضجَّة عارمة. طرحت الصحيفة جانبًا، وبدأت بالطبخ. ثم تساءلت لماذا أتصرَّف على هذا النحو، لماذا كنت أختبئ في بيتي.. ما معنى كلّ ذلك؟ كفى. بعد قليل، عدت إلى المدخل، حيث كانا يعملان بين البيت وفسحة الدرج مثبِّتيْن الصفائح على الدرفتيْن القديمتيْن.

حملت لهما البيرة، فاستقبلاني بحماسةٍ عجزا عن احتوائها. واستأنف الأكبر سنًّا حديثه المليء بالتلميحات المبتذلة. ربَّما أراد أن يكون مضحكًا! وكان ذاك مفهومه الوحيد لروح النكتة. من غير أن أتَّخذ قرارًا بذلك، فقد كان حلقي هو الذي ينفخ ريحًا على الأوتار الصوتيَّة، أجبته ضاحكةً بتلميحات أقوى. وبما أنَّني أدركت أنَّني فاجأت الاثنيْن، لم أنتظر أن يردَّا بل ضاعفتُ الجرعة بفُحشٍ شديد، جعلهما يتبادلان النظرات حائريْن، وقد ارتسمت ابتسامةٌ شاحبة على وجهيْهما، فتركا البيرة ممتلئة حتى نصفها جانبًا، وانكبَّا على العمل بجدٍّ أكبر.

بعد قليل، لم أعد أسمع سوى طَرْقٍ محموم. عاد فجأةً الانزعاج الذي بدا لي أنَّه لا يُطاق الآن. شعرتُ بخجلٍ عارم أن أكون هنا، وكأنَّني أنتظر مزيدًا من الكلمات المبتذلة التي لا تبلغني. انقضى فاصلٌ طويلٌ من الارتباك، وقد اكتفيا بأن يطلبا منِّي أن أناولهما غرضًا ما، أو قطعة من العدَّة، بدون أيّ ضحكة، وبلباقةٍ مبالغ بها. حملتُ بعد قليل الزجاجات، والأكواب وعدت إلى المطبخ. ما الذي أصابني؟ كنت أتبع قنوعةً إجراءات تقهقري. هل استسلمت؟ أَما عدتُ أسعى لإيجاد بُعدي الجديد؟

ناداني الاثنان. كانا قد أنهيا عملهما. أرياني كيف يعمل القفل، وسلَّماني المفتاحيْن. قال لي الأكبر سنًّا إنَّه إذا ما واجهتِ صعوبةً ما فما عليكِ سوى الاتِّصال، وأعطاني بأصابعه الغليظة القذرة بطاقته. بدا لي أنَّه عاود النظر إليَّ بإصرار، إلَّا أنَّ أيّ فعل لم يصدر عنِّي. لم أحفل به إلَّا عندما راح يدير مجدَّدًا المفتاحيْن في القفلَيْن اللامعيْن كشمسيْن فوق درفتَي الباب الداكنتيْن مؤكِّدًا كثيرًا على موقعهما.

«ينبغي إدخال هذا المفتاح عموديًّا» قال، «أمَّا هذا، فأفقيًّا».

نظرت إليه حائرة، فأضاف:

«انتبهي.. فيمكن إلحاق الضرر بالمنظومة».

راح يتفلسف وقد استعاد مزاحه الوقح:

«لا بدَّ من تعويد الأقفال على المفاتيح، يجب أن تتعرَّف على يد السيِّدة».

جرَّب المفتاح الأوَّل، تلاه الثاني.. وبدا لي أنَّ عليه هو أيضًا أن يبذل القليل من الجهد. طلب أن أجرِّبهما أنا أيضًا. أقفلت القفليْن، ومن ثم فتحتهما بحركةٍ واثقة، بدون أدنى صعوبة. قال الأصغر سنًّا بدلالٍ مصطنع:

«يد السيِّدة حاسمة بالفعل».

دفعت لهما أجرهما، ومضيا. أقفلت الباب ورائي، واستندت إليه شاعرةً بذبذبات الدرفتيْن الطويلة، والحيَّة، إلى أن خمدتُ تمامًا، واستعاد كلّ شيءٍ هدوءه.

14

في البداية، لم تكن هناك من مشاكل مع المفتاحيْن. كانا ينزلقان في القفليْن، ويدوران فيهما بحسم. وقد اعتدتُ كلَّما عدت إلى البيت أن أُقفل الباب خلفي بالمفتاح ليل نهار. لم أكن أريد المزيد من المفاجآت، إلَّا أنَّه سرعان ما بات الباب في آخر سلّم اهتماماتي. كان عليَّ الاهتمام بأمورٍ كثيرة، وكنتُ ألصق الوريقات لتذكيري في كلّ مكان: تذكَّري أنَّ عليكِ أن تقومي بهذا، وتذكَّري أنَّ عليك أن تقومي بذاك. رحت أشرد، ويختلط عليَّ الأمر: كنت أستخدم مفتاح القفل الأعلى لفتح القفل السفليّ، والعكس صحيح. كنت أبذل جهدًا لفتح باب، وأصرّ، وأغضب. كنت أصل محمَّلةً بأكياس التسوُّق، أستخرج المفتاح وأُخطئ، أُخطئ، أُخطئ.. لذا، كنت أفرض على نفسي التركيز. كنت أتوقَّف وأتنفَّس بعمق.

استرجعي انتباهك، كنت أقول لنفسي. وبحركاتٍ بطيئة،

كنت أختار بعناية المفتاح، وأختار بعناية القفل، وأحفظ في ذهني موقع المفتاحيْن إلى أن تعلن الطقطقة لي أنَّني نجحت، وأنَّ تلك كانت العمليَّة الصحيحة.

إلَّا أنَّني كنت أشعر أنَّ الأمور راحت تسوء، وكان ذلك يُثير ذعري أكثر فأكثر. فبقائي دائمًا في حالة تحفُّز لتفادي الأخطاء، أو للتصدِّي للمخاطر أضناني في النهاية، فكان يكفيني أحيانًا أن أفكِّر بضرورة القيام بأمرٍ طارئ حتى أظنّ أنَّني قمت بذلك فعلًا، كإطفاء الغاز مثلًا، فذاك هوس قديم لديّ. كنتُ أُقنع نفسي بأنِّي أطفأت النار تحت القِدْر.. تذكَّري، تذكَّري. عليكِ أن تطفئي الغاز، ولكنْ لم أكن قد أطفأته، فأكون قد طبخت، ووضعت الأطباق على المائدة، ونزعتها عنها، ووضعتها في جلَّاية الصحون، فيما كانت الشعلة الزرقاء ما تزال مُضاءة بهدوء، وقد لمعت طوال الليل كتاجٍ من نار حول عين الغاز في مؤشِّر تفكّك، وكان نظري يقع عليها صباحًا عندما أدخل المطبخ لإعداد الفطور.

آه من رأسي: فقدت الثقة. كان ماريو يتَّسع لاغيًا كلّ ما عدا صورته، صورة الفتى، والرجل، كيف كبر تحت أنظاري على مرّ السنوات، بين ذراعيَّ، في دفء القبلات. لم أكن أفكِّر سوى به، وما الذي جرى ليكفّ عن حبِّي، وفي ضرورة أن يُعيد إليَّ الحبّ. لم يكن عليه أن يهجرني هكذا. رحت أعدِّد لنفسي ما يدين لي به. كنت قد ساعدته في الإعداد للامتحانات الجامعيَّة، ورافقته عندما لم يكن يتحلَّى بالشجاعة للتقدُّم من الامتحان. شجَّعته في شوارع فووريغروتا الصاخبة، فيما كان قلبه يكاد يفرّ

من صدره. كنت أسمع ضرباته، وأرى جمهرة طلّاب المدينة والمحافظة، والشحوب الذي كان يلتهم وجهه عندما كنت أدفعه في أروِقة الجامعة. سهرت لياليَ طويلة لأجعله أقوى. وضعت طموحاتي جانبًا ليحقّق طموحه. وفي كلّ مرَّة شعر بنوبةٍ من القلق، كنتُ أضع أزماتي جانبًا لأواسيه. كنت قد تناثرت في دقائقه، وساعاته ليستجمع تركيزه. كنت أنا من يرعى المنزل، ويهتمّ بالطعام، وبالطفلَيْن. كنت أنا من يُعنى بهموم الحياة اليوميَّة فيما كان هو يصعد بعناد ليتجاوز أصولنا التي لم تخلِّف لنا أيّ امتياز. أمَّا الآن، فها هو يهجرني حاملًا معه كلّ ذلك الوقت، وتلك الطاقة، وذاك العناء الذي وهبته إيَّاه، هكذا على حين غرَّة، ليتمتَّع بثمارِ امرأةٍ أخرى، غريبة، لم تحرِّك ساكنًا لتلده وتربِّيه وتحوِّله إلى ما آل إليه. بدا لي فعلًا ظالمًا، وسلوكه معاديًا. كان يصعب عليَّ أن أصدِّقه، وكان يُخيَّل لي أحيانًا أنَّ ظلامًا قد غشى عينيْه، وقد فقد ذاكرة أشيائنا المشتركة في مهبِّ الرياح والمخاطر، وكان يبدو لي أنِّي أحبّه أكثر من أيِّ وقت مضى، بقلقٍ أكثر منه بشغف، وكنت أشعر أنَّه بأمسّ الحاجة لي.

ولكنَّني، لم أكن أعرف أين تراني أبحث عنه. في ما بعد، نفت ليا فاراكو أن تكون قد أشارت لي يومًا إلى مستديرة بريشا كمكان محتَمل لمسكنه الجديد. قالت لي إنِّي أسأت الفهم، فهذا مستحيل، لم يكن ماريو ليسكن في تلك المنطقة. خضَّني ذلك، وشعرت أنَّها تهزأ منِّي. تخاصمت مجدَّدًا معها، وسمعت هنا وهناك من يتحدَّث عن زوجي: كان مجدَّدًا في الخارج، ربَّما كان في رحلةٍ مع عاهرته. كنت عاجزةً عن تصديق ذلك، بدا لي من

المستحيل أن يكون قد نسيَني بهذه السهولة، ونسيَ ابنيْه، وأن يتوارى عن الأنظار لأشهرٍ طويلة، وألّا يُبالي بإجازة جاني وإيلاريا، وأن يُؤثِر راحته على راحتهما. أيّ رجل كان؟ مع أيّ شخصٍ قضيتُ خمسة عشر عامًا؟!

كان الصيف قد حلّ، وقد أقفلت المدارس أبوابها، ولم أكن أعلم ما أفعل بالولديْن. كنت أجرُّهما ورائي في المدينة، في الحرِّ، وهما يبديان امتعاضهما، ونزواتهما، ويحمِّلاني مسؤوليَّة كلّ شيء، الحرّ، والبقاء في المدينة، وعدم الذهاب إلى البحر، أو الجبل. كانت إيلاريا تكرِّر ملحِّنة كلماتها، مصطنعة الاستياء:

«لا أعرف ماذا عساني أفعل».

«كفى!» كنت غالبًا ما أصرخ، في البيت، في الشارع.. «قلت كفى!»، وكنت أوحي بأنّني أودّ أن أصفع أحدهما رافعةً ذراعي. كنت أرغب فعلًا في صفعهما، وأُحجم في اللحظة الأخيرة.

إلّا أنّهما لم يهدآ. كانت إيلاريا تريد أن تتذوّق النكهات المائة وعشر التي يحضِّرها متجرٌ للمثلّجات تحت قناطر شارع تشيرنايا، كنت أدفعها فيما كانت تلصق قدميْها بالأرض، وتجرّني باتِّجاه مدخل المتجر. أمّا جاني، فكان يتركني فجأةً، ويجتاز بمفرده الطريق مهرولًا وسط الأبواق، يلاحقه صراخي الخائف، فكان يريد أن يرى مرَّة أخرى صرح بيترو ميكا، إذ كان ماريو قد روى له قصَّته بأدقّ تفاصيلها. لم أكن قادرةً على إبقائهما في المدينة التي راحت تُقفر، فيما ترفع من التلال، والنهر، والإسفلت، رياحٌ لاهبة، مشبَّعةٌ بالضباب أو بِحرٍّ لا يُحتمل.

تخاصمنا مرَّة هناك بالذات، في الحدائق، قبالة متحف سلاح المدفعيَّة تحت تمثال بيترو ميكا المخضرّ، السيَّاف الحارق. لم أكن أعرف الكثير عن قصص الأبطال الذين قضوا قتلًا وسط النيران والدم.

«لا تعرفين أن تقصّي الحكاية»، قال لي ابني، «لا تذكرين أيّ شيء».

أجبته:

«اسأل أباك إذًا».

وبدأت أصرخ، فإذا كانا يعتبرانني غير صالحة فليذهبا إليه. هناك أُمّ جديدة، جميلة وجاهزة، ولا شكّ في أنَّها من تورينو، وأراهن أنَّها تعرف كلّ شيء عن بيترو ميكا، وعن تلك المدينة بملوكها، وأميراتها، وتعالي ناسها، وبرودة أهلها الأشبه برجال آليّين معدنيّين. صرخت، وصرخت فالتةً على عقيرتي. كان جاني وإيلاريا يُحبَّان المدينة كثيرًا، وكان الصبيّ يعرف أزقَّتها وقصصها، وكان والده يدعه يلعب غالبًا تحت الصرح في آخر شارع مووتشي، فكان هناك تمثال من البرونز يعجبه، ويعجب ابنه، يا للترَّهات التي تحملها ذكرى الملوك والجنرالات في الطرقات! كان جاني يحلم أن يصبح مثل فرديناندو سافويا في معركة نوفارا، عندما قفز عن جواده محتضرًا وسيفه في يده على أهبَّة الاستعداد للقتال. نعم، كنت أريد جرحهما، جرح ابنيّ، وكنتُ أريد أن أجرح تحديدًا الصبيَّ الذي كان يتكلَّم بلهجةِ محافظةِ بيمونتي، حتى ماريو راح يرطن بلهجة تورينو متخلِّصًا عمدًا من لهجته، لهجة نابولي. كنت أكره أن يشعر جاني أنَّه فتى

جسور، فكان يكبر بغباء، وادِّعاء، وعدائيَّة، راغبًا في سفك دمه، ودم الآخرين في نزاعٍ همجيٍّ ما. فعلًا، لم أعد قادرة على الاحتمال.

تركتهما في الحدائق، قرب بركة الماء، وحثثتُ السير باتِّجاه شارع غاليليو فاريس، باتِّجاه تمثال ڤيتوريو إيمانويلي الثاني المعلَّق كظلٍّ في آخر الخطَّيْن الموازيَيْن للمباني، عالٍ في كبد السماء الحارَّة والغائمة. ربَّما كنت أريد تركهما فعلًا للأبد، أريد أن أنساهما، لأضرب بعدها جبيني، عندما يعود ماريو أخيرًا، أهتف: ابناك؟ لا أعلم. أضعتهما. يبدو لي أنَّ المرَّة الأخيرة التي رأيتهما فيها كانت منذ شهر، في حدائق القلعة!

أبطأتُ بعد قليل سيري، وعدت أدراجي. ماذا يحدث لي؟ فقدت الاتِّصال بهذين المخلوقيْن البريئيْن، كانا يبتعدان كما لو كانا يطفوان على لوح خشبٍ يمضي مع التيَّار. استعيديهما، التقطيهما، قرِّبيهما منك: كانا لي. صحتُ: «جاني! إيلاريا!»

لم أرهما، لم يعودا على مقربة من البركة.

نظرت حولي فيما كان القلق يجفِّف حلقي. ركضت في الحدائق، كما لو أردت أن أضمّ مساحات الزهور والأشجار في تحرُّكاتٍ سريعةٍ لا منطق فيها. كنت أخشى أن تتشرذم في ألف شظيَّة. توقَّفت أمام مدفع نيران المدفعيَّة التركيَّة الكبير الذي يعود للقرن الخامس عشر، كان أسطوانةً مهيبة من البرونز وُضعت على فسحة العشب. صرختُ مجدَّدًا اسمَي الولديْن. أجاباني من داخل المدفع. كانا قد استلقيا في الداخل، فوق قطعة من الورق المقوَّى استخدمها مهاجرٌ ما كمرقدٍ له. عاد الدم ليجري في

عروقي، جذبتهما من قدميْهما، وأخرجتهما بالقوَّة.

«الحقّ عليه»، قالت إيلاريا شاكيةً أخاها، قال «فلنختبئ هنا».

أمسكت جاني بذراعه، وهززته بالقوَّة، وهدَّدته وقد أخذ منِّي الغضب كلّ مأخذ:

«أتعرف أنَّك قد تلتقط مرضًا هنا في الداخل؟ أتعلم أنَّك قد تمرض وتموت؟ أنظر إليّ يا كلب! إذا كرَّرت ذلك سأقتلك!»

كان الطفل يحدِّق فيَّ غير مصدِّق. وبعدم التصديق عيْنه، كنت أنظر إلى نفسي. رأيت امرأةً على مقربة من مساحة من الشتول، على مسافة بضع خطوات من آلة تدمير قديمة باتت تستقبل اليوم ليلًا بشرًا من عوالم بعيدة لا أمل لديهم. للوهلة الأولى، لم أتعرَّف عليها. خفتُ فقط، لأنَّها أخذت قلبي الذي كان يقرع الآن في صدرها.

15

واجهتُ المشاكل في تلك الفترة مع الفواتير أيضًا. كانت تصل إنذارات بأنَّ الماء، أو الكهرباء، أو الغاز ستُقطع عنَّا لعدم تسديدنا الفواتير. كنتُ عندها أعاند في التأكيد أنَّني سدَّدتُ ما عليَّ، وأروح أبحث لساعات عن إيصال الدفع، وكنت أضيِّع الكثير من الوقت في الاحتجاج، والمجادلة، والكتابة لأستسلم بعدها ذليلةً إزاء يقيني أنَّني لم أدفع المتوجِّب عليَّ دفعه بالفعل.

ذاك ما حدث للهاتف. لم يكن تشويش الخطّ مستمرًّا فحسب، كما كان قد أخبرني ماريو، إلَّا أنَّه فجأةً، لم يعد في وسعي الاتِّصال كذلك: كان صوتٌ يقول لي إنّي غير مخوَّلة إجراء هذا النوع من المكالمات، أو ما شابه.

وبما أنَّني كنت قد حطَّمتُ الهاتف الخلويّ، توجَّهت إلى هاتف عام، واتَّصلت بشركة الهاتف لحلِّ المشكلة. أكَّدوا لي أنَّهم سيعمدون لإصلاح العطل في أسرع وقت ممكن. إلَّا أنَّ

أيَّامًا طويلة انقضت ما فتئ فيها الهاتف صامتًا. عاودتُ الاتِّصال وقد استشطت غضبًا، وكان صوتي يرتجف من الغيظ. رويتُ مشكلتي بصوتٍ شديد العدائيَّة دفع الموظَّف للصمت طويلًا، ومن ثم مساءلة حاسوبه، ليعلمني أنَّهم علَّقوا استخدام الهاتف لعدم تسديدي ما يتوجَّب عليَّ.

غضبتُ. أقسمت بابنيَّ أنَّني دفعتُ المستحقَّات. شتمتهم جميعًا من أصغر موظَّف وحتى المدراء العامِّين، اتَّهتمهم بالبلادة المشرقيَّة (هذا ما قلته). أشرت إلى سوء الأداء المزمن، وقصص الفساد الصغيرة والكبيرة في إيطاليا، وصحتُ: إنَّكم تثيرون قرفي. أقفلت بعد ذلك السمَّاعة، وتفحَّصت إيصالات الدفع، فاكتشفت أنَّ ما قاله صحيح، وأنَّني نسيت أن أدفع المستحقَّات.

دفعتُ المبلغ في اليوم التالي، إلَّا أنَّ الوضع لم يتحسَّن. عاد مع الخطِّ التشويش الدائم على المكالمات، كما لو كان هبوب عاصفة في السمَّاعة، فيما كان يُسمع بالكاد صفير الخطّ. هرعتُ مجدَّدًا إلى المقهى أسفل المنزل للاتِّصال، فقيل لي إنَّه ينبغي ربَّما تغيير جهاز الهاتف. ربَّما! نظرت إلى الساعة، كان وقتٌ قصيرٌ يفصلنا عن انتهاء دوام المكتب، خرجت بسرعة من دون تلكُّؤ.

قدت السيَّارة في المدينة المقفرة في أغسطس والحرُّ خانق. ركنتها صادمةً أكثر من مرَّة دفاعات سيَّارات مركونة أخرى، وبحثتُ سيرًا على الأقدام عن شارع مووتشي. ألقيتُ على الواجهة الكبيرة المغطَّاة بألواح الرخام الموشّى حيث مقرّ شركة الهاتف نظرةً شرِّيرة، وصعدت الدرجات القليلة درجتَيْن درجتَيْن.

وجدتُ في غرفة الحاجب رجلًا لطيفًا، لا رغبة له في المجادلة. قلتُ له إنّي أريد التوجُّه إلى مكتب تقديم الشكاوى في الحال، لأحتجّ على عطلٍ مستمرّ منذ أشهر.

أجابني قائلًا: «لم يعد لدينا مكاتب مفتوحة للمواطنين منذ عشر سنوات على الأقلّ».

«وماذا لو أردت التقدُّم بشكوى؟»

«تقدَّمي بها هاتفيًّا».

«ماذا لو أردت أن أبصق في وجه أحدٍ ما؟»

نصحني بهدوء أن أجرِّب حظّي في مقرّ شارع كوفينتزا على بعد مائة متر منّا. ركضتُ لاهثةً كما لو أنَّ الوصول إلى شارع كوفينتزا كان مسألةَ حياةٍ أو موت، المرَّة الأخيرة التي ركضت فيها هكذا كنتُ في عمر جاني. ولكنَّني لم أتمكَّن من تنفيس كبتي، فقد عثرت على بابٍ زجاجيٍّ موصد. هززته بعزم، على الرَّغم من أنَّه كُتب عليه «باب في حالة إنذار». يا للتعبير السخيف! فليتفجَّر الجرس، فلتدقّ المدينةُ، والعالمُ، ناقوسَ الخطر. من طاقةٍ في الجدار إلى يساري، أطلَّ رجلٌ لا يرغب في الكلام. صرفني بكلماتٍ قليلة، واختفى مجدَّدًا: لم تكن هناك من مكاتب، ولم تكن هناك مكاتب مفتوحة للمواطنين طبعًا. كلّ شيء لم يعد يتعدَّى صوتًا متقشِّفًا، وشاشة حاسوب، وبريدًا إلكترونيًّا، وعمليَّات مصرفيَّة. وإذا ما أراد أحدٌ ما، كما قال لي بلؤم عظيم، أن ينفِّس عن غضبه، فللأسف ليس لديه هنا من يصبّ جامّ غضبه عليه!

آلَم الغيظُ معدتي. عدت إلى الطريق، وشعرتُ كما لو أنَّ أنفاسي ستنقطع، وأنَّني سأقع أرضًا. وقع نظري على حروف

لوحة رخاميَّة معلَّقة إلى المبنى قبالتي كما لو كانت علَّاقة، وكلمات تقيها السقوط. في هذا البيت، انبعث كَطيف حلم شاعر من الحزن، من اللاشيء، لِمَ قد يكون اللاشيء حزينًا؟ ما المحزن في اللاشيء؟ واسمه غويدو كوتزانو ليعود بعد ذلك إلى ربِّه. كلمات تدَّعي أنَّها فنِّيَّة، وأنَّها عابقة بفنِّ سحر الكلمات. ابتعدت مطأطأة الرأس. خفت أن أتكلَّم وحدي، وقد حدَّق إليّ أحدهم، فحثثت سيري. لم أعد أذكر أين تركت السيَّارة، لم يكن يهمّني أن أتذكَّر.

همتُ على وجهي، مررت أمام مسرح ألفيري، ووصلت إلى شارع بيترو ميكا. نظرت حولي ضائعةً، لم تكن السيَّارة هناك بالتأكيد. ولكنْ، أمام إحدى واجهات متجر صاغة، رأيت ماريو مع امرأته الجديدة.

لستُ أدري إذا ما تعرَّفتُ عليها في الحال! شعرتُ فقط وكأنَّ قبضةً تُسدَّد إلى صدري. ربَّما أوَّل ما أدركته أنَّها صغيرة جدًّا في السنِّ، صغيرة إلى حدِّ أنَّ ماريو كان يبدو قربها كهلًا. أو ربَّما لاحظتُ على وجه الخصوص أنَّها ترتدي فستانًا كحليًّا قماشه خفيف، فستانًا لم يكن على الموضة، من تلك الفساتين التي يمكن شراؤها من متجر الثياب المستعملة الفاخرة، وكان بعيدًا عن شبابها إنَّما طريًّا على جسدها المليء بانثناءاته الحانية.. واستدارة الجِيد الطويل، والثديَيْن، والوركيْن، والرسغيْن. أو ربَّما أثار انتباهي شعرها الأشقر وقد رفعته أعلى رقبتها فانتفخ، وأثبتته بمشطٍ، كنقطةٍ جاذبة، كالمغنطيس.

لست أدري!

لا شكّ في أنَّه كان عليَّ أن أمرِّر بسرعة ممحاةً على جسدها العشرينيّ الطريّ قبل أن أسترجع الوجه الفجّ، والمدبَّب، الوجه الذي ما يزال طفوليًّا، وجه كارلا، تلك المراهِقة التي كانت في صلب أزمتنا الزوجيَّة منذ سنوات طويلة. عندما تعرَّفتُ عليها، صُعقت لرؤية القرطيْن، قرط جدَّة ماريو، قرطَيَّ!

كانا معلَّقيْن إلى شحمتَي أذنيْها، ويتدلَّيان بأناقة على جيدها. كانا يعينان ابتسامتها على مزيدٍ من الإشعاع، فيما كان زوجي، أمام الواجهة، يعانق خصرها بفرح التملُّك وهي تسند إلى كتفه ذراعًا عارية.

تمدَّد الوقت. اجتزت الطريق بخطواتٍ كبيرة ومصمِّمة، لم أشعر بأيِّ رغبة في البكاء أو الصياح، أو المطالبة بتبرير. لم تتملَّكني سوى رغبةٍ سوداء بالتدمير.

كنت أعلم الآن أنَّه خدعني طوال السنوات الخمس الماضية.

لخمس سنواتٍ تقريبًا، كان قد تمتَّع سرًّا بذاك الجسد. رعى شغفه ذاك، وحوَّله إلى حبٍّ، كان ينام بصبرٍ معي مستسلمًا لذكراها، كان ينتظر أن تصبح راشدة، وأكثر من راشدة ليقول لي إنَّه سيتَّخذها امرأةً للأبد، وإنَّه سيهجرني. سافلٌ، حقيرٌ، لدرجة أنَّه عجز عن أن يقول لي ما كان يجري له فعلًا. كان قد راكم الخداع العائليّ، على الخداع الزوجيّ، على الخداع الجنسيّ ليُتيح المجال أمام حقارته، ليسيطر عليها، ليستمدَّ شيئًا فشيئًا القوَّة لهجري.

وصلت إليهما من الخلف. صدمته كثور بكلِّ ثقلي، دفعته باتِّجاه الواجهة التي ارتطم بها بجبينه. ربَّما صرخت كارلا،

ولكنّي لم أَرَ سوى فمها الفاغر، ثقب أسود مقفل الإطار الأبيض والمنتظم للأسنان. في هذه الأثناء، أمسكت ماريو الذي كان يستدير بعينيْه المرعوبتيْن، وأنفه دامٍ، وهو ينظر إليَّ وقد ملأه الذعر، والدهشة معًا. تمسَّكي بالفواصل، تمسَّكي بالنقاط. ليس من السهل الانتقال من سعادة النزهة العاطفيَّة الهانئة إلى تحلُّل العالم وتفكُّكه. يا للرجل المسكين! يا للرجل المسكين! أمسكته بقميصه وجذبته بعنف، فتمزَّق عند الكتف اليمنى، ألفيت الخرقة بين يديَّ. بقي عاريَ الصدر، لم يعد يرتدي القميص القطنيّ، فلم يعد يخشى الزكام، وداء ذي الرئة، فيما كان يلتهمه عندما كان معي هَوَس الأمراض! لا شكَّ في أنَّ صحَّته انتعشت، كان قد تشمَّس بانتباه، وبات أكثر نحولًا، إنَّما مضحكًا بعض الشيء، فقد كانت ذراع مغطَّاة بكمٍّ كامل، كُوي بعناية، وقد حافظت قطعة من قماش الكتف على مكانها، وكذلك الياقة، إنَّما بشكل موارب. أمَّا الصدر، فكان عاريًا، وكانت خِرقٌ تتدلّى من بنطاله، والدم يسيل على شعيرات الصدر الشائبة.

ضربته مرَّة بعد مرَّة، سقط على الرصيف، ورحت أركله مرَّة، مرَّتيْن، ثلاث مرَّات.. ولكنْ، لست أدري لمَ لم يحتجَّ، كانت حركاته مفكَّكة. وعوضًا عن أن يحميَ ضلوعه، ستر وجهه بذراعه، ربَّما دفعه إلى ذلك العار! يصعب عليّ الجزم.

عندما اكتفيتُ، استدرت باتِّجاه كارلا التي كانت ما تزال فاغرةً فمها. كانت تتراجع، وأنا أتقدَّم. كنتُ أحاول الإمساك بها وهي تفرّ منِّي. لم أكن أنوي ضربها، كانت غريبة. كنتُ أشعر أنَّني شبه هادئة معها. كنت غاضبةً إزاء ماريو فقط الذي أعطاها

هذيْن القرطيْن، لذلك كنت أضرب الهواء بعنف محاوِلَةً الإمساك بهما. كنت أريد أن أنتزع القرطيْن من شحمتَيْ أذنيْها، وأن أمزِّق الجلد، وأنكر عليها وظيفتها كوريثةٍ لجدَّات زوجي. ما علاقتها هي، العاهرة القذرة؟ ما علاقتها بتلك السلالة؟ كانت تتأنَّق مستخدمةً أغراضي التي كانت ستصبح أغراض ابنتي. تفتح فخذيْها وترطِّب له قضيبه قليلًا، وتتخيَّل أنَّها تُعمِّده بذلك، أُعمِّدك بماء عانتي المقدَّس، أُغرق قضيبك في اللحم الرطب، وأُعيد تسميته، أجعله لي، وأهبه حياةً جديدة. العاهرة. لذلك، كانت تعتقد أنَّه من حقِّها أن تحتلَّ مكاني في كلِّ شيء، وأن تؤدِّي دوري، تلك العاهرة القذرة.. أعطني القرطيْن، أعطني القرطيْن. كنت أريد انتزاعهما مع الأذنيْن، كنت أُريد أن أجرّ خلفي وجهها الجميل بعينيْه، وأنفه، وشفتيْه، وجلدة الرأس، والشعر الأشقر. كنت أريد أن أجرَّه خلفي كصنَّارةٍ علقت بثوب جلدها، واقتلعتْ كيس الثديَيْن، والبطن الذي يغطِّي المصارين، وخرجت من ثقب مؤخّرتها، ومن الشقّ العميق المكلَّل باللهب. كنت أريد أن أترك لها فقط ما كانت عليه فعلًا، جمجمةً مقيتةً مبقَّعةً بالدم الحيِّ، هيكلًا عظميًّا سُلخ لتوِّه. فالوجه، والجلد على اللحم.. ما هما؟ غطاء، تنكُّر، تبريج لفظاعة طبيعتنا الحيَّة التي لا تُطاق. وهو وقع في الفخِّ، وخُدع. من أجل ذاك الوجه، من أجل ذاك الثوب الطريّ تسلَّل إلى بيتي، سرق قرطيّ حبًّا بقناع الكرنفال ذاك. أردت أن أنتزعها كلَّها منه، كلَّها نعم، مجرجرةً إيَّاه مع قرطيْها. في هذه الأثناء، صرختُ في وجه ماريو:

«أنظر، سأريك ما هي عليه فعلًا».

إلّا أنّه أوقفني. لم يتدخّل أيّ مارٍّ، بل تلكّأ، كما يبدو لي، بعض الفضوليّين للتفرُّج من باب التسلية. أذكر ذلك، لأنّني تلفّظتُ، إزاء الفضوليّين، ببعض الجمل المبتورة من باب الشرح، كنت أرغب في أن يفهموا ما كنتُ أقوم به، ما هي أسباب غضبي. وبدا لي أنّهم كانوا يستمعون إليّ، كانوا يريدون أن يتحقّقوا ممّا إذا كنت سأنفّذ فعلًا ما كنت أُهدِّد به. يمكن لامرأة أن تُقدم على القتل بسهولة في الشارع، وسط الحشود، يمكن أن تُقدم على ذلك أكثر من الرجال. يبدو عنفها لعبةً، استعارةً، استخدامًا غير مناسب وسخيفًا بعض الشيء للتصميم الذكوريّ في الأذى. فقط لأنّ ماريو أمسكني من كتفي، لم أقتلع القرطيْن من شحمتَي أُذنَيْ كارلا.

أمسكني ودفعني جانبًا، كما لو كنت غرضًا ما. لم يكن قد عاملني يومًا بكلّ هذه الكراهية. هدَّدني، كان ملوَّثًا بالدم، مضطربًا. إلّا أنّ صورته تبدو لي، الآن، صورة من يتحدَّث من شاشة تلفزيون وُضعت في إحدى الواجهات. لم تكن الصورة تبدو لي خطرة بل بائسة. من هناك، من مسافةٍ يصعب تحديدها، من تلك المسافة التي تفصل ربَّما الحقّ والباطل، كان يسدِّد إليّ سبَّابةً لعينة من آخر كمّ القميص الوحيد الذي ما يزال يغطّيه. لم أسمع ما كان يقوله، ولكنْ باغتني الضحك لفرط ما كانت سلطته زائفة. أزال الضحك كلّ رغبة في أذيَّته، أفرغني. تركته يحمل امرأته بعيدًا، والقرطيْن المتدلِّيَيْن من أذنيْها. ما عساني أفعل على كلّ حال! كنت قد فقدت كلّ شيء، كلّ ما في داخلي، كلّ شيء، إلى الأبد.

16

عندما عاد الولدان إلى البيت من المدرسة، قلت لهما إنَّني لم أكن أرغب في طهو أيّ شيء، لم أحضِّر أيّ شيء، فليتدبَّرا أمرهما. ربَّما، وبسبب مظهري، أو ربَّما بسبب ما كانت تحمله نبرتي الخامدة، توجَّها إلى المطبخ من غير أن يحتجَّا. عندما عادا، جلسا بصمت، محرجيْن بعض الشيء، في إحدى زوايا غرفة الجلوس. ما لبثت بعدها إيلاريا أن اقتربت منِّي واضعة يديْها على صدغي سائلة:

«هل يؤلمك رأسك؟»

أجبتها بالنفي، وقلت إنَّني لا أريد أن يزعجني أحد. انسحبا إلى غرفتهما للقيام بواجباتهما وقد استاءا من سلوكي، وأحزنهما رفضي لعاطفتهما. أدركتُ لاحقًا أنَّ الظلام قد حلَّ، وتذكَّرتهما، فذهبت لأرى ماذا كانا يفعلان. كانا ينامان بكامل ثيابهما على السرير نفسه جنبًا إلى جنب. تركتهما هكذا، وأقفلت الباب.

لا بدَّ من ردّ فعل. رحت أرتِّب البيت. بعدما فرغت من ذلك، أعدت الكرَّة، في جولةٍ على كلّ ما لم يكن يبدو لي مرتَّبًا. صفاء، وتصميم، وتمسُّك بالحياة. عثرت في الحمَّام على الفوضى المعتادة في خزانة الأدوية. جلست أرضًا، وبدأت بفصل الأدوية المنتهية الصلاحيَّة في سلَّة المهملات، ورتَّبت الخزانة تمامًا. اخترت علبتَي دواء منوِّم، وحملتهما إلى غرفة الجلوس. وضعتهما على الطاولة وصببت كأس كونياك طافحة. حملت الكأس بيد، وملأت كفّ اليد الأخرى بحفنةٍ من دواء التافور، وتوجَّهت إلى النافذة التي كانت تصل منها نسمةٌ رطبة وحارَّة من النهر والأشجار.

كان كلّ شيء قد جرى من باب المصادفة. أُغرمت بماريو وأنا فتاة، ولكنْ كان يمكن أن أُغرم بأيِّ شخصٍ آخر، بجسدٍ يؤول بنا المطاف إلى أن ننسب إليه معنًى ما. نقضي قسمًا طويلًا من الحياة معه، فيبدو لنا أنَّه الرجل الوحيد الذي يمكن أن نسعد معه، فننسب إليه فضائلَ الخلاص فيما هو ليس سوى قصبةٍ تُصْدر أنغام الزَّيف، فلا نعلم من هو حقًّا، حتى إنَّه هو لا يعلم ذلك! نحن فرص، نستهلك الحياة ونفقدها، لأنَّ رجلًا ما في زمنٍ قصيٍّ، ورغبةً منه في أن يُفرغ داخلنا قضيبه، كان لطيفًا معنا، واختارنا من بين النساء. يختلط الأمر علينا، فنظنُّها لياقةً تجاهنا فقط تلك الرغبة السخيفة في قضاء وطره. نحبّ رغبته في المضاجعة، ويُبهرنا ذلك إلى حدٍّ أنَّنا نظنّ أنَّه يرغب في مضاجعتنا نحن بالذات، نحن فقط. طبعًا، فهو ذاك المميَّز قد اعترف بنا، بتميُّزنا. نُعطيها اسمًا، تلك الرغبة في قضيبٍ ما، نُشخصنها،

نُسمِّيها حبيبي. فليذهب كلّ شيء إلى الجحيم.. ما هذا الخداع، ما هذا الزيف؟ كما كان يضاجعني يومًا، ها هو يضاجع امرأةً أخرى! ما الذي كنت أتوقَّعه؟ ينقضي الوقت، فتذهب واحدةٌ وتأتي أخرى. هممت بابتلاع بعض الحبوب عازمةً على النوم مستلقيةً على قعر نفسي الأكثر ظلامًا.

إلَّا أنَّه في تلك اللحظة، برز، من كتلة أشجار الساحة، ظلّ كارانو الليلكيّ وقد علَّق العلبة إلى كتفه. اجتاز الموسيقيّ، بخطواتٍ متردِّدة وبلا استعجال، الفسحة الخالية من السيَّارات، بعد أن أفرغت الحرارة المدينةَ تمامًا، ليختفي تحت المبنى. بعد قليل، سمعتُ طقطقة محرِّك المصعد، وهديره. تذكَّرت فجأةً أنَّني ما أزال أحتفظ برخصة قيادة ذاك الرجل. زمجر أوتو في نومه.

ذهبت إلى المطبخ، ورميت الحبوب والكونياك في المجلى، ورحت أبحث عن رخصة كارانو. وجدتها على منضدة الهاتف وقد توارت تحت الجهاز تقريبًا. قلَّبتها في يدي، ونظرت إلى صورة الموسيقيّ. كان شعره ما يزال أسود، ولم تكن التجاعيد العميقة التي ترتسم على وجهه بين الأنف وزوايا الفم قد ظهرت بعد. نظرت إلى تاريخ ميلاده، وحاولت أن أتذكَّر تاريخ اليوم، وفطنت إلى أنَّ عيد ميلاده الثالث والخمسين حلّ.

كانت الأفكار تتنازعني. كنت أُحسُّني مدفوعةً لنزول الدرج، وقرع بابه، واستخدام رخصة القيادة لألج بيته في ساعة متأخِّرة. لكنَّني كنت خائفة، خائفة من الغريب، من الليل، من صمت المبنى برمَّته، من العطور النديَّة والخانقة التي تبلغني من الحديقة العامَّة، ومن زقزقة الطيور الليليَّة.

خطّطت للاتّصال به. لم أكن أُريد أن أغيّر رأيي، لا بل كنت أريد أن ألقى تشجيعًا لتنفيذه. بحثت عن رقمه في دليل الهاتف، وعثرت عليه. اخترعت في خَلَدي حوارًا ودودًا. لقد عثرت صباح اليوم، في شارع مارياناي، على رخصة قيادتك، سأنزل لأُعطيها لك إذا ما لم يكن الوقت متأخّرًا. وعليَّ أن أعترف لك أنّني لمحت تاريخ ميلادك، وأودّ أن أقدّم لك أطيب التمنّيات، أتمنّى لك من كلّ قلبي عيد ميلاد سعيد، سيّد كارانو. صدّقني عيد ميلاد سعيد. لقد دقّت الساعة منتصف الليل لتوّها، أراهن أنّني أوّل من يحتفي بك.

مُضحك. لم أُحسن يومًا استخدام نبرةٍ جذّابة مع الرجال. كنت لطيفةً، ودودة، إنّما من دون حرارة، ومن دون تعابير تُشير إلى استعدادي لعلاقة جنسيّة. عذّبني ذلك طوال مراهقتي. ولكنّني أُشرف على الأربعين الآن ـ قلت لنفسي، لا شكّ في أنّني تعلّمت شيئًا ما. رفعت السمّاعة وضربات قلبي تقرع بعنف، وأعدتها بغضب. كانت تلك العاصفة تصفّر والخطّ مقطوع. أعدت رفعها، وحاولت تشكيل الرقم. لم يتوقّف الصفير.

شعرتُ بجفنيَّ يغمضان.. لا أمل. كانت حرارة هذا الليل الذي أقضيه وحيدةً ستمزّق قلبي. ومن ثم رأيت زوجي. لم يكن يضمّ بين ذراعيْه الآن امرأةً مجهولة. كنت أعرف الآن وجهها الحسن، والقرطيْن المعلّقيْن إلى شحمتَي أذنيْها، واسم كارلا، وجسد تلك الوقاحة الفتيّة. كانا عاريَيْن هما الاثنيْن في تلك اللحظة، كانا يتضاجعان من غير استعجال. كانا ينويان المضاجعة طيلة الليل، كما فعلا خفيةً عنّي بالتأكيد في السنوات الأخيرة؛

وكلّ تقلُّص متألِّم أشعر به كان يتزامن مع تقلُّصهما من اللذَّة.

اتَّخذت قراري، كفاني ألم. كان عليَّ أن أُلصق إلى شفتيْ سعادتهما الليليَّة سعادة ثأري. لم أكن تلك المرأة التي مزَّقتها إربًا ضرْبات الهجْر، والغياب حتى الجنون، حتى الموت. لقد تشرذمتْ بعض شظاياي فقط، أمّا ما عدا ذلك، فأنا بخير. كنت كاملةً، وسأبقى كاملة، وسأردّ على من يؤذيني الصاع صاعيْن. أنا الورقة الرابحة، أنا زنبور يخزُ، أنا الأفعى السوداء.. أنا الحيوان الذي لا يُقهر، والذي يجتاز النيران من غير أن يحترق.

مكتبة
t.me/t_pdf

17

انتقيتُ زجاجة نبيذ، وضعتُ في جيبي مفاتيح البيت، ومن غير حتى أن أصفِّف شعري قليلًا، نزلتُ إلى الطابق أسفلنا.

قرعت بتصميم، مرَّتيْن، بشحنتيْن كهربائيَّتيْن طويلتيْن، باب كارانو. عاد الصمت، وكان القلق ينبض في حلقي. سمعت بعدها وقع خطواتٍ متثاقلة، وخيَّم الصمت على كلِّ شيء مجدَّدًا. كان كارانو يراقبني من العين السرِّيَّة. دار المفتاح في القفل، كان رجلًا يخشى الليل، ويُقفل على نفسه الباب كما لو كان امرأةً وحيدة. خطر لي أن أسارع في العودة إلى البيت قبل أن يُفتح الباب.

ظهر أمامي مرتديًا برنسًا، رسغاه نحيلان، وعاريان، وقد انتعل خفَّيْن يحملان علامة فندق، لا شكَّ في أنَّه سطا عليهما مع الصابون في تنقُّلاته مع الفرقة الموسيقيَّة.

«عيد سعيد» قلت بسرعة بدون ابتسامة «عيد ميلاد سعيد».

مددتُ إليه زجاجة النبيذ في يد، ورخصة القيادة في اليد الأخرى.

«عثرت عليها صباح اليوم في آخر الطريق».

نظر إليَّ ضائعًا.

أوضحت له «ليس الزجاجة، بل الرخصة».

بدا لي أنَّه فهم عند ذاك، وقال لي حائرًا:

«شكرًا، كنت قد فقدت الأمل. هل تريدين التفضُّل بالدخول؟»

«قد يكون الوقت متأخِّرًا، همست له وقد أخذ منِّي الرعب كلّ مأخذ مجدَّدًا.

أجابني بابتسامة محرَجة:

«صحيح الوقت متأخِّر»، ولكن... تفضَّلي، يُشرِّفني ذلك... وشكرًا... هناك بعض الفوضى... تفضَّلي».

أعجبتني تلك النبرة. كانت نبرةَ خجولٍ يحاول أن يبدو رجلًا اجتماعيًّا بدون اقتناع. دخلتُ، وأقفل الباب ورائي.

منذ تلك اللحظة، وكما بفعل معجزة، بدأت أشعر بالراحة. رأيت في غرفة الجلوس العلبة الكبيرة متَّكئة إلى زاوية، وبدا لي مرآها مألوفًا، كرؤيةِ خادمةٍ لخمسين سنة خلت، أولئك النساء القرويَّات اللواتي كنَّ يربّين، في المدن، أبناءَ العائلات الميسورة. كانت الفوضى تعمّ جليًّا البيت، فطُرحت صحيفة أرضًا، وقد ملأت أعقاب سجائر قديمة دخَّنها زائرٌ ما المنفضة، ووُضع كوب ملوَّث بالحليب على الطاولة.. إلَّا أنَّ تلك الفوضى كانت محبَّبة،

فوضى رجل وحيد، وكان الجوّ عابقًا برائحة الصابون، وكان بخار الدوش النظيف ما يزال يملأ المكان.

«عذرًا للثياب، ولكنّني لتوّي...».

«لا حاجة للاعتذار».

«سأجلب كأسيْن، لديَّ زيتون، وبعض الموالح...».

«في الواقع، أودّ فقط أن أشرب نخبك».

ونخبي، ونخب التعاسة، تعاسة الحبّ والجنس التي كنت أتمنَّى أن تحلّ قريبًا على ماريو وكارلا. هذا ما كان عليَّ أن أعتاد قوله، اسمان مرتبطان لزوجيْن جديديْن. سابقًا، كان يُقال ماريو وأولغا، أمَّا الآن فيُقال ماريو وكارلا. ينبغي أن يُصاب بداءٍ مقيت في قضيبه، وتمزّقه السهام، ويتعفَّن جسده كلّه، وتفوح منه نتانة الخيانة.

عاد كارانو بالكأسيْن، فتح سدَّادة الزجاجة، انتظر قليلًا وسكب بعدها النبيذ متلفِّظًا بكلماتٍ لطيفة بصوتٍ هادئ. قال إنَّ طفليّ جميلان، وقد نظر إليَّ غالبًا من النافذة بصحبتهما، كنت أعرف كيف أعاملهما. لم يأتِ على ذكر الكلب، ولم يذكر زوجي. شعرت أنَّه لم يكن يطيق أيًّا منهما، ولكنْ، وفي ذاك الظرف، ومن باب اللياقة، لم يعتبر من اللطف أن يقول لي ذلك.

بعد الكأس الأولى، قلت له ذلك بنفسي. أوتو كان كلبًا طيِّبًا، ولكن، والحقُّ يُقال، ما كنت لآويه في بيتي، فالكلب الذئب يُعاني الأمرَّيْن في شقَّة. زوجي هو من أصرَّ، وكان قد تحمَّل هو مسؤوليَّة الكلب، كما تحمَّل مسؤوليَّاتٍ كثيرةً أخرى.

ولكنَّه بدا في نهاية المطاف رجلًا حقيرًا، عاجزًا عن الوفاء بالالتزامات التي قطعها على نفسه. لا نعرف شيئًا عن الأشخاص، حتى أولئك الذين نتشارك معهم كلّ شيء!

«ما أعرفه عن زوجي لا يتعدَّى ما أعرفه عنك، لا فرق». صحت. الروح هواء متقلِّب، سيِّد كارانو، ذبذبة الأوتار الصوتيَّة هي، فيتظاهر المرء بأنَّه شخصٌ ما، شيءٌ ما. ماريو هجرني، قلت له، من أجل فتاة في العشرين من العمر. خانني معها لخمس سنوات، سرًّا.. رجل مراءٍ، بوجهيْن، موجتان منفصلتان من الكلمات. أمَّا الآن، فقد اختفى تاركًا لي الهموم كلَّها: الرعاية بابنيْه، والاهتمام بالمنزل، حتى بالكلب ـ أوتو الغبيّ. كنت منهكة، أنهكتني المسؤوليَّات، لا ما عداها. ما همَّني منه. المسؤوليَّات التي كنَّا نتشاطرها سابقًا باتت مسؤوليَّاتي أنا فقط، حتى مسؤوليَّة ألَّا أكون قد حافظت على علاقتنا حيَّة، حيَّة ـ الحفاظ عليها حيَّة: فكرة مستهلكة قد أضنتني، وكذلك مسؤوليَّة فهم الخطأ الذي ارتكبته. فكان عليَّ أن أقوم بعمليَّة التحليل المعذِّبة تلك من أجل ماريو أيضًا، فهو لم يكن يريد أن يحفر عميقًا، لم يكن يريد أن يصحِّح نفسه، أو يتجدَّد. كان كما لو أعمت بصره الشقراءُ، إلَّا أنَّني أنا فرضتُ على نفسي واجب تحليل سنوات عيشنا المشترك الخمسة عشرة بندًا بندًا.. هذا ما كنت أقوم به، وأنكبّ عليه ليلًا. كنت أُريد أن أبقى متيقِّظةً لإعادة تأسيس كلّ شيء ما إن يستعيد رشده، إذا ما صادف حدوث ذلك.

جلس كارانو قربي على الأريكة، غطَّى ما استطاع رسغَيْه

بالبرنس، رشف النبيذ مستمعًا بانتباه إلى ما كنت أقوله. لم يتدخَّل على الإطلاق، ولكنَّه نجح في الإيحاء لي باستماعه الأكيد، ما جعلني أشعر أنَّني لم أبذر ولو كلمة واحدة، ولو انفعالًا واحدًا، ولم أخجل عندما انتابتني رغبة في البكاء. انفجرت بالبكاء من غير تردُّد وأنا على ثقة أنَّه يفهمني، وشعرت بإحساسٍ داخليّ، ارتجافة ألم بالغة القوَّة جعلت الدموع تبدو في نظري شظايا آنية بلَّوريَّة طالما حُفظت في مكانٍ سرِّيٍّ. والآن، وبسبب ذاك الإحساس، انفجرتْ إلى ألف قطعةٍ جارحة. كنت أشعر وكأنَّ عينيَّ قد جُرحتا، وأنفي كذلك، ومع ذلك لم أستطع أن أتمالك نفسي. وزاد تأثُّري عندما رأيتُ أنَّ كارانو بدوره لم يكن يتمالك نفسه، فقد كانت شفته السُفلى ترتجف، وكانت عيناه تلمعان، همس:

«سيِّدتي أرجوكِ...».

انفطر قلبي لحساسيَّته تلك. وفي خضمِّ الدموع، وضعت كأسي على الأرض، وربَّما لأواسيه، أنا التي كانت تحتاج للمواساة، التصقت به.

لم ينبس ببنت شفة، لكنَّه قدَّم لي سريعًا منديلًا ورقيًّا. همست باعتذارٍ ما. كنت منهارة. عاد ليطالبني بأن أهدأ، فلم يكن يطيق رؤية الألم. جفَّفتُ عينيَّ، وأنفي، وفمي، وأقعيت إلى جانبه، أخيرًا شيء من الهدنة. ألقيت برأسي ببطء على صدره، وتركت ذراعي تستند إلى ساقيْه. ما كنت لأصدِّق يومًا أنَّني قد أفعل شيئًا مماثلًا مع غريب! انخرطت مجدَّدًا في البكاء. أحاط كارانو بحذرٍ، وخجل، بذراعه كتفيَّ. في البيت، كان يسود

صمتٌ فاتر، فهدأ روعي من جديد. أغمضت عينيّ، كنت تعبة وأريد النوم.

«هل أستطيع البقاء قليلًا هكذا؟» سألتُه بصوت يكاد لا يُسمع، أشبه بنفخة.

«نعم» أجابني بصوت خفيض ومتحشرج.

غفوت ربَّما. للحظةٍ بدا لي أنَّني في غرفة كارلا وماريو. أكثر ما أزعجني رائحةُ جنسٍ نفَّاذة. لا شكَّ في أنَّهما كانا ما يزالان مستيقظيْن في ذاك الوقت، كانا يبلِّلان بعرقهما الشراشف، ويُغرق كلٌّ منهما بنهم لسانه في فم الآخر. انتفضتُ. لمس شيءٌ ما رقبتي، ربَّما شفتا كارانو. رفعت وجهي حائرة، قبَّلني على فمي.

أعرف اليوم ما شعرت به، إلَّا أنَّني لم أُدركه يومذاك. شعرت آنذاك بانطباعٍ مزعج فقط، كما لو أنَّه أطلق لي إشارةً تُتيح لي فقط الغوص رويدًا رويدًا في الاشمئزاز. في الواقع، شعرت فقط بموجة الكراهية إزاء نفسي، لأنَّني كنت هناك، لأنَّه لم تكن لديَّ من أعذارٍ تُساق، لأنَّني أنا من قرَّر القدوم، لأنَّه بدا لي أنِّي لم أعد قادرة على التراجع.

«هل نبدأ؟» سألته متظاهرة بالفرح.

ارتسمت على وجه كارانو ابتسامة غير واثقة.

«لسنا مجبرَيْن...».

«هل تريد التراجع؟»

«لا...».

ألصق مجدَّدًا شفتيْه بشفتيّ، إلَّا أنَّ رائحة لعابه لم ترق لي. لست أدري إذا ما كانت فعلًا منفِّرة، بدت لي فقط مختلفة عن رائحة ماريو. حاول إيلاج لسانه في فمي، ففترت شفتاي قليلًا، ولامستُ لسانه بلساني. كان لسانه خشنًا قليلًا، حيًّا، شعرت أنَّه حيوانيّ، لسان ضخم كنت قد رأيته أحيانًا بقرف لدى القصَّابين، لا يتمتَّع بأيّ جاذبيَّة إنسانيَّة. هل كان لكارلا طعمي وروائحي؟ أو ربَّما طالما قزَّز طعمي وروائحي ماريو كما يُقزِّزني طعم كارانو وروائحه الآن، وعثر لديها فقط بعد سنواتٍ طويلة على نكهة تناسبه؟

أغرقت لساني في فم ذاك الرجل بنهم ظاهر، طويلًا، كما لو كنت ألاحق شيئًا ما في قعر حلقه ساعيةً لانتشاله قبل أن ينزلق في بلعومه. مررت ذراعي وراء عنقه، ودفعته بجسدي إلى زاوية الأريكة وقبَّلته طويلًا، وعيناي مفتوحتان على وسعهما محاولةً التحديق بأغراض وُضعت في زاوية الغرفة، لأحدِّدها، وأتمسَّك بها، لأنَّني كنت أخشى، إذا ما أنا أغمضت عينيّ، أن أرى فم كارلا الوقح، طالما رافقتها تلك الوقاحة، مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ومن يدري كم أثارت إعجاب ماريو! كم كان يحلم بها وهو ينام إلى جانبي إلى أن يستفيق ويقبِّلني كما لو كان يقبِّلها هي، وينسحب بعدها، ويعاود النوم ما إن يتعرَّف على فمي، الفم المعتاد، الفم الذي لا يحمل نكهاتٍ جديدة، فم السنوات الماضية.

شعر كارانو في قبلتي تلك أنَّ كلّ الحواجز سقطت. أمسك بيده رقبتي، فكان يريد أن يدفعني أكثر إلى شفتيْه. أفلت بعدها

فمي وقبّلني قبلاتٍ رطبةً على وجنتيَّ، وعينيَّ. ظننت أنّه يتّبع خطّة استكشافيّة محدّدة، حتى إنّه قبّل أذني، وكان صوت القبلات يفرقع مزعجًا في طبلة أذني. انتقل بعدها إلى العنق، وبلّل لسانه نقطة الالتقاء بين شعري وظاهر عنقي، فيما كان يدوس صدري بيده العريضة.

«ثدياي صغيران» قلت له هامسة؛ وسرعان ما كرهت نفسي لأنَّ الجملة بدت اعتذارًا، عذرًا إذا ما لم أقدِّم لك ثديَيْن عارميْن، أرجو أن تتمتَّع مع ذلك. كم كنت غبيَّة! إذا كانت الأثداء الصغيرة تروق له فكان به، وإلّا فبئس.. العرض مجّاني، حالف الحظّ فعلًا هذا الوغد، أفضل هديّة عيد ميلاد كان ليحلم بها في سنِّه.

«يُعجبانني»، قال هامسًا فيما كان يفكّ أزرار قميصي، ويشدّ بيده طرف حمّالة النهديْن، ويسعى لعضّ حلمتيَّ، ومصّهما. ولكنْ كانت حلمتاي أيضًا صغيرتيْن، وكان النهدان يهربان منه، ويعودان إلى حاشيتَي الحمّالة. طلبت منه أن ينتظر، ودفعته، نهضت وخلعت القميص، وفككت حمّالة النهديْن. سألته بغباء: أيعجبانك؟ كان ذاك القلق يتعاظم داخلي، وكنت أريد أن يؤكّد لي مجدّدًا استحسانه.

همس لرؤيتي:

«أنتِ جميلة»

تنهّد بعمق، كما لو أراد أن يسيطر على انفعالٍ قويّ أو حنينٍ ما، ودفعني بخفّة شديدة برؤوس أصابعه لأرخي بنفسي بصدري العاري على الأريكة، ليتأمّلني على هواه.

تركت نفسي أسقط إلى الخلف. رأيته من الأسفل، ولاحظت خطوط الرقبة التي بدأت تشيخ، واللحية التي تنتظر أن تُحلق من جديد، فيما كانت التجاعيد العميقة بين الحاجبيْن تلتمع بيضاء. ربَّما كان جادًّا، ربَّما لم تكن تلك مجرَّد كلمات لتزيين رغبات الجنس. ربَّما ما أزال جميلة حتى لو جعَّد زوجي الشعور بجمالي، ورماه في سلَّة المهملات كورقةٍ كانت تُلفّ في ما مضى هديَّة. نعم، كنتُ ما أزال قادرةً على إثارة رجل، كنت امرأةً قادرة على ذلك، لم يكن فرار ماريو إلى سرير، وإلى جسد آخر، قد أعطبني.

انحنى كارانو عليّ، لحس حلمتَيَّ، ومصَّهما. حاولت الاسترخاء، كنت أريد أن أمحو من صدري القرف واليأس. أغمضت عينيَّ بحذر، فشعرت بحرارة تنفُّسه وشفتيْه على جلدي، أصدرت تنهيدة تشجيع لي وله. كنت آمل بأن تعتريني لذَّة وليدة حتى لو كان ذاك الرجل غريبًا، وربَّما موسيقيًّا وضيع الموهبة، تافهًا ولذا وحيدًا.

شعرت أنَّه كان يقبِّل الآن أضلعي، وبطني، حتى أنَّه توقَّف عند صرَّتي، لست أدري ما كان يُثيره هناك! مرَّر داخلها لسانه فدغدغني، ثم نهض. فتح عينيْه مجدّدًا، رأيت شعره وقد تشعَّث، وعينيْه لامعتيْن، بدا لي على محيَّاه تعبير طفلٍ يعترف بأنَّه مذنب.

«قل لي مجدّدًا إنَّني أعجبك»، أصررت عليه وقد انقطع نَفَسي.

«نعم» قال، غير أنَّ حماسته كانت قد فترت قليلًا. وضع يديْه على ركبتيَّ، وباعد بينهما، انزلقت أصابعه تحت تنُّورتي،

داعب باطن فخذيَّ بنعومة كما لو كان يُرسل مسبارًا إلى قعر بئرٍ مظلم.

بدا أنَّه لم يكن مستعجلًا؛ أمَّا أنا، فكنت أفضِّل أن يجري كلّ شيء بسرعة. كنت أفكِّر الآن بإمكانيَّة أن يستيقظ الولدان، أو حتى بفرضيَّة أن يكون ماريو، بعد لقائنا العاصف، وقد خاف وندم، قرَّر أن يعود إلى البيت تلك الليلة بالذات! بدا لي حتى إنَّني أسمع نباح أوتو احتفاءً به، وكدت أقول الكلب ينبح، غير أنَّني أدركت أنَّ ذلك في غير محلِّه. كان كارانو قد رفع لتوِّه تنُّورتي، وكان يداعب باطن لباسي الداخليّ بكفِّ يده، ليمرِّر بعدها أصابعه على القماش ضاغطًا ودافعًا إيَّاها عميقًا في أعماق العانة.

تأوَّهت مجدَّدًا، أردت مساعدته في خلع اللباس، توقَّفت.

«لا» قلت له. «انتظر».

أزاح القماش. داعب عانتي العارية بأصابعه، أدخل سبَّابته، وهمس مجدَّدًا:

«نعم، أنتِ جميلة جدًّا».

جميلة في كلِّ المواضع، في الخارج وفي الداخل.. تخييلات الذكور! ربَّما كان هذا ما يقوم به ماريو. معي لم يكن قد أخذ وقته على هذا النحو، ولكنْ ربَّما هو أيضًا الآن في الليل الطويل، في مكانٍ آخر، يُباعد بين ساقيْ كارلا النحيلتيْن، ويُلقي نظرته على عانتها نصف المستورة بلباسها، يتلكَّأ وضربات قلبه تتسارع ليتأمَّل فُحش تلك الوضعيَّة، ويجعلها أكثر فُحشًا بأصابعه. ولكنْ، ما أدراني! ربَّما كنت أنا وحدي فاحشةً الآن، مستسلمةً

لذلك الرجل الذي يلمسني في مواضع سرِّيَّة، ويرطِّب أصابعه داخلي بدون عجلة، بفضولٍ يفتقد إلى الرغبة، فضول من لا يحبّ. أمَّا كارلا، وهذا ما كان يظنُّه ماريو، بتُّ واثقة الآن أنَّ هذا ما كان يظنُّه، كانت امرأةً شابَّة مغرمة تهب نفسها لعشيقها. لم تكن أيّ حركة، أو تنهيدة مبتذلة أو بائسة، حتى أكثر الكلمات فظاظةً ما كانت لتؤثِّر على المعنى الحقيقيّ لجُماعهما. كنت أستطيع قول عانة، وأير، وإست، لم يكن ذلك ليؤثِّر فيهما. كنت أؤثِّر فقط فيَّ، أجرح فقط صورتي على الأريكة، ما كنت عليه في تلك اللحظة، منفلشة، فيما كانت أصابع كارانو الغليظة تحرِّك فيَّ قعر لذَّة موحلة.

انتابتني رغبةٌ جديدة بالبكاء، كظمت أسناني. لم أكن أدري ما أفعل، لم أشأ أن أنفجر مجدَّدًا بالبكاء، فحرَّكت حوضي، وهززت رأسي متأوِّهة، وهامسة:

«هل تريدني، هل تريدني فعلًا، قل لي...».

أشار كارانو أن نعم، دفعني على جانبي، جذب لباسي إلى الأسفل. فكَّرت أنَّ عليّ أن أذهب. ما كنت أريد أن أعرفه بتّ أعرفه الآن. ما أزال أُعجب الرجال. ماريو أخذ معه كلّ شيء، إنَّما لم يأخذني أنا، لم يأخذ شخصي، لم يأخذ قناعي الجميل الجذَّاب. كفاك مع عجيزتي. إنَّه يعضّ ردفيَّ ويلحسهما.

«القفا لا»، قلت وأبعدت أصابعه. عاد لينفخ في شرجي، أبعدته مجدَّدًا. كفى.. انسحبت، ومددت يدي باتِّجاه برنسه.

صحت به «فلننهِ ذلك، هل لديك واقٍ ذكري؟»

هزَّ رأسه إيجابًا، لكنَّه لم يتحرَّك. سحب يديْه عن جسدي

وقد أُثبطت عزيمته فجأة. أسند رأسه إلى أعلى الأريكة، وحدَّق بالسقف.

همس قائلًا: «لا أشعر بأيّ شيء».

«ماذا تعني؟»

«لا أنتصب».

«أبدًا؟»

«لا، الآن فقط».

«مذ بدأنا؟»

«نعم».

شعرت بالعار يلهب وجهي. كان قد قبَّلني، وعانقني، ولمسني، غير أنَّ قضيبه لم ينتصب. لم أفلح في جعل دمه يتأجَّج، حرَّك جسمي من غير أن يحرِّك جسمه ـ ابن الكلب.

فتحت برنسه، لم أعد أستطيع الرحيل. بين الطابق الرابع والطابق الخامس لم يعد هناك من درج، فإذا ما خرجت كنت لأقع على هاوية.

نظرت إلى عضوه الشاحب، والصغير، ضائعًا في دغل من الشعر الأسود بين الخصيتيْن الثقيلتيْن.

«لا تقلق» قلت له. «إنَّك منفعل».

نهضتُ، وخلعت تنُّورتي التي كنت ما أزال أرتديها، وبتُّ عاريةً، إلَّا أنَّه لم ينتبه لذلك، وتابع التحديق في السقف.

«تمدَّد الآن» أمرته بهدوء مصطنع. «استرخِ». دفعته إلى الأريكة ليستلقي متَّخذًا الوضعيَّة التي كنت قد اتَّخذتها حتى تلك اللحظة.

«أين تضع الواقي الذكريّ؟»

ابتسم بشجن.

«لا فائدة الآن»، ومع ذلك أشار إلى قطعة أثاث بحركة تعبة.

توجَّهت إلى الخزانة، فتحت الدُّرْج تلو الآخر، وعثرت على علبة الواقي الذكريّ.

«لكنَّني كنت أعجبكَ...» رحت أُصرّ عليه مجدَّدًا.

ضرب جبينه بخفَّة بظاهر يده.

«نعم، في رأسي».

ضحكتُ بغضب، وقلت:

«يجب أن يُعجبك كلّ ما فيَّ، وجلست على قفصه الصدريّ مديرةً له ظهري. بدأت بمداعبة بطنه هابطةً رويدًا رويدًا باتِّجاه خطّ الشعر الأسود الذي كان ينتهي في مساحة غزيرة حول عضوه. كانت كارلا تضاجع الآن زوجي، وأنا كنت عاجزة عن مضاجعة هذا الرجل الوحيد، رجل بلا فرص، عازف مُحبَط. كان يُفترض أن أشكِّل بالنسبة له المفاجأة السعيدة لعيد ميلاده الثالث والخمسين. كانت تتحكَّم بقضيب ماريو كما لو كان ملكها، كانت تجعله يضعه في عانتها، في إستها حيث لم يكن قد ولجني أبدًا. أمَّا أنا، فقد تمكَّنت فقط من إخماد ذاك اللَّحم الرماديّ. أمسكت بعضوه، وأنزلت القُلفة لأتأكَّد من غياب أيّ جرح، ووضعته في فمي. بدأ كارانو بعد قليل يتأوَّه مطلقًا صيحةً قصيرة. سرعان ما انتفخ لحمه في حلقي، هذا ما كان يريده

الكلب، هذا ما كان يتوقَّعه! نبت قضيبه أخيرًا بقوَّة من بطنه، قضيبٌ جاهز لِولُوجي إلى أن أشعر لأيَّام بألم في بطني، كما لم يلجني يومًا ماريو. مع النساء الحقيقيَّات، كانَ يسقط بيد زوجي: كان يغامر فقط مع العويهرات العشرينيَّات، المحرومات من الذكاء، والخبرة، والكلمات الهازئة.

كانت ملامح كارانو تتقلَّص الآن، كان يطلب منِّي أن أنتظر، انتظري، انتظري. تراجعت إلى أن ضغطتُ على فمه، تركت عضوه واستدرتُ ملقيةً عليه نظرةً أردتها محتقرة ما أمكنني ذلك، قائلة «قبِّلها» فقبَّلني بِوَلَه. سمعت فرقعة القبلة على العانة، يا للحمار الغبيّ! لغة الاستعارات التي كنت أستخدمها مع ماريو لم تكن لغته بالتأكيد، كان يُسيء الفهم، لم يكن يُدرك ما كنت آمره به بالضبط. من يدري إذا ما كانت كارلا تعرف شفرة إيحاءات زوجي، من يدري! مزَّقت بأسناني غلاف الواقي، وألبسته لقضيبه. هيَّا، قلت له، كان إستي يعجبك، هيَّا مزِّق عذريَّتي، لم أفعل ذلك يومًا مع زوجي، أودّ أن أروي له ذلك بأدقِّ تفاصيله، ضعه في إستي.

انتشل الموسيقيّ نفسه بصعوبة من أسفلي فيما بقيت مقرفصة. كنت أضحك في سرِّي. لم أكن أتمالك نفسي وأنا أتصوَّر وجه ماريو عندما سأروي له ذلك. لم أتوقَّف عن الضحك إلَّا عندما شعرت بكارانو يضغط بقوَّة على جسدي. شعرت فجأةً بالخوف، حبست أنفاسي. وضعيَّة الدابَّة، سوائل حيوانيَّة وغدر بشريّ محض. استدرت لأنظر إليه، وربَّما لأرجوه ألَّا يمتثل لأوامري، ليتخلَّى عن الفكرة. تقاطعت نظراتنا. لستُ أدري ما رأى هو! أمَّا

أنا، فرأيت رجلًا لم يعد فتيًّا وقد فكّ برنسه الأبيض، ووجهه يلتمع بالعرق، وشفتاه مزمومتان تركيزًا. همست له بكلام لم أعد أذكره. فترت شفتاه، وفغر فاه، وأغمض عينيْه. ومن ثم ارتخى ورائي. استندتُ إلى جانبي. رأيتُ بقعة المنيّ البيضاء تتّسع عند حاجب الواقي الذكري.

«لا بأس»، قلت وقد انفجرت ضحكةٌ حادَّة في حلقي، ونزعت تلك القطعة المطّاطيَّة عن عضوه المرتخي، رميتها ملوِّثة الأرض بأثرها اللزج المصفرّ، «أخطأت الهدف».

ارتديت ثيابي، وتوجَّهت إلى الباب. تبعني لافًّا البرنس حوله. كنت أشعر بالتقزُّز من نفسي. همست قبل أن أرحل:

«الذنب ذنبي، عفوًا».

«لا أبدًا، أنا الذي...».

هززت رأسي، وافتعلت ابتسامةَ إرضاءٍ زائفة.

«لقد وضعت إستي أمامك على ذاك النحو، لا شكّ في أنَّ عشيقة ماريو لا تفعل ذلك».

صعدت الدرج ببطء. في إحدى الزوايا، بالقرب من الحاجز الحديديّ، رأيت مسكينة الزمن الغابر مقعيَّة، قبل أن تقول لي بنبرةٍ خامدة إنَّما جدِّيَّة جدًّا: «أنا نظيفة، أنا لعبة حقيقيَّة بأوراق مكشوفة».

أمام الباب المصفَّح، أخطأت مرارًا ترتيب المفتاحيْن، وكدت ألّا أتمكّن من فتح الباب. عندما دخلت، أضعت مزيدًا من الوقت لإقفاله. ركض أوتو نحوي محتفيًا بي. لم أعره

اهتمامًا، وذهبت لأستحمّ. كنت أستحقّ كلّ ما حدث لي، حتى تلك الكلمات المشينة التي كنت أشتم بها نفسي في ذهني وأنا متجمِّدة تحت رذاذ الماء. نجحتُ في التهدئة من رَوْعي فقط وأنا أقول بصوتٍ عالٍ: «أحبّ زوجي، لذا كلّ هذا له معنى». نظرت إلى الساعة، كانت الثانية وعشر دقائق فجرًا، أويت إلى الفراش وأطفأت النور، غفوت فورًا على عكس ما كنت أتوقّع. غرقت في النوم، وتلك الجملة تضجّ في رأسي.

18

عندما فتحت عينيَّ مجدَّدًا، بعد خمس ساعات ـ عند السابعة صباحًا يوم السبت في الرابع من أغسطس، أدركتُ أين أنا بصعوبة. كان أصعبَ يوم في قصَّة الهجْر تلك سيبدأ، إلَّا أنَّني لم أكن أعلم ذلك بعد.

مددتُ يدي باتِّجاه ماريو. كنت واثقةً أنَّه ينام إلى جانبي، لكنْ إلى جانبي لم أعثر على أيِّ شيء، لم أعثر حتى على وسادته، وأنا أيضًا لم أكن أنام على وسادة. بدا لي وكأنَّ السرير اتَّسع وقصُر في الوقت نفسه. ربَّما أصبحت أطول، قلت لنفسي، ربَّما زدت نحولًا!

شعرتُ بنفسي دائخةً كما لو كنت أُعاني من خَلَلٍ في الدورة الدمويَّة، وكانت أصابعي منتفخة. رأيت أنَّني لم أخلع خواتمي قبل أن أخلد إلى النوم، لم أكن قد وضعتها على المنضدة كما اعتدت أن أفعل. شعرتُ بخاتمي منغرزًا في لحم بنصري، احتقانٌ

تسبَّب بألم جسدي كلِّه، كما بدا لي. بحركاتٍ حذرة، حاولت أن أخلعه، بلَّلت إصبعي بلعابي، ولكنَّني لم أفلح في ذلك. شعرتُ بطعم الذهب في فمي.

حدَّقت إلى مساحةٍ غريبةٍ من السقف، كنت أرى أمامي جدارًا أبيض. لم تعد خزانة الحائط الكبيرة التي أراها قبالتي كلّ صباح في مكانها. شعرت بقدميَّ تُطلَّان على الفراغ. كانت حواسِّي مُحاصرة، وبين طبلتَي أذنيّ والعالم، بين رؤوس أصابعي والشرشف، كان هناك قطنٌ، ولبدٌ، ومخمل.

حاولت استجماع قواي، رفعت نفسي مستندةً إلى كوعيَّ بحذر لئلَّا أمزِّق السرير والغرفة بحركتي تلك، ولئلَّا أمزِّق نفسي كورقة أُلصقت إلى زجاجة. أدركت بصعوبة أنَّ نومي كان مضطربًا على الأرجح، وأنَّني غادرت زاويتي المعهودة، وأنَّني بجسدي الغائب زحفت وتقلَّبت على الشراشف المبتلَّة بالعرق. لم يكن ذلك قد حدث لي أبدًا، فقد اعتدت النوم متكوِّرة إلى جانبي من غير أن أغيِّر وضعيَّتي. ولكنَّني لم أجد أيّ تفسير آخر، كانت الوسادتان إلى جانبي الأيمن، والخزانة إلى جانبي الأيسر. سقطتُ منهكةً على الشراشف.

في تلك اللحظة، قُرع الباب. كانت تلك إيلاريا، دخلت كالنائمة وفستانها مجعَّد، وقالت:

«جاني تقيَّأ على سريري».

نظرت إليها موارَبةً، بخمول، من غير أن أرفع رأسي. تصوَّرتها مُسنَّة، وملامحها قد تشوَّهت، تشرف على الموت أو ماتت فعلًا. ومع ذلك، قطعةً منِّي ظهرت الطفلة التي كنتها،

والتي كنت لأكونها. لماذا «كنت لأكونها»؟ عَبَرَتْ صورٌ سريعة وشاحبة رأسي، جُمَلٌ كاملة لُفظت على عجل، وشْوَشةٌ. أدركت أنَّني أُخطئ تصريف الأفعال بسبب استيقاظي الفوضويّ ذاك. تبادر إلى ذهني أنّ الزمن نفَس، اليوم دوري، وبعد برهة سيحين دور ابنتي.. حدث ذلك لأمِّي، ولكلِّ من سلفني، وربَّما ما يزال ذلك يحدث لهنَّ ولي في وقت واحد. سيحدث.

قرَّرت النهوض، إلَّا أنَّه بدا وكأنّ الأمر قد عُلِّق: «انهضي»، بقيت نيَّةً تحوم خاملةً في رأسي. كنت طفلة، ومن ثم أصبحت فتاة. كنت أنتظر رجلًا، والآن كنت قد فقدت زوجي، وسأكون تعيسةً حتى لحظة مماتي، لقد مصصت ليلًا قضيب كارانو ليأسي، لأمحو إهانة العانة، يا للكبرياء المهدور!

«إنِّي قادمة»، قلت لها من غير أن أتحرَّك.

«لماذا نمت في هذه الوضعيَّة؟»

«لست أدري».

«جاني وضع فمه على وسادتي».

«ما الخطب في ذلك؟»

«لوَّث سريري والوسادة أيضًا. عليكِ أن تصفعيه».

انتشلت نفسي بقوَّة الإرادة، رفعت ثقلًا لم تكن قواي تسمح لي برفعه. كنت عاجزة عن التصديق أنَّني كنت أنا ذاك الثقل، فكنت أثقل من الرصاص، ولم أكن أرغب في حمل نفسي طيلة اليوم. تثاءبت، أدرت رأسي إلى اليمين، ومن ثم إلى اليسار، وحاولت مجدَّدًا خلع الخواتم، إنَّما عبثًا.

«إذا ما لم تعاقبيه سأقرصك» قالت لي إيلاريا مهدِّدة.

توجَّهت إلى غرفة الولديْن بحركات بطيئة مدروسة، تسبقني ابنتي التي عيل صبرها. نبح أوتو، وزمجر، وشعرت به يخرمش الباب الذي يفصل غرف النوم عن غرفة الجلوس. كان جاني مستلقيًا على سرير إيلاريا في كامل ثيابه كما رأيته الليلة الماضية، لكنَّه كان متعرِّقًا، وشاحبًا، وكانت عيناه مغمضتيْن على الرَّغم من أنَّه كان مستيقظًا. كان الغطاء الخفيف مبقَّعًا، وقد غطَّت الأرض بقعةٌ ضاربة للصفرة.

لم أقل شيئًا للطفل، لم أشعر بأيِّ داعٍ لذلك. توجَّهت إلى الحمَّام، بصقت في المغسلة، وشطفت فمي. تناولت ممسحةً مختارةً لذلك بحركة هادئة، إلَّا أنَّ تلك الحركة أيضًا بدت لي سريعةً للغاية، وبدا لي أنَّه، وعلى عكس إرادتي، كانت الحركة تجعل عينيَّ تتقلَّصان، وتدفعهما إلى هذا الجانب وذاك على نحوٍ مضطرب في تقلُّص إجباريّ لنظرتي التي تكاد تحرِّك الجدران، والمرآة، والأثاث، وكلّ شيء.

تنهَّدت تنهيدةً قادرة على تجميد بؤبؤيَّ على الممسحة، والتخفيف من هلعي. عدت إلى غرفة الطفليْن، جلست القرفصاء لأنظّف الأرض. ذكَّرتني رائحة القيء الحامضة بزمن الرضاعة، وطعام الأطفال، والقيء المفاجئ. وفيما كنتُ أمحو عن الأرض بحركاتٍ بطيئة آثار وعكة ابني، كنت أفكِّر بامرأة نابولي تلك مع أبنائها الشاكين الذين كانت تُسكتهم بحبَّات البون بون. كانت تلك الزوجة المهجورة قد بدأت بعد فترة بتحميلهم المسؤوليَّة. كانت تقول إنَّهم خلَّفوا فيها رائحة الأمّ، وإنَّ ذلك ما قضى عليها، وإنَّ

الذنب ذنبهم في رحيل زوجها. يبدأون بنفخ بطنك، ومن ثم يثقلون حلمتيْكِ، وبعدها يعيل صبرهم. أذكر كلماتٍ مشابهة. كانت أمّي تردِّد الكلمات تلك بصوتٍ خفيض لئلّا أسمعها، تردِّدها بجدِّيَّة موافقةً عليها. لكنَّني كنت أسمعها، حتى الآن، كما لو كنت أتمتَّع بحاسَّة سمْعٍ مضاعفة. كنت طفلة الأمس التي تلعب تحت الطاولة، وتسرق الخرز اللامع الذي أضعه في فمي وأمصّه، وكنت المرأة البالغة في ذاك الصباح، هناك بالقرب من سرير إيلاريا، أنفِّذ آليًّا مهمَّة بائسة ومع ذلك حسَّاسة إزاء صوت الممسحة اللزجة التي تزحف على الأرض. كيف كان ماريو؟ حنونًا يبدو لي، لا تظهر عليه علامات ضيق أو انزعاج جليَّة إزاء حَمْلي. لا بل عندما كنت حاملًا كان يريد أن يمارس معي الحبّ أكثر، وأنا أيضًا كنت مقبلة أكثر. أنظِّف الآن وأنا أعدّ في ذهني أرقامًا بدون أدنى انفعال. كان عمر إيلاريا سنة ونصف السنة عندما ظهرت كارلا في حياتنا، وكان جاني لم يبلغ الخامسة بعد. كنت قد انقطعت عن العمل، أيّ عمل، حتى الكتابة، وذلك منذ خمس سنوات على الأقلّ. كنت أسكن مدينةً جديدة، كانت كذلك آنذاك، ولم يكن لديَّ من أقارب يعينونني، ولكنَّني ما كنت لأطلب منهم ذلك على أيّ حال، لم أكن من الذين يطلبون المساعدة. كنت أتسوَّق، وأطبخ، وأرتِّب البيت منهكةً يائسة. كنت أهتمّ بكلّ الاستحقاقات، وأُعنى بالتصريح عن المداخيل، وأهرع إلى المصرف، وإلى البريد. كنت أدوِّن، مساء، في دفاتري مدخولنا ومصروفنا، كلّ ما أنفقه في أدقّ تفاصيله كما لو كنت محاسبًا يُسائله صاحب الشركة. كنت أدوِّن أيضًا، بشكلٍ

متقطِّع بين الأرقام ما يختلج داخلي: عَلَقُ طعام يمضغه إبناي على نحوٍ مستمرٍّ، لقمة موادّ حيَّة كانت تُمزج، وتطرِّي طبيعتها الحيَّة دائمًا، لتُتيح لعلقتَيْن كاسرتيْن أن تتغذَّيا مخلِّفتيْن عليها روائح عصائرهما المعويَّة. الرضاعة، يا للقرف! وظيفة حيوانيَّة، زِدْ على ذلك النَفَس الفاتر والسكَّري لطعام الأطفال. على الرَّغم من اغتسالي، لم أكن أفلح في إزالة رائحة الأمّ تلك عنِّي. كان ماريو يلتصق أحيانًا بي، كان يأخذني عاصرًا إيَّاي وأنا شبه نائمة، وهو تعب أيضًا، من غير عواطف. كان يقوم بذلك متكالبًا على لحمي شبه الغائب، والذي تفوح منه رائحة الحليب والبسكويت، والسميد، حاملًا يأسه الشخصيّ الذي يحاكي يأسي من غير أن يدري. كنت جسد المحارم، كما تبادر إلى ذهني، وقد آلمني دُوارٌ من رائحة قيء جاني، كنت أمًّا تُغتصب وليس عشيقة. ومذّاك، كان يبحث عن وجوهٍ تليق أكثر بالحبِّ، فارًّا من الإحساس بالذنب، فيداهمه الشجن ويتنهَّد. كارلا دخلت البيت في الوقت المناسب، ملهاة رغبة لم تتحقَّق. كانت تكبر إيلاريا بثلاثة عشر عامًا، وتكبر جاني بعشر سنوات، وتكبرني بسبع سنوات عندما كنت في العمر الذي أستمع فيه إلى أمِّي التي تتكلَّم على امرأة ساحة ماتزيني المسكينة. ربَّما ظنَّها ماريو المستقبل، فيما كان يرغب بالماضي، زمن الصِّبا الذي كنت قد وهبته إيَّاه أنا، والذي كان يحنّ إليه الآن. ربَّما خالت هي نفسها أنَّها ستهبُ له المستقبل، وشجَّعته لتصديق ذلك. ولكنَّنا كنَّا جميعًا مشوَّشين، وأنا في طليعة الجميع. كنت أنتظر، وأنا أُعنى بابنيْ ماريو، زمنًا لم يكن يأتي أبدًا، زمنًا أعود فيه إلى ما كنت عليه

قبل الحَمْل، شابَّةً، نحيلة، حيويَّة، ومقتنعة بصلافة أنَّني أستطيع أن أحوِّل نفسي إلى شخصيَّةٍ ما لا تُنسى. لا، خطر لي وأنا أعصر الممسحة وأنهض بصعوبة: المستقبل بدءًا من نقطةٍ ما يمسي مجرَّد الحاجة لعيش الماضي مجدَّدًا. عليَّ تعلُّم تصريف الأفعال من جديد.

19

«يا للقرف!» قالت إيلاريا، وتراجعت باشمئزاز وأنا أمرُّ أمامها حاملة الممسحة لأشطفها في الحمَّام. فكَّرت إن بدأتُ بتصريف شؤون المنزل الاعتياديَّة فسأشعر بالتحسُّن. الغسيل، وفصل الثياب البيضاء عن الثياب الملوَّنة، وتشغيل الغسَّالة. كان عليَّ فقط أن أهدِّئ الرؤية من الداخل، الأفكار. كانت تمتزج، وتتقاطع أشلاء كلماتٍ وصُوَر، تطنّ بسرعةٍ كسرب زنابير، كانت تُعطي حركاتي قدرةً بشعة على الأذى. شطفت الممسحة بعناية، مرَّرت بعدها الصابون على خواتمي، وخاتم الزواج من الزمرَّد الريحانيّ الذي كان لأمِّي من قبلي. شيئًا فشيئًا، استطعت إخراجها، إلَّا أنَّ ذلك لم يرحني. بقي الجسد محتقنًا، ولم تُحلّ عقد الأوردة. وضعت الخواتم بحركة آليَّة على طرف المغسلة.

عندما عدت إلى غرفة الولديْن، انحنيتُ شاردةً على جاني ضاغطةً شفتيَّ إلى جبينه. تأوَّه وقال:

«رأسي يؤلمني كثيرًا».

«إنهض» أمرته من غير تعاطف. أمَّا هو، وهو يُحدِّق إليَّ مندهشًا لقلَّة اهتمامي بآلامه، فقد نهض بصعوبة. نزعت الشراشف عن السرير بهدوءٍ مصطنع، ورتَّبته. وضعت الشراشف وأغطية الوسادات في سلِّ الغسيل. عندها فقط، تذكَّرت أن أقول له:

«اخلد إلى سريرك، سأحضر لك المحرار».

أصرَّت إيلاريا قائلة:

«عليكِ أن تصفعيه».

نظرًا لأنَّني رحت أبحث عن المحرار من غير أن ألبِّي طلبها، عاقبتني غدرًا بقرصةٍ وهي تراقبني بانتباه، لتتبيَّن إذا ما كنت أتألَّم.

لم يصدر عنِّي أيّ ردّ فعل، ما همَّني، لم أكن أشعر بأيِّ شيء. ثابرت على ذلك وقد احمرّ وجهها لفرط الجهد والتركيز. عندما عثرت على المحرار، دفعتها بحركةٍ خفيفةٍ من كوعي، وعدت إلى جاني. وضعت المحرار تحت إبطه.

«اضغط عليه» قلت له، وأشرت إلى الساعة المعلَّقة إلى الجدار. «انزعه بعد عشر دقائق».

«وضعتِه بالاتّجاه الخطأ» قالت إيلاريا باستفزاز.

لم أعرها اهتمامي، غير أنَّ جاني تفقَّد المحرار، وبنظرة عتب، أشار إلى أنَّني وضعت تحت إبطه الجانب الخالي من الزئبق. انتباه: الانتباه وحده يمكن أن يساعدني. وضعتِه على نحوٍ صحيح، أعربت إيلاريا عن رضاها، وقالت: أنا من انتبه

إليه. هززت رأسي موافقة. حسنًا، لقد أخطأت. تساءلت لماذا عليَّ أن أقوم بألف مهمَّة معًا! منذ حوالى عشر سنوات تجبراني على العيش هكذا، وأنا على كلِّ حال لم أستيقظ تمامًا، لم أشرب القهوة، لم أتناول حتى الفطور.

كنتُ أريد تجهيز إبريق القهوة ووضعه على النار، كنت أريد تسخين الحليب لإيلاريا، كنت أريد غسل الثياب. غير أنِّي عاودت، على حين غرَّة، سماع نباح أوتو. لم يتوقَّف عن النباح أبدًا، وكان يخرمش الباب. كنت قد أقصيته عن طبلتَيْ أذنيَّ لأركِّز على وضع ابني، ولكنْ بدا وكأنَّ الكلب لم يعد يصدر أصواتًا الآن، بل شحنات صدمات كهربائيَّة.

قلت صارخة: «ها إنِّي آتية».

تذكَّرت أنَّني لم أنزِّهه الليلة الماضية، كنت قد نسيت ذلك. ولا شكَّ في أنَّ الكلب زمجر طيلة الليل وقد جُنَّ الآن، فكان يريد قضاء حاجته. أنا أيضًا، كنت كيسًا من اللَّحم الحيّ المليء بالقاذورات، وكانت مثانتي تؤلمني وبطني يوجعني. كنت أفكِّر بذلك بدون أدنى تعاطف مع نفسي، كما لو كانت ملاحظةً شديدة البرود. كانت الأصوات الفوضويَّة في رأسي تسدِّد إلى الكيس الذي كنته ضرباتٍ حاسمة: لقد تقيَّأ، رأسي يؤلمني، أين المحرار، عوْ، عوْ، عوْ، تحرَّكي.

«سأصطحب الكلب في نزهة»، قلت لنفسي بصوتٍ عالٍ.

وضعت الرسن حول عنق أوتو، أدرت المفتاح ونزعته بشيء من الصعوبة من القفل. عند نزولي الدرج، انتبهت إلى أنَّني ما أزال أرتدي قميص النوم، وأنتعل خفَّيَّ. فطنت إلى ذلك وأنا أمرُّ

أمام باب كارانو. ارتسمت على وجهي ضحكةٌ مشمئزَّة، لا شكَّ في أنَّه كان غارقًا في النوم بعد الليلة الصاخبة تلك! ما همَّني منه. رآني بثوبي الحقيقيّ، جسد امرأة قاربت الأربعين، كانت علاقتنا حميمة. أمَّا الجيران الآخرون، فكانوا مصطافين منذ فترة، أو كانوا قد رحلوا عصر الجمعة لقضاء نهاية الأسبوع في الجبل. ونحن الثلاثة أيضًا، كنَّا لنكون منذ شهر على الأقلِّ في مصيفٍ ما على البحر كحالنا كلّ سنة لو لم يرحل ماريو، ذاك القوَّاد. المبنى مقفر، هكذا هو أغسطس. خطر لي أن أرسم على وجهي تعابير هازئة أمام كلّ باب، مادَّةً لساني، ومردِّدةً ترنيماتٍ ساخرة. كنت أزدريهم. عائلات هانئة، ومال وفير من المهن الحرَّة، يُسْرٌ مبنيٌّ على خدماتٍ يُفترض أن تكون مجَّانيَّة. تمامًا كماريو الذي كان يجعلنا نحيا حياة ميسورة بائعًا أفكارًا، وذكاءه بنبرة صوته المقنِّعة كما عندما يُلقي درسًا. صرخت بي إيلاريا من فُسحة الدرج:

«لا أريد البقاء مع رائحة القيْء النتنة».

وبما أنَّني لم أُجبها، دخلتْ إلى البيت وسمعتُ الباب يُصفق بقوَّة. يا ربِّي، إذا ما كان هناك من يشدُّني من جهة لا يُمكن أن أُشدّ من الجهة الأخرى، فما هو هنا ليس هناك. بالفعل، كان أوتو يلهث ويجرّني بسرعة طابقًا تلو طابق، فيما كنت أحاول إيقافه. لم أكن أريد أن أركض، فإذا ما ركضت انكسرت، فكلّ درجةٍ كنت أخلِّفها ورائي كانت تتبدَّد في الحال حتى في ذاكرتي، وحاجز الدرج والجدار الأصفر كانا يسيلان إلى جانبي كشلَّال. كنت أرى فقط درابزين الدرج بحدوده الواضحة، وكنت أشعر

خلفي بأثرٍ غازيٍّ كما لو كنت مذنبًا. يا لليوم القبيح! يوم حارٌّ جدًّا، مع أنَّ الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا، ولا أثر لسيَّارة مركونة باستثناء سيَّارة كارانو وسيَّارتي. ربَّما كنت تعبة جدًّا لأتمكَّن من الحفاظ على العالم وفق ترتيبه الاعتياديّ. كان حريًّا بي ألَّا أخرج. ماذا فعلت؟ هل وضعت الإبريق على النار؟ هل وضعت القهوة، هل ملأته بالماء؟ هل أقفلته جيِّدًا لئلَّا ينفجر؟ وماذا عن حليب الطفلة؟ هل كانت تلك أفعالًا قمت بها أم فكَّرت بالقيام بها؟ فتح البرَّاد، وإخراج علبة الحليب، وإقفال البرَّاد، وملء وعاء التسخين، عدم ترك العلبة على الطاولة، إعادتها إلى البرَّاد، إشعال الغاز، وضع الوعاء على النار.. هل أدَّيت هذه المهامّ كافَّة على وجهٍ صحيح؟

جذبني أوتو نزولًا باتِّجاه الطريق، وداخل النفق المليء بالكتابات المشينة. كانت الحديقة العامَّة مقفرة، وبدا النهر من البلاستيك الأزرق، وكانت تلال الضفَّة الأخرى خضراءَ شاحبة، ولا ضجيج سيَّارات، لم أكن أسمع سوى زقزقة العصافير. إذا ما تركت القهوة على النار، والحليب، لكان كلّ شيء قد احترق. الحليب وهو يرتفع كان ليفور من الوعاء ويطفئ الشرارة، وكان الغاز لينتشر في البيت. ها هو هَوَسي بالغاز من جديد. لم أكن قد فتحت النوافذ، أو ربَّما فتحتها آليًّا بدون تفكير! حركات معتادة تُنفَّذ في الرأس حتى عندما لا تتحقَّق، أو تُنفَّذ في الواقع حتى بعد أن يتوقَّف الرأس، لفرط العادة، عن تسجيلها.

رحت أعدِّد الاحتمالات المستهجنة شاردةً. كان يُستحسن أن أقفل باب الحمَّام عليَّ، كان بطني متشنِّجًا تنخره وخزات مبرِّحة.

كانت الشمس ترسم بدقّةٍ أوراقَ الأشجار، حتى إبر أشجار الصنوبر، في جهدٍ مهووسٍ للضوء. كنت أستطيع أن أعدّ الأوراق ورقة ورقة. لا، لم أضع القهوة أو الحليب على النار. أنا واثقة من ذلك الآن. عليَّ بالحفاظ على هذا اليقين. إهدأ أوتو.

كنت مدفوعةً باحتياجات الكلب الذي أجبرني على الجرْي وراءه، واحتياجاتي تضغط على بطني. كان الرسن يحزّ باطن يدي، شددته بشراسة، وانحنيتُ لأطلقَ سراحه. جرى بعيدًا كالحياة الصافية، كتلةً قاتمة ملأى بالاحتياجات. روى الأشجار، وشخَّ على العشب، ولاحق الفراشات، وضاع في حُرج الصنوبر. من يدري متى فقدتُ تلك الشحنة العنيدة من الحيويَّة الحيوانيَّة، ربَّما في أثناء مراهقتي. وها أنا أتوحَّش مجدَّدًا. نظرت إلى رسغي، وإبطيَّ، منذ متى لا أنتف وبرها، منذ متى لا أحلقها؟ أنا التي كانت تفوح منِّي حتى أربعة أشهر خلت رائحةُ المسك والعنبر. مذ أُغرمت بماريو، رحتُ أخشى أن يقرف منِّي. كنت أغسل جسدي، وأُعطِّره، وأمحو كافَّة الآثار الفيزيولوجيَّة المقيتة، وأنعِّمه. كنت أريد الانفصال عن الأرض، أريده أن يراني أرتفع إلى الأعلى ككلِّ الطيِّبات. لم أكن أخرج من الحمَّام ما لم تتبدَّد الرائحة البشعة، وكنت أفتح صنابير المياه لئلَّا يسمع خرير البول. كنت أحفّ نفسي، وألمِّعها، وأغسل شعري كلّ يومين. كنت أفكِّر بالجمال باعتباره جهدًا مستمرًّا لإلغاء الجسد. كنت أريد أن يحبّ جسدي ناسيًا ما يُعرف عن الأجساد. فالجمال، كما كنت أظنُّ بقلق، هو هذا النسيان. أو ربَّما لا. كنت أنا من يظنّ أنَّ حبَّه يحتاج هَوَسي ذاك. كنت خارج السياق، متخلِّفة. الذنب

ذنب أمِّي التي ربَّتني على العناية الأنثويَّة المفرطة. شعرت بالقرف، أو بالدهشة، أو بالتسلية ربَّما، وأنا أسمع المرأة الشابَّة التي لم تكن تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، والتي تشاركتُ معها طويلًا غرفةً واحدةً عندما كنت أعمل في شركة طيران، تضرط في إحدى الصبيحات بلا أيِّ حرج، لا بل وجَّهت إليَّ بعينيْن فرحتيْن شبه ابتسامة تواطؤ. باتت الفتيات الآن يتجشَّأْن علنًا، لا بل أذكر الآن أنَّ هذا ما كانت تفعله إحدى رفيقاتي في المدرسة، وعمرها سبعة عشر عامًا، أي أصغر بثلاث سنوات من كارلا. كانت تريد أن تصبح راقصة باليه، وكانت تقضي وقتها في الوقوف في وضعيَّات راقصة. كانت بارعة. وخلال الفسحة، كانت تدور على نفسها بخفَّة في الصفِّ متجنِّبةً بدقَّة المقاعد. ومن ثم، ولتصدمنا، أو لتشوِّه صورةَ الأناقة التي كانت تنطبع في عيون الذكور المذهولة، كانت تُصدر من جسدها أصواتًا كما تيسَّر، من حلقها أو من مؤخّرتها. شراسة الإناث، كنت أشعر بها منذ استيقاظي في جسدي. شعرت فجأةً بالقلق من أن أسيل كالقيْء، تملَّكني القلق في معدتي، جلست إلى مقعدٍ حابسةً أنفاسي. كان أوتو قد اختفى، ربَّما لم يكن ينوي العودة. صفَّرت كما اتَّفق، كان مقعيًّا بين أشجارٍ لا اسم لها، بدت لي أشجارًا في رسمٍ مائيٍّ لا في الواقع. كانت إلى جانبي، وخلفي. أهي أشجار حَوْر؟ أو أرز؟ أو سنط؟ أو روبينيَّة؟ أسماء لا طائل منها، ما أدراني! كنت أجهل كلَّ شيء، حتى أسماء الأشجار أسفل بيتي. بدت لي الجذوع كلُّها تحت مجهر. لم تكن هناك من مسافةٍ بيني وبينها، غير أنَّ القاعدة تنصّ أنَّه ـ ولنروِ ـ نحتاج

مقياسًا، روزنامة، لنحسب الوقت الذي انقضى، والمساحة التي تفصلنا عن الأحداث، والانفعالات التي سنرويها. أمَّا أنا، فكنت أشعر بكلِّ شيءٍ عليّ، النفس على النفس. حتى في تلك المناسبة، بدا لي أنَّني لا أرتدي قميص النوم لا بل معطفًا طويلًا رُسمت عليه نباتات تلَّة ڤالنتينو، والشوارع، وجسر الأميرة إيزابيلَّا، والنهر، والمبنى الذي أقطنه، والكلب. لذلك، كنت ثقيلةً ومنتفخة. نهضتُ مهمهمةً من الإحراج، وألم البطن، وقد امتلأت مثانتي، لم أعد أتمالك نفسي. سرت في خطٍّ متعرِّج شادَّةً على مفتاح البيت، ضاربةً الأرض بالرسغ. لا لم أكن أعرف شيئًا عن الأشجار. شجرة حوْر؟ أرزة من لبنان؟ شجرة صنوبر من حلب؟ ما الفرق بين السنط والروبينيَّة؟ خداع الكلمات، كلّ شيء خدعة، قد تكون أرض الميعاد بدون كلمات لتجميل الأحداث. كنت أبتسم هازئةً، محتقرةً نفسي، رافعةً قميص نومي، ومقرفصةً، بلت وشخخت وراء جذع. تعبت، تعبت، تعبت.

صحت بذلك، إلَّا أنَّ الأصوات سرعان ما تموت، تبدو حيَّةً في أسفل الحلق، إلَّا أنَّها ما إن تُلفظ حتى تُمسي أصواتًا مطفأة. سمعت إيلاريا تُناديني من مكانٍ قصيّ، ووصلتني كلماتها خافتة.

«ماما عودي، ماما».

كانت كلمات كائنٍ صغير مضطرب. لم أكن أراها، لكنَّني كنت أتصوَّر أنَّها تلفظ تلك الكلمات ممسكةً بدرابزين الشرفة. كنت أعلم أنَّ تلك المساحة الطويلة والمتَّسعة المطلَّة على الفراغ تُخيفها، لا شكّ في أنَّها كانت بحاجةٍ لي لتخرج إلى الشرفة.

ربَّما كان الحليب يحترق فعلًا على النار. ربَّما انفجر الإبريق، ربَّما كان الغاز ينتشر في البيت. ولكنْ لِمَ قد أهرع؟ اكتشفت بأسف أنَّه حتى لو كانت الطفلة بحاجةٍ لي، فأنا لم أكن أشعر بأيِّ حاجة إليها. وماريو كذلك. لذا، ذهب ليعيش مع كارلا. لم يكن يحتاج إيلاريا، وجاني. الرغبة كلمة قاطعة، أو ربَّما هي قاطعة فحسب. كانت رغبته أن يجري بعيدًا عنَّا فقط على مساحةٍ لامتناهية. ورغبتي أنا الآن تبدو لي أن أوغل في العمق، أن أستسلم، أن أغرق صمَّاء وخرساء في أوردتي، في أمعائي، في مثانتي. انتبهتُ إلى أنَّني أتصبَّب عرقًا باردًا، طبقةً جليديَّة تغطِّيني حتى لو أنَّ الصباح كان حارًّا. ماذا يحدث لي؟ كان يستحيل عليَّ أن أجد درب البيت.

إلَّا أنَّ شيئًا لامس رسغي ورطَّبه. رأيت أوتو قربي وأذناه منتصبتان، ولسانه متدلٍّ، وفي عينيْه نظرةُ ذئبٍ طيِّب. نهضتُ، حاولت مرارًا أن أضع له الرسن عبثًا، على الرَّغم من أنَّه وقف جامدًا وهو يلهث لُهاثًا خفيفًا وقد تخلَّى عن نظرته المعهودة، ربَّما كان حزينًا. أخيرًا، وقد بذلت جهدًا في التركيز، قيَّدتُ عنقه. إذهب، إذهب، قلت له. بدا لي أنَّه إذا ما سرتُ خلفه ممسكةً بالرَّسن لشعرت بالهواء الحارّ على وجهي، والأرض تحت قدميَّ.

20

وصلت إلى المصعد كما لو كنت أسير على خيطٍ مشدودٍ بين حرج الصنوبر ومدخل المبنى. استندت إلى الجدار المعدنيّ فيما كانت المقصورة ترتفع ببطء، وحدَّقت بأوتو لأشكره. كان قد باعد بين قوائمه قليلًا، وهو يلهث، وقد سال خيطُ لعابٍ رفيع جدًّا من شدقيْه مبقّعًا أرض المصعد. توقَّف المصعد باندفاع.

وجدتُ إيلاريا أمام الباب، بدت لي مغتاظةً جدًّا، كما لو كانت أمِّي وقد عادت من مملكة الأموات لتذكِّرني بواجباتي.

«تقيَّأ من جديد»، قالت.

سبقتني إلى المنزل يتبعها أوتو الذي حرَّرته من رسنه. لا أثر لرائحة الحليب المحروق أو القهوة. تلكَّأت في إقفال الباب، ووضعت المفتاح آليًّا بالقفل، وأدرته مرَّتيْن. اعتادت اليد تلك الحركة التي تمنع أيًّا كان من الدخول إلى بيتي والعبث بأغراضي. كان عليَّ أن أحمي نفسي مِمَّن يبذل كلّ ما أوتي من جهدٍ ليُثقل

عليَّ بالواجبات، والذنوب، وليحول دون استئنافي الحياة. صعقني الشكّ في أنَّ ابنيَّ أيضًا كانا يريدان إقناعي بأنَّ جسديْهما يذبلان بسببي، لمجرَّد تنفُّسهما الهواء الذي أتنفَّسه. كان هذا الهدف من مرض جاني. كان يعرضه للعيان، وكانت إيلاريا تستعرضه أمامي بمتعة. تقيّأ مجدّدًا، ما همّ؟ لم تكن المرَّة الأولى ولن تكون الأخيرة. طالما عانى جاني من مشاكل في معدته مثل أبيه. كان الاثنان يُعانيان من دُوار البحر، ودُوار السيَّارة. وكانت تكفي جرعةُ ماءٍ باردة، أو قطعةُ حلوى مشبعة بالدهون ليشعُرا بالألم. من أدراني ما يأكله الصبيّ خفيةً، ليعقِّد حياتي، ليجعل يومي أصعب!

وجدت الغرفة مجدَّدًا في حالة فوضى. كانت الشراشف القذرة مطروحة الآن في إحدى الزوايا كغيمة، وكان جاني مستلقيًا من جديد على سرير إيلاريا. كانت الطفلة قد حلَّت محلّي. تصرَّفتْ كما كنت أتصرَّف عندما كنتُ صغيرةً مع أمِّي: حاولتْ أن تقوم بما كانت تراني أقوم به، كانت تلعب لعبة التخلُّص من سلطتي حالَّةً محلّي، كانت تريد أن تشغل موقعي. عادةً ما كنت سهلة المراس، أمَّا أمِّي فلم تكن كذلك أبدًا. كلَّما حاولت أن أقلِّدها كانت تؤنِّبني، كانت تقول إنَّني أخطأت. ربَّما كانت هي بالذات من يتصرَّف الآن من خلال الطفلة لتسحقني مثبِّتةً لي قصوري. شرحت لي إيلاريا، كما لو كانت تريد دعوتي للمشاركة في لعبةٍ تؤدِّي فيها دور الملكة، قائلةً:

«وضعت الشراشف القذرة هناك، وجعلته يستلقي على سريري. لم يتقيَّأ كثيرًا.. فعل فقط هكذا».

تظاهرتْ بالتقيُّؤ، وبصقتْ بعدها أكثر من مرَّة على الأرض.

اقتربتُ من جاني، كان يتصبَّب عَرَقًا، وينظر إليَّ بعداء.

«أين المحرار؟» سألته.

أخذته إيلاريا في الحال عن المنضدة، وناولته لي متظاهرةً بأنَّ في جعبتها معلوماتٍ لم تكن تملكها، فلم تكن تُحسن قراءة الحرارة.

«إنَّه محموم» قالت، «ولكنَّه لا يريد وضع التحميلة».

نظرت إلى المحرار، لم أتمكَّن من التركيز على الدرجة التي يُشير إليها خطّ الزئبق. لستُ أدري كم من الوقت انقضى وأنا أحمله في يدي محاوِلَةً بقلق أن أُعيد تدريب نظري على الرؤية. عليَّ الاهتمام بالطفل، كنت أكرِّر لنفسي. عليَّ أن أعرف درجة حرارته، لكنَّني كنت عاجزةً عن الانتباه. لا شكَّ في أنَّ شيئًا ما قد حدث لي ليلًا. أو ربَّما بلغت، بعد أشهرٍ من التوتُّر، شفير هاويةٍ ما، وأنا أسقط الآن كما في الأحلام، ببطء، على الرَّغم من أنَّني كنت ما أزال أضغط بيدي على المحرار، وعلى الرَّغم من أنَّني كنت أسند نعليْ خفّيَّ على الأرض، وعلى الرَّغم من أنَّني كنت أشعر بنظرات انتظار ابنيّ مسلَّطةً عليَّ. كفى.. كان عليَّ أن أقتلع الألم من ذاكرتي، كان عليَّ أن أمرِّر ورق الزجاج على الخرمشة التي كانت تُشوِّه دماغي. عليَّ أن أرفع الشراشف الوسخة الجديدة وأضعها في الغسَّالة، وأُديرها، وأقف محدِّقةً إلى نافذتها، وإلى الثياب وهي تدور، والماء والصابون.

«اثنتان وثلاثون درجة»، قال جاني هامسًا «ورأسي يؤلمني جدًّا».

«يجب أن يضع التحميلة»، قالت إيلاريا بإصرار.

«لن أضعها».

«سأصفعك إذًا»، قالت له الطفلةُ مهدِّدةً.

«لن تصفعيه»، قلت لها متدخِّلة.

«ولماذا تصفعينه أنتِ؟»

لم أكن أصفعهما، لم أصفعهما يومًا، هدَّدت أحيانًا بصفعهما كأقصى حدٍّ. ولكنْ ربَّما لا فرق لدى الأطفال بين التهديد وما يحدث بالفعل. أنا، على الأقلّ، أذكر ذلك الآن. كنت هكذا في صِغَري، وربَّما أيضًا عندما كبرت. ما كان ليحدث لي لو خرقتُ ممنوعًا فرضته عليَّ أمِّي. كان يحدث لي فعلًا بمعزل عن الخرق. كانت الكلمات تحقِّق المستقبل في الحال، وما يزال يلسعني جَرح العقاب حتى لو لم أعد أتذكَّر الذنب الذي اقترفته، أو كنت أودّ اقترافه. تذكَّرت جُملةً كانت تردِّدها أمِّي غالبًا. «توقَّفي وإلَّا قطعتُ يديْكِ»، كانت تقول لي ذلك إذا ما لمستُ عدَّة الخياطة. وكانت كلماتها تلك بالنسبة لي مقصًّا داخليًّا، طويلًا، من معدن صدئ يخرج من فمها، أنيابًا مشفَّرة تُطبق على معصميّ مخلِّفةً آثارًا تُخاط بالإبرة وخيط المكُّوك.

«لم أصفعكما يومًا».

«هذا ليس صحيحًا».

«أقصى ما قلته لكما إنَّني قد أصفعكما. الفرق كبير».

لكنَّني فكَّرت أن لا فرق على الإطلاق، وخفت وأنا أسمع تلك الفكرة تضجّ في رأسي. ماذا لو كنت أضعت القدرة على تحديد الفرق؟ ماذا لو أضعتها نهائيًّا؟ ماذا لو آل بي المطاف إلى

دفقٍ من الفيض يلغي الحدود، ما كان ليحدث في ذاك اليوم الحارّ؟

«عندما أقول صفعة، فعلًا»، شرحت ذلك بهدوء كما لو كنت أمام لجنةٍ فاحصة، وكنت أودّ أن أبلي حسنًا مُظهرةً تماسكي وعقلانيَّتي. «كلمة صفعة ليست هذه الصفعة».

ليس من باب إقناعهما بل لإقناع نفسي، صفعت نفسي بقوَّة. ابتسمت بعد ذلك، لا لأنَّ الصفعة بدت لي فجأةً مضحكة بحدِّ ذاتها، بل لأثبت أيضًا أنَّ عَرْضي كان فرِحًا، لا تهديد فيه. غير أنَّ ذلك كان بلا طائل. سارع جاني في ستر وجهه بالشرشف، فيما نظرتْ إليَّ إيلاريا مذهولةً وقد اغرورقت عيناها في الحال بالدموع.

«لقد أذيتِ نفسك ماما»، قالت متألِّمة «الدم يسيل من أنفك».

كان الدم يتساقط بالفعل قطراتٍ على قميص نومي ما أشعرني بالخجل.

شرقت بأنفي، وتوجَّهت إلى الحمَّام، وأقفلتُ الباب خلفي بالمفتاح لأمنع ابنتي من اللحاق بي. كفى، عليك التركيز، جاني محموم، افعلي أيَّ شيء. قطعت نزف الدم حاشرةً قطعةً من القطن في منخريَّ، ورحت أبحث بعصبيَّة بين الأدوية التي كنت قد رتَّبتها الليلة الماضية. كنت أُريد دواءً لخفض الحرارة، فيما كنت أفكِّر أنَّني بحاجةٍ لمهدِّئ، فحالتي يُرثى لها. عليَّ أن أهدأ، وكنت أشعر في الوقت نفسه أنَّ جاني، ذكرى جاني المحمومة في الغرفة الأخرى كانت تفرّ من بين يديَّ. كنتُ عاجزةً عن الحفاظ

على التماعة القلق على صحَّته. بات الطفلُ لا يعنيني، وكأنَّني أراه بطرف عيني فقط، كطيفٍ من البخار، كسحابةٍ تذوي.

رحت أبحث عن حبوبٍ أتناولها، لكنْ لم أجدها، أين وضعتها؟ على المغسلة الليلة الماضية، تذكَّرت ذلك فجأةً ـ يا للغباء! خطر لي أن أستحمّ بالماء الساخن لأسترخي، وقد أنزع الشعر الزائد. الاستحمام يبثّ الهدوء، وأنا أحتاج ثقل الماء على جلدي. إنّي أضيع، وإذا لم أستعد رباطةَ جأشي فما قد يحدث للطفليْن؟

لم أكن أُريد أن تلمسهما كارلا ولو لمس اليد، اقشعرَّ بدني متقزِّزًا من مجرَّد الفكرة. فتاة تهتمّ بابنيَّ، فتاة لمَّا تخرج من طور المراهقة تمامًا، ويداها ملوَّثتان ببذرة عشيقها، البذرة نفسها التي تسيل في دم الطفليْن. عليّ إذًا ألَّا أجعلهما يقتربان، هي وماريو. عليَّ بالاكتفاء الذاتيّ، يجب ألَّا أقبل بأيِّ شيءٍ منهما. بدأتُ بملء المغطس ماءً، سمعت صوت سقوط القطرات على قعر المغطس، وسحرتني خرخرةُ الحنفيَّة.

لكنَّني لم أعد أسمع خرير المياه، راح يختفي الآن في المرآة إلى جانبي. كنت أرى نفسي، أرى نفسي بوضوح لا يُحتمل، الشعر المشعَّث، والعينيْن غير المبرَّجتيْن، والأنف الذي تورَّم من قطعة القطن المدمَّاة، والوجه كلّه وقد ارتسمت عليه علامات التركيز، وقميص النوم القصير المبقَّع. أردت معالجة ما أراه. بدأت بتنظيف وجهي بأسطوانة من القطن، كنت أرغب في أن أستعيد جمالي، وأشعر برغبةٍ ملحَّةٍ لذلك. الجمال يهدِّئ النفس، وسيُسعد ذلك الولديْن.. جاني كان ليفرح ويتماثل للشفاء،

وحالي كان ليتحسَّن. وضعتُ مزيلًا ناعمًا لكحل العينيْن، وحليبًا مرطِّبًا، وسائلًا منعشًا بدون كحول، أزيلي المساحيق، تلوَّني، ضعي المساحيق. ما الوجه بلا ألوان؟ الألوان تستر، لا شيء يُخفي السطح أفضل من الألوان. هيَّا، هيَّا، هيَّا. كانت تتصاعد من القعر وشوشة الأصوات، صوت ماريو. انزلقت وراء كلمات الحبّ التي كان تلفَّظ بها زوجي، كلماتٍ تعود لسنين خلت. عصفورةَ الحياة الهانئة والسعيدة، كان يدعوني. فقد كان قارئًا مثابرًا للأدب الكلاسيكيّ، وكانت ذاكرته تثير الحسد. كان يُردِّد لي بخفَّة أنَه يريد أن يكون حمَّالة نهديَّ، ليعانق صدري، ولباسي الداخليّ، وتنُّورتي، وحذائي الذي يضغط قدميَّ، والماء الذي يغسلني، والكْرِيم الذي أدهن به جسدي، والمرآة التي أتمرَّى بها. ساخرًا من الأدب الجيِّد، كان مهندسًا يهزأ بهَوَسي بالكلمات الجميلة، كما كان مسحورًا في الوقت نفسه بهبة كلّ هذه الصور الجاهزة التي تشكِّل الرغبةَ التي تنتابه تجاهي، تجاهي أنا، المرأة في المرآة. قناع من البودرة، من حمرة الشفاه، والأنف المنفوخ بالقطن، طعم الدم في الحلق.

استدرتُ بتعبيرٍ متقزِّز، في الوقت المناسب، لأرى أنَّ الماء كان يطفح من المغطس. أقفلت الحنفيَّة، غصت بيدي، ماء جليديّ، لم أتحقَّق حتى من سخونة الماء. انزلق وجهي عن المرآة، لم يعد يهمَّني. أعادتني البرودة إلى حمَّى جاني، إلى القيْء، وآلام الرأس. ما الذي كنت أبحث عنه وقد أوصدت باب الحمَّام: الأسبيرين. عاودت البحث، فعثرت عليه، وصرخت كمن يطلب النجدة: «إيلاريا؟ جاني؟».

21

كنتُ أشعر الآن بالحاجة إلى صوتيْهما، إلَّا أنَّهما لم يُجيباني. توجَّهت إلى الباب، حاولت فتحه، غير أنِّي لم أُفلح في ذلك. تذكَّرت المفتاح، إلَّا أنَّني أدرته إلى اليمين كما لو كنت أُقفل الباب عوض أن أُديره إلى اليسار. تنفَّستُ بعمق، عليَّ أن أتذكَّر الحركة، أدرت المفتاح على نحوٍ صحيح، وخرجت إلى الرواق.

أمام الباب تمامًا، رأيت أوتو. كان ملقيًّا إلى جنبه، ورأسه يستند إلى الأرض. لم يتحرَّك عندما رآني، لم يرفع حتى أذنيْه، ولم يحرِّك ذيله. كنت أعرف تلك الوضعيَّة التي يتَّخذها عندما كان يتألَّم لسببٍ ما ويستجدي الحبّ، كانت وضعيَّة الشجن والألم يبحث عبرها عن التعاطف. كلبٌ غبيّ، كان يريد هو أيضًا إقناعي بأنِّي أبثّ القلق. أكنت أنشر ذرَّات الضيق في البيت؟ أيُعقل ذلك؟ منذ متى، منذ أربع أو خمس سنوات؟ ألذلك لجأ

ماريو لكارلا؟ وضعت قدمًا حافيةً على بطن الكلب، وشعرت بحرارته التي التهمت باطن قدمي وصولًا لأعلى فخذي، وإذا بلعاب يطرِّز شدقيه.

«جاني ينام»، قالت إيلاريا بإعجابٍ صادق، ودفعتني باتِّجاهه لتُريني كيف ينام. كانت تستقرّ على جبين الصبيّ ثلاث قطعٍ من النقود المعدنيَّة، وكان يغطُّ بنومٍ عميق.

«النقود باردة»، قالت لي إيلاريا شارحةً «ستزيل آلام الرأس والحمَّى».

بين الحين والآخر، كانت ترفع إحداها وتضعها في كوب ماء، ومن ثم تنشِّفها وتضعها مجدَّدًا على جبين أخيها.

«عندما يستيقظ يجب أن يتناول الأسبيرين»، قلت لها.

وضعت العلبة على المنضدة، وعدت إلى الرواق لأهتمّ بشيءٍ ما، بأيِّ شيء. كأن أَعِدُّ الفطور. أمَّا جاني، فكان يجب ألَّا يتناول أيّ طعام. الغسَّالة. عليَّ أن أُمِرَّ يدي ولو تمريرة سريعة على أوتو. ولكنَّني رأيت أنَّ الكلب لم يعد مقعيًا أمام باب الحمَّام، قرَّر الكفَّ عن إظهار شجنه الذي يسيل لعابًا لي. هكذا أفضل. إذا ما كان وجودي البائس لا يبلغ الآخرين من كائنات بشريَّة وحيوانات، فإنَّ ضيق الآخرين هو إذًا ما يجتاحني فيمرضني. لذا، فكَّرت كما لو أنِّي أمام قرارٍ حاسم، لا بدَّ من طبيب. عليَّ أن أتَّصل به.

فرضتُ على نفسي التمسُّك بتلك الفكرة، جررتها ورائي كشريطٍ في مهبِّ الريح، وتوجَّهت إلى غرفة الجلوس بخطواتٍ حذرة. أذهلتني الفوضى على مكتبي. كانت الأدراج مفتوحة،

والكتب منثورة هنا وهناك. حتى الدفتر الذي كنت أدوِّن عليه ملاحظاتٍ لكتابي كان مفتوحًا. تصفَّحت الصفحات الأخيرة. وعثرت على بعض الفقرات بخطِّي المنمنم من «المرآة المهشَّمة»، وبعض الأسطر من رواية آنَّا كارينينا. لم أكن أذكر أنَّني قمت بذلك. بالطبع، كان من عادتي أن أنسخ فقراتٍ من الكتب، ولكنْ ليس على ذلك الدفتر، كان لديَّ دفتر مخصَّص لذلك. أيعقل أن تتفتَّت الذاكرة؟ لم أكن أذكر أيضًا أنَّني سطَّرت بالحبر الأحمر الواضح الأسئلةَ التي تطرحها آنَّا كارينينا على نفسها قُبيل أن تصدمها مقطورة القطار: «أين أنا؟ ماذا أفعل؟ لماذا؟». لم تكن تلك الفقرات تُثير فيَّ الدهشة، كان يبدو لي أنَّني أعرفها حقّ المعرفة. ومع ذلك، لم أفهم لماذا كانت مكتوبةً على تلك الصفحة. كنت أعرفها تمامًا، لأنَّني كنت قد نقلتها مؤخَّرًا، أمس، أوَّل من أمس؟ لماذا لا أذكر إذًا أنَّني فعلتُ ذلك؟ لماذا كانت في هذا الدفتر وليس في ذاك؟

جلستُ إلى المكتب. كان عليّ أن أبقى على شيءٍ ما ثابتًا، ولكنْ لم أعد أذكر ماذا. لم يعد هناك أيّ شيء ثابت، كان كلّ شيءٍ ينزلق. حدَّقت إلى دفتري، إلى الخطوط الحمراء تحت أسئلة آنَّا، كما لو كانت مرسى. قرأت مرَّةً وأعدت الكرَّة، إلَّا أنَّ عينيَّ مرَّتا على تلك الأسئلة من غير أن تفهماها. كنت أُعاني من خللٍ ما في حواسِّي. عطل في الشعور، في الأحاسيس. كنت أستسلم حينًا، وأخاف أحيانًا. تلك الكلمات مثلًا: لم أكن أجد إجابةً لعلامة الاستفهام، وكلّ إجابةٍ محتملة كانت تبدو لي عبثيَّة. كنت تائهةً حيث أنا، وفي ما أفعل. كنت خرساء أمام السؤال.

هذا ما ألتُ إليه في ليلةٍ واحدة. ربَّما، لم أكن أعرف متى! بعد أن تراجعت، بعد أن صمدت لأشهرٍ طويلة، رأيت نفسي في تلك الكتب فتشوَّشتُ، وعُطبتُ إلى الأبد. ساعةٌ معطوبة راحت، وقلبها المعدنيّ ما يزال ينبض، تُعطب زمن كلّ شيء.

22

شعرتُ عند ذلك بصفعةٍ في منخريَّ، ظننت أنَّ أنفي ينزف من جديد. وسرعان ما أدركت أنّي ظننتُ جرح الشمّ انطباعًا حسّيًّا. كان يعمّ البيتَ هواءٌ كثيفٌ نتن. بدا لي أنَّ جاني مريض بالفعل. نهضت، وعدت إلى غرفته. إلّا أنَّ الطفل كان ما يزال نائمًا، على الرَّغم من أنَّ أخته كانت تثابر على تبديل النقود على جبينه. تحرَّكت ببطءٍ وبحذر في الرواق باتِّجاه مكتب ماريو. كان الباب مشقوقًا، دخلت.

رائحةٌ كريهةٌ تنبعث من هناك. كان الهواء خانقًا. كان أوتو مستلقيًا إلى جانبه تحت مكتب سيِّده. عندما اقتربت. انتابته رجفةٌ طويلة سَرَتْ في جسده كلِّه. كان يفور من شدقيْه اللّعاب، إلّا أنَّ عينيْه كانتا ما تزالان عينيْ ذئبٍ طيِّب، حتى لو بدتا بيضاويْن كما لو أزال مسحوقٌ مبيِّض لونهما. كانت بقعةٌ ضاربةٌ إلى السواد تتَّسع إلى جانبه، مزيجٌ قاتم يتخلَّله دم.

للوهلة الأولى، خطر لي أن أتراجع، أن أخرج من الغرفة، وأن أُقفل الباب. تردَّدت طويلًا، عليَّ أن آخذ عِلْمًا بالمرض الذي ينسلّ متلوِّيًا إلى بيتي، ماذا يحدث؟ أخيرًا، قرَّرت البقاء. كان الكلب مستلقيًا بصمت، لم تعد تحرِّكه الانقباضات، كانت عيناه مغمضتيْن الآن. بدا وكأنَّه قد تجمَّد في انقباضٍ أخير، كما لو كان يُدار بالمفتاح، كتلك الألعاب المعدنيَّة العتيقة التي تدبّ فيها الحياة فجأةً ما إن تُحرِّك الأصابعُ المفتاح!

رويدًا رويدًا، اعتدت رائحة الغرفة الهجوميَّة، تقبَّلتها، حتى إنَّه وفي ثوانٍ معدودة، تمزَّقت طبقتها في عدَّة أجزاء، وبدأت رائحة أخرى تتدفَّق، أكثر هجوميَّة من الأخرى في نظري، الرائحة التي لم يحملها ماريو معه والتي كانت مستقرَّة في مكتبه. منذ متى لا أدخل إلى تلك الغرفة؟ فكَّرت بغضب أنَّ عليَّ أن أُجبره في أسرع وقت ممكن على أن يرحل عن الشقَّة تمامًا، أن يكشط نفسه عن كلِّ زاوية. لا يحقّ له أن يقرِّر أن يهجرني، وأن يُبقي مع ذلك في البيت نضح مسمَّاه، وطيفَ جسدِه القويّ إلى حدِّ أنَّه يقصم ختم أوتو النتن. أدركت أنَّ تلك الرائحة هي التي مدَّت الكلب الذئب بالطاقة لفتح قبضة الباب بضربةٍ من قائمته، بعد أن استاء هو أيضًا منِّي، وهي التي جرَّته إلى أسفل المكتب في هذه الغرفة، حيث كانت آثار سيِّده أقوى تتوعَّده بالحنوِّ عليه.

شعرت أنَّني مُهانة، أكثر مَهانة ممَّا شعرت به في الأشهر الأخيرة. كلبٌ جحود، كنت أرعاه أنا، بقيت معه ولم أتخلَّ عنه، كنت أصطحبه لقضاء حاجته، وهو فيما يتحوَّل الآن إلى أرضٍ من الجراح والعرق، راح يبحث عن الراحة في بقايا رائحة زوجي!

كلبٌ لا يوثق به، كلبٌ خائن، فأر. إبقَ هنا، قلت في سرِّي، فهذا ما تستحقّه. لم أكن أعلم ما أصابه، لم أكن حتى مهتمَّة، كان ذلك خللًا آخر جرَّاء استيقاظي، حدثًا لا محلَّ له في يوم عجزت عن ترتيبه. تراجعت بغضب باتِّجاه الباب، لأسمع إيلاريا وهي تسألني من الخلف:

«ما هذه الرائحة النتنة؟»

ثم لمحتْ أوتو مستلقيًا تحت المكتب، وسألتني:

«هل هو أيضًا مريض؟ هل أكل السمّ؟»

«أيّ سمّ؟» سألتها مقفلة الباب.

«كريات اللحم المسمومة. بابا يقول دائمًا إنَّ علينا أن نحذر، فالرجل الذي يعيش تحتنا يضعها في الحديقة، لأنَّه يكره الكلاب».

حاولتْ إعادةَ فتحِ الباب قلقةً على أوتو، لكنَّني منعتها من ذلك.

«إنَّه في أفضل حال»، قلت لها، «معدته تؤلمه قليلًا فقط».

نظرتْ إليَّ بانتباهٍ شديد، حتى إنَّني ظننت أنَّها تريد أن تتبيَّن ما إذا كنت أقول لها الحقيقة. إلَّا أنَّها سألتني:

«هل أستطيع أن أتبرَّج أنا أيضًا كما تبرَّجتِ أنتِ؟»

«لا. اهتمِّي بأخيكِ».

«اهتمِّي به أنتِ»، أجابتني مستاءة، وتوجَّهتْ لتوِّها إلى الحمَّام.

«إيلاريا! لا تلمسي مستحضراتي».

لم تُجِبْني، ولم أعرها اهتمامًا، أي تركتها تضيع خلف طرف عيني. لم أستدر حتى نحوها، ورحت أجرجر خطواتي باتِّجاه الغرفة حيث يرقد جاني. كنت أشعر بنفسي منهكة، حتى صوتي كان يبدو لي أشبه بصوتٍ ينبع من ذهني منه بالواقع. أزلت نقود إيلاريا المعدنيَّة عن جبينه، ومرَّرت يدي على جلده الجافّ. كان ملتهبًا.

«جاني»، ناديته.. غير أنَّه لم يستفق من نومه، أو تظاهر بالنوم. كان فمه مشقوقًا، والشفتان كحرجٍ أحمر قانٍ تلتمع داخله الأسنان. لم أكن أدري إذا ما كان عليَّ أن ألمسه مجدَّدًا، أو أقبِّل جبينه، أو أوقظه بهزَّة خفيفة. أبعدت عن ذهني أيضًا السؤال عن سوء حالته: تسمُّم، أو زكام صيفيّ، أو أثر شراب مثلَّج، أو التهاب السحايا. كان كلّ شيء يبدو لي ممكنًا، أو مستحيلًا، وكان يصعب عليَّ، على كلِّ حال، أن أصوغ فرضيَّةً ما، لم أكن قادرةً على تحديد التراتبيَّة، ولم أكن قادرةً على وجه الخصوص على أن أشعر بالهلع. أمَّا الآن، فكانت الأفكار بحدِّ ذاتها تُخيفني، لم أكن أريدها بعد الآن، كنت أشعر أنَّها موبوءة. بعد أن رأيت حالة أوتو، بتّ أخشى أكثر فأكثر أن أكون قناة كلّ الشرور، يُستحسن أن أتفادى الاتِّصال بالآخرين، يجب ألَّا أمسّ إيلاريا. أفضل ما يمكنني القيام به هو الاتِّصال بطبيب العائلة، طبيب أطفال مسنّ، وبالطبيب البيطريّ. هل قمتُ بذلك؟ هل فكَّرتُ بالقيام بذلك، ومن ثم نسيتُ؟ يجب أن أتَّصل بهما في الحال، كانت تلك القاعدة المتَّبعة، عليَّ باحترامها، على الرَّغم من أنَّه كان يُزعجني أن أتصرَّف كما كان يتصرَّف ماريو دائمًا،

فقد كان مهووسًا بالأمراض، كان ينتابه القلق ويتَّصل بالأطبَّاء لأتفه الأسباب. بابا يعرف، كان قد قال لي الطفلان، يعرف أنَّ السيِّد الذي يُقيم أسفلنا يضع كريات لحم مسمومةً في الحديقة، وهو يعرف كيف يعالج الحمّى، وآلام الرأس، وعوارض التسمُّم، ويعرف أنَّه لا بدَّ من استدعاء طبيب، ويعرف أنَّه لا بدَّ من استدعاء بيطريّ. لو كان حاضرًا، همست، كان ليتَّصل بالطبيب من أجلي بالدرجة الأولى، لكنَّني سرعان ما تراجعتُ عن فكرة مطالبةِ رجلٍ لم أعد أطالبه بأيِّ شيء. كنتُ زوجةً بالية، جسدًا وُضع جانبًا. مرضي ليس سوى حياةٍ أنثويَّة لم تعد قابلة للاستعمال. توجَّهت بتصميم إلى الهاتف. عليَّ الاتِّصال بالبيطريّ، والاتِّصال بالطبيب. رفعت السمَّاعة.

أرجعتها إلى مكانها في الحال، مستاءة.

أين رأسي؟

عليّ أن أتمالك نفسي، أن أستعيدها.

كان ينبعث من السمَّاعة ضجيج العاصفة إيَّاه، والخطّ مقطوع. كنت أعرف ذلك وأتظاهر بعدم معرفته، أو ربَّما لم أكن أعرفه. فلم تعد لديَّ من ذاكرة يعوَّل عليها، لم أعد قادرةً على التعلُّم، وعلى الاحتفاظ بما تعلَّمته؛ ومع ذلك، كنت أتظاهر بأنَّني ما أزال قادرةً على ذلك، كنت أتظاهر وأتنصَّل من المسؤوليَّاتِ إزاء ابني، والكلب، مؤدِّيةً مهزلةً باردة كأنَّني أعرف وأفعل ما أعرفه!

أعدتُ رفع السمَّاعة، وشكَّلت رقم طبيب الأطفال. لا شيء. استمرَّ الصفير. استندت إلى ركبتيَّ، وبحثت عن منشب

الكهرباء تحت الطاولة: صفير. شكّلت الرقم: صفير. بدأت عندها أنفخ بدوري داخل السمّاعة بكلِّ ما أوتيت من قوّة، كما لو أنّني أستطيع بنفسي أن ألغي تلك الريح التي تقطع الخطّ. لا نتيجة. تركت الهاتف، وعدت بتلكُّؤٍ إلى الرواق. ربَّما لم أفهم، ربَّما كان عليَّ أن أبذل جهدًا في التركيز، كان عليَّ أن أُدرك أنَّ جاني مريض، وأنَّ أوتو بدوره مريض. كان عليَّ أن أقلق على وضعهما، وأفْقه معنى ذلك. أوَّلًا، جهاز الهاتف معطَّل في غرفة الجلوس، ثانيًا: هناك طفل محموم يتقيَّأ في غرفته، ثالثًا: هناك كلب في وضع يُرثى له في مكتب ماريو. ولكنْ لا تضطربي أولغا، لا تركضي. انتبهي، في المعمعة قد تنسين الذراع، أو الصوت، أو التفكير. قد تمزِّقين الأرض، أو تفصلين نهائيًّا غرفة الجلوس عن غرفة الولديْن. سألت جاني، بعد أن هززته بقوَّةٍ مُبالَغٍ فيها ربَّما:

«كيف حالك؟»

فتح الصبيّ عينيْه:

«اتَّصلي ببابا».

«أنا هنا، لا تقلق».

«نعم، ولكن اتَّصلي ببابا».

بابا لم يكن هناك، بابا الذي كان يعرف تمامًا ما يجب فعله لم يكنْ هناك. يجب أن نحلّ مشاكلنا بأنفسنا من الآن فصاعدًا. إلَّا أنَّ الهاتف كان معطَّلًا، النفق مسدود. وربَّما أنا أيضًا على هذه الدرب، أدركت ذلك لبرهةٍ بوضوح. كنت ماضيةً على دروب لا أعرفها، دروب التلاشي لا الخلاص، وهو ما أدركه الصبيّ؛

لذا، كان قلقًا ليس بسبب آلام رأسه، أو الحمَّى، بل كان قلقًا عليَّ. كان قلقًا عليّ.

آلمني ذلك. لا بدَّ من معالجة ذلك، لا بدَّ من أن أتوقَّف قبل بلوغ شفير الهاوية. رأيت على الطاولة ملقطًا معدنيًّا لجمع الأوراق المبعثرة. تناولته، وحشرت داخله جلد ذراعي اليمنى، فقد يجدي ذلك نفعًا، قد يجديني ما يستبقيني هنا.

«سأعود في الحال» قلتُ لجاني، فرفع جسده بعض الشيء ليراني بشكلٍ أفضل.

«ماذا فعلتِ بأنفك؟» سألني. كلّ هذا القطن سيؤلمك، أزيليه. ولماذا وضعتِ هذا على ذراعك؟ إبقي قريبة منِّي».

نظر إليَّ بانتباه. ولكن ماذا رأى؟ القطن، والملقط، لم يُشر ولو بكلمة لتبرُّجي، لم يجدني جميلة. الذكور صغارًا أو كبارًا لا يقدِّرون الجمال الحقيقيّ، لا يفكِّرون إلَّا باحتياجاتهم. لا شكَّ في أنَّه سيشتهي لاحقًا عشيقة أبيه. نعم، على الأرجح. خرجتُ من الغرفة، وتوجَّهتُ إلى مكتب ماريو. ركَّزتُ على ذراعي الملقط المعدنيّ على نحوٍ أفضل. أيُعقل أن يكون أوتو قد تسمَّم فعلًا، وأن يكون كارانو المسؤول عن ذلك؟

كان الكلب ما يزال هناك تحت مكتب سيِّده. كانت الرائحة النتنة لا تُطاق، وكان مُصابًا بالإسهال وقد أفرغ معدته أكثر من مرَّة. ولكن الآن لم يكن وحده في الغرفة. وراء المكتب، على كرسيِّ زوجي الدوَّار، في الظلِّ الذي يُنيره غبشٌ رماديٌّ مزرورق، كانت تجلس امرأة.

23

كانت تسند قدميْها الحافيتيْن إلى جسد أوتو، كان لونها ضاربًا إلى الأخضر، كانت امرأة ساحة ماتزيني المهجورة، المسكينة كما كانت تدعوها أمِّي. مرَّرتْ يدها على شعرها تملِّسه كما لو أنَّها تريد تسريحَه بيديْها، وسوَّت القميص البائخ عند الصدر، والمفتوح كثيرًا. دام ظهورها ما يكفي لتنقطع أنفاسي، ومن ثم اختفت.

هذا مؤشِّر سيِّء. ذُعرت، وشعرتُ أنَّ ساعات النهار الحارَّة تدفعني باتِّجاهٍ لا أريد الذهاب إليه البتَّة. فكَّرت أنَّه إذا ما كانت المرأة فعلًا في الغرفة، لا يمكن بالتالي إلَّا أن أكون طفلةً في الثامنة من العمر. أو ربَّما أسوأ من ذلك، إذا ما كانت تلك المرأة هناك، فإنَّ طفلةً في الثامنة من العمر باتت اليوم غريبة عنِّي، كانت تتغلَّب عليَّ، أنا التي بلغت الثامنة والثلاثين، وكانت تفرض عليَّ زمنها، وعالمها! كانت تلك الطفلةُ تعمد لتنتزع من

تحت قدميَّ الأرض التي أقف عليها مستبدلةً إيَّاها بأرضها. لم تكن تلك سوى البداية، إذا ما تجاوبتُ معها، إذا ما استسلمت، فكنت أشعر أنَّ ذلك اليوم، ومساحة الشقَّة نفسها، كانا يتشرَّعان أمام أزمنةٍ كثيرةٍ مختلفة، أمام حشدٍ من الأمكنة والأشخاص، وأمامي أنا أيضًا، لتعرضَ في آنٍ معًا، الحاضر، والأحداث الواقعيَّة، والأحلام، والكوابيس إلى أن تخلق متاهةً مُطبقة، سأعجز عن الخروج منها.

لم أكن بالساذجة. عليَّ ألَّا أدعها تقوم بذلك. كان من الضروريّ ألَّا أنسى أنَّ المرأة الجالسة إلى المكتب، وحتى لو كانت مؤشِّرًا سيِّئًا، كانت مع ذلك مؤشّرًا. استفيقي أولغا. لم تدخل أيّ امرأة بقضّها وقضيضها كاملةً في رأسي عندما كنت طفلةً لثلاثة عقود خلت، ولا يمكن لأيِّ امرأةٍ الآن بقضِّها وقضيضها أن تخرج منه الآن كاملة. الشخص الذي رأيته للتوّ خلف مكتب ماريو كان مجرَّد أثر لكلمة «امرأة»، «امرأة ساحة ماتزيني»، «المسكينة». عليَّ التمسُّكُ إذًا بهذه المفاهيم: الكلب حيّ حتى الآن، أمَّا المرأة فهي ميِّتة، غرقت منذ ثلاثة عقود، وأنا لم أعد طفلةً في الثامنة من العمر منذ ثلاثة عقود. لأتذكَّر ذلك، عضضتُ عقدةَ إحدى أصابعي مطوَّلًا إلى أن شعرت بالألم. غرقت على إثر ذلك في رائحةِ الكلبِ المريض، لم أكن أريد أن أستنشق سواها.

ركعت قرب أوتو. كان فريسة تشنُّجاتٍ تستحيل السيطرة عليها، كان الكلب الذئب قد بات خرقةً في يد الألم. ماذا أرى أمام عينيَّ؟ شدقاه موصدان، ولعابه كثيف. تلك التشنُّجات في

مفاصله تبدو لي شيئًا أتمسَّك به أصلب من عضَّتي لإصبعي، والملقط المعلَّق إلى ذراعي.

بدا لي أنَّ عليَّ أن أُقْدِم على أيِّ شيء. إيلاريا محقَّة، لقد سُمِّم أوتو، والذنب ذنبي، لم أراقبه كما يجب.

بيد أنَّ الفكرة لم تفلح في التدثُّر بغلاف صوتي المعتاد. شعرت داخل حلقي، كما لو أنَّني أتكلَّم من جوفي بذبذبةٍ صوتيَّة تتأنَّق طفوليَّة وراشدة في آن، نبرة طالما كرهتها. كانت كارلا تصوغ كلماتها على هذا النحو، أذكر ذلك: كانت قد بلغت الخامسة عشرة وتتكلَّم كما لو كانت في السادسة، ربَّما ما تزال تتكلَّم هكذا! كم من النساء لا يتمكَّنَّ من التخلِّي عن تمثيلهنَّ لاجئاتٍ إلى الصوت الطفوليّ. أنا تخلَّيت عن ذلك فورًا. في العاشرة من عمري، كنت أبحث عن نبراتٍ راشدة. حتى في لحظات الحبِّ لم أتظاهر قطُّ بأنَّني طفلة، فالمرأة امرأة.

«اذهبي عند كارانو»، نصحتني بلكنة نابولي القويَّة «مسكينة ساحة ماتزيني»، وقد ظهرت الآن في زاويةٍ قرب النافذة. «دعيه يساعدك».

لم أستطع المقاومة، بدا لي أنَّني أشكو بصوتٍ رفيع كطفلة تواجه الخطر، بريئةٍ أمام كلّ ما يؤذيها:

«كارانو سمَّم أوتو. توعَّد ماريو بذلك. بوسع الناس الأكثر مسالمةً الإقدام على أفعالٍ بشعة».

«وأفعال حسنة أيضًا يا ابنتي. اذهبي، وحده في المبنى، وهو الوحيد الذي يستطيع مساعدتَك».

ما أغباها! ما كان عليَّ أن أكلِّمها أبدًا، لا بل ذهبتُ أبعد من ذلك، رحتُ أحاورها. كما لو كنت أكتب كتابي وتجول في رأسي أطيافُ أشخاصٍ وشخصيَّاتٍ! ولكنّني لم أكن أكتب، ولم أكن تحت طاولة أمِّي أروي في سرِّي قصَّة «المسكينة». كنت أتكلَّم وحدي.. هكذا تكون البداية. تبدأ إحدانا بالكلام مع كلماتها، كما لو كانت كلمات امرأةٍ أخرى. يا للخطأ. عليَّ أن أتمسَّك بالأشياء، وأن أقبل بها متراصَّة، وأؤمن ببقائها. كانت المرأة حاضرةً في ذكرياتي طفلةً فقط. لم يكن عليَّ أن أخشاها، ولم يكن عليَّ في الوقت عينه أن أتمادى معها، فنحن نحمل في رأسنا حتى الممات الأحياءَ والموتى. المهمّ أن نفرض على أنفسنا مقياسًا ما، كأن لا نتكلَّم أبدًا مع كلماتنا. أغرقت، لأعرف أين أنا ومَنْ أنا، يديَّ الاثنتيْن في وبر أوتو الذي كانت تنبعث منه حرارةٌ لا تُحتمل. ما إن لامسته، ما إن مسَّدت عليه حتى ارتجف، رفع رأسه، وجحظت عيْناه البيضاوان، وقذف باتّجاهي رذاذًا من اللعاب مزمجرًا. تراجعتُ خائفة. لم يكن الكلب يريدني داخل ألمِهِ، كان يدفعني باتِّجاه ألمي أنا، كما لو لم أكن أستحقّ التخفيف عنه وهو يُحتضر.

قالت المرأة:

«أمامك وقتٌ قليل. أوتو يُحتضر».

24

نهضتُ، خرجتُ بسرعة من الغرفة مغلقةً الباب خلفي. كنت أودّ أن تكون خطواتي واسعة لئلّا يوقفني أيّ شيء. أولغا تسير في الرواق، في غرفة الجلوس. إنَّها مصمِّمة، الآن. ستعالج الوضع حتى ولو أنَّ الطفلةَ في رأسها تحدِّثها بصوت ناعم: إيلاريا أخذت مستحضراتك، من يدري ما هي فاعلة في الحمَّام، لم تعد هناك من أغراض لكِ فعلًا، هي تمسّ كلّ أغراضك.. اذهبي واصفعيها. إلَّا أنَّني أبطأت في الحال، فقلّما كنت أحتمل أن أُثار، فإذا ما كان العالم حولي يُسرع كنت أبطئ. أولغا تخاف الحركة المحمومة، تخشى أن تهاجر الحاجةَ إلى ردِّ فعل سريع، كالخطوات السريعة والحركات السريعة، إلى دماغها، وهي لا تطيق الضوضاء الداخليَّة التي تبدأ عندها بمداهمتها، فيروح الصدغان ينبضان، ويلمّ غَثَيانٌ بمعدتها، وتتعرَّق عرقًا باردًا، ويتملَّكها هَوَس بأن تُضاعف سرعتها باستمرار، باستمرار. لذا،

لا للعجلة. . هدوء، ومشيةٌ متروِّية، لا بل خاملة. عدت لتثبيت الملقط الذي يعضّ ذراعي، لأحثّ نفسي على التخلّي عن ذاك الشخص الثالث، أولغا التي تريد أن تركض وتعود إلى أناها، أنا التي أذهب إلى الباب المصفَّح، أنا التي أعرف من أنا، وأسيطر على ما أقوم به.

فكَّرت أنَّ لديَّ ذاكرة. لست من أولئك الذين ينسون حتى اسمهم. كنت أذكر بالفعل العامليْن اللذيْن أصلحا الباب، الكهل والشابّ. من منهما قال لي: انتبهي لا تضغطي، انتبهي لكيفيَّة استخدامك المفتاحيْن، انتبهي المنظومة ـ هاها ـ دقيقة. كان الاثنان يبدوان محتاليْن. كلّ تلك الإيحاءات، المفتاح عموديًّا، والمفتاح أفقيًّا. . لحسن الحظّ، طالما كنت أعرف كيف أتصدَّى للآخرين. وإذا ما بقيتُ بعد ما فعله ماريو بي، وبعد إهانة الهجر تلك التي سبقتها خديعةٌ طويلة، فقد بقيتُ كما أنا، بقيتُ بتصميم أمام اضطرابات الأشهر الأخيرة. أنا هناك في الحَرِّ، أنا في بدايةً أغسطس، لا بل كنت أقاوم، أقاوم اعتداءاتٍ كثيرةً متفرِّقة، فهذا يعني أنَّ ما كنت أخشاه منذ طفولتي، أي أن أكبُر لأُمسي مثل «المسكينة»، ذاك الخوف الذي راودني لثلاثة عقود، لم يحدث؛ كان ردُّ فعلي حسنًا، لا بل ممتازًا. كنت أضمّ إليَّ أجزاء حياتي. تهانيَّ أولغا، على الرَّغم من كلِّ شيء لم أرحل عن نفسي.

أمام الباب المصفَّح، توقَّفت قليلًا، كما لو أنَّني ركضت فعلًا. حسنًا، سأطلب من كارانو أن يساعدني حتى لو كان هو من سمَّم أوتو. لا بديل، سأسأله إذا ما كنت أستطيع استخدام هاتفه. وإذا ما حاول أن يضاجعني مجدَّدًا، وأن يحشره في

عجيزتي، فسأردّ عليه بلا، فات الأوان. أنا هنا فقط، لأنَّ هناك حالة طوارئ في بيتي، لا تتوهَّم. سأقول له ذلك فورًا، حتى لا يتبادر أبدًا لذهنه أنَّني عدت إليه من أجل ذلك. الفرصة فاتت، ولن تتكرَّر. وإذا ما كانت الثالثة ثابتة، فإنَّ الأولى قد تكون الأخيرة، لا سيَّما وأنَّك في تلك المرَّة الوحيدة بلغت وطرك وحدك في الواقي، يا كلب!

ولكنَّني علمتُ في الحال، حتى قبل أن أجرِّب، أنَّ الباب ما كان ليُفتح. وعندما أمسكت المفتاح وحاولت إدارته، كان ما تصوَّرته قبل لحظةٍ قد حدث بالفعل، لم يَدُرِ المفتاح.

تملَّكني القلق، أي ردّ الفعل الذي كان عليَّ أن أتجنَّبه. ضاعفتُ الضغط، وبشكلٍ غير منهجيٍّ، حاولتُ أن أُدير المفتاح مرَّةً إلى اليسار، ومرَّةً إلى اليمين. لا نتيجة. حاولت عندها سحبه من القفل، لكنَّه لم يُسحب، بقي في القفل كما لو أنَّ المعدن ذاب وانسبك بالمعدن. ضربت قبضتي على الدرفتيْن، رحت أدفع الباب بكتفي، وعاودت المحاولة مُديرةً المفتاح، كان جسدي قد استفاق على حين غرَّة، وكان اليأس يلتهمني. عندما استسلمت، ألفيتني مغطَّاةً بالعرق. كان قميص النوم قد التصق بي، إلَّا أنَّ أسناني كانت تصطكّ. كنت أشعر بالبرد على الرَّغم من حرارة النهار.

جلست على الأرض، كان عليَّ أن أفكِّر. العاملان قالا لي إنَّ عليَّ أن أنتبه، فيُمكن أن تتعطَّل الآليَّة. ولكنْ بدا لي أنَّهما يقولان ذلك بتلك النبرة المبالغة التي يستخدمها الرجال ليبالغوا في تصوير ضرورتهم، ضرورتهم الجنسيَّة خاصَّة. تذكَّرت تلك الابتسامة الخبيثة التي ارتسمت على وجه الأكبر سنًّا وهو يمدّ إليَّ

بطاقته في حال احتجت إليه. كنت أعرف أيَّ قفلٍ كان يريد أن يعالج، لم يكن بالتأكيد قفل الباب المصفَّح. لذا، اعتبرت أنَّ عليَّ أن أمحو من كلامه أيّ معلومة فنِّيَّة واقعيَّة، فقد استخدم مفردات مهنته ليُسمعني إيحاءاتٍ فاحشة. ما يعني، عمليًّا، أنَّ عليّ أن أمحو من ذهني معاني تلك الكلمات المقلقة، وأنَّه ليس عليَّ أن أخشى أن يكون قفل الباب قد عُطب. فلتتبدَّ إذًا جمل الرجليْن البذيئيْن. فلأنظِّف كلّ شيء. فلأخفِّف التشنُّج، ولأعد الترتيب، ولأسدّ ثغرات المعنى. حتى الكلب، على سبيل المثال، لماذا أفترض أنَّه تناول سُمًّا بالضرورة؟ فلأُلغِ كلمة «سمّ». رأيت كارانو عن كثب، تُضحكني الفكرة، ولم يبدُ لي رجلًا يعدّ كرياتِ لحم مسمومة، ربَّما تناول أوتو فقط طعامًا فاسدًا. فلأحافظ إذًا على كلمة «فاسد»، ولأثبت الكلمة جيِّدًا. فلأعد رسم أبعاد ذاك اليوم منذ ساعةِ استيقاظي. فلأعد تشنُّجات أوتو في حدود المعقول، فلأمنح الأحداث حجمها. فلأمنح نفسي حجمها. مَنْ أنا؟ امرأةٌ أنهكتها أربعة أشهر من التوتُّر والألم، ولست بالتأكيد ساحرةً تبثّ، وقد أخذ منها اليأس كلّ مأخذ، السمّ القادر على إصابة ابنها بالحمَّى، وعلى قتل الذئب المدجَّن، وعلى تعطيل خطِّ الهاتف، وإعطابِ قفلِ بابٍ مصفَّح. عليَّ أن أستعجل، الولدان لم يأكلا أيّ شيء. وأنا أيضًا عليَّ أن أتناول الفطور، وأن أغتسل. عليَّ أن أفصل الغسيل الملوَّن عن الغسيل الأبيض. لم تعد لديَّ من ملابس داخليَّة نظيفة، والشراشف ملوَّثة بالقيْء. يجب أن أكنس السجَّاد بالمكنسة الكهربائيَّة، يجب أن أنظِّف البيت..

25

نهضت حريصةً على ألَّا تصدر عنِّي حركاتٌ عنيفة. حدَّقت إلى المفتاح طويلًا كما لو كان بعوضةً أنوي سحقها، ومن ثم مددت بتصميم يدي اليمنى، وأمرت أصابعي مجدَّدًا بالإتيان بحركة دائريَّة باتِّجاه اليسار. لم يتحرَّك المفتاح. حاولت سحبه باتِّجاهي، كنت آمل أن يتحرَّك ولو قليلًا ما يكفي لإيجاد الوضعيَّة الصحيحة، إلَّا أنَّني لم أكسب في ذلك ولو ميليمترًا واحدًا. لم يكن يبدو مفتاحًا، بل زائدة تبرز من قطعة النحاس، كما لو كان انتفاخًا قاتمًا.

تفحَّصت الدرفتيْن. كانتا ملساويْن لا يُمكن الإمساك بهما إلَّا عند المقبض اللامع، وضخمتيْن تستندان إلى مفاصلَ ضخمة. لا جدوى. لا يمكن فتح الباب إلَّا بإدارة المفتاح في القفل. تفحَّصت الصحيفتيْن المستديرتيْن للقفليْن فيما كان المفتاح يخرج من الصحيفة السفلى. كانت كلّ واحدة منهما

مثبَّتة بأربعة براغٍ صغيرة، وكنت أعلم أنَّ فكَّها لن يجديني نفعًا. ومع ذلك، قرَّرت ذلك، لأنَّ فكَّها كان ليشجِّعني على ألَّا أستسلم.

توجَّهت إلى غرفة المؤونة لأتناول صندوقَ العدَّة، وجررته حتى المدخل. بحثت داخله، غير أنِّي لم أعثر على مفكّ براغٍ مناسب لتلك البراغي، كانت المفكَّات كلُّها كبيرة. ذهبت عندئذٍ إلى المطبخ، وأخذت سكِّينًا. اخترت أحد البراغي، وأدخلت رأس الشفرة في الثقب المتناهي الصغر، المصلَّب، إلَّا أنّ السكِّين سرعان ما خرج منه من دون أن يحتكّ بالمعدن. عدت إلى المفكَّات، وتناولت الأصغر، وحاولت إدخالَ رأسِهِ تحت صفيحة القفلِ السفليّ النحاسيَّة من دون طائل. عدلتُ عن الفكرة بعد محاولاتٍ قليلة، وعدت إلى غرفة المؤونة. بحثتُ ببطء، محاوِلَةً الإبقاء على تركيزي، عن غرضٍ ما أحشره تحت الباب، غرضٍ صلب يُمكن أن أستخدمه كرافعةٍ لرفع إحدى الدرفتيْن، ولأتبيَّن إذا ما كنت قادرةً على إخراجها من مفاصلها. كنت أفكِّر، وعليَّ الآن أن أقرّ بذلك، وكأنَّني أروي لنفسي قصَّةً خرافيَّة، من غير أن أكون مؤمنةً أبدًا بإيجاد الأداة الملائمة، وحتى إذا ما وجدتها، لم أكن أعتقد أنَّ لديَّ القوَّة الجسديَّة اللازمة لتحقيق ما كان يجول في ذهني. إلَّا أنَّني كنتُ محظوظةً، فعثرت على قطعةِ حديدٍ قصيرةٍ مدبَّبة. عدت إلى المدخل، وحاولت أن أُدخل رأس القطعة المدبَّبة أسفل الباب. لم تكن هناك أيّ مساحة فاصلة، فقد كانت الدرفتان ملتصقتيْن بالأرض تمامًا؛ وحتى لو نجحت في محاولتي، أدركت أنَّ

المساحة في الأعلى كانت غير كافية لإخراج الدرفة من مفاصلها. تركت القطعة الحديديَّة تقع مُصدرةً صوتًا حادًّا. لم أكن أدري ما عساني أجرِّب غير ذلك، كنت عاجزةً وسجينةً داخل جدران بيتي.. وللمرَّة الأولى في ذاك النهار، شعرت بعينيَّ تغرورقان بالدموع، بيد أنَّ ذلك لم يزعجني.

مكتبة
t.me/t_pdf

26

كدت أبكي عندما سألتني إيلاريا، التي وصلت خلفي على رؤوس أصابعها بالتأكيد:

«ماذا تفعلين؟»

كان سؤالًا زائفًا طبعًا، كانت تريدني في الواقع أن أستدير وأراها. استدرت، فاعترتني ارتجافةُ تقزُّز. كانت قد ارتدت بعض ثيابي، وتبرَّجتْ، واعتمرتْ شعرًا مستعارًا أشقر قديمًا كان قد أهداها إيَّاه أبوها. كانت تنتعل حذائي ذا الكعب العالي، وتلبس فستاني الكحليّ الذي كانت تتعثَّر به، ويبدو عند كتفيْها خرقة طويلة! أمَّا وجهها، فكان قناعًا ملوَّنًا، فقد وضعتْ ظلال العيون، وبودرة الخدود، وأحمر الشفاه. كانت تُشبه قزمةً عجوزًا كتينك القزمتيْن اللتيْن كانت أمِّي تروي أنَّها رأتهما عندما كانت فتاة، في مصاعد ڤوميرو السلكيَّة. كانتا توأميْن متطابقتيْن تبلغان المائة عام، كما كانت تقول، تدخلان إلى المقصورات ومن غير أن تنبسا

ببنت شفَة، تشرعان في العزف على المندولينة. كان شعرهما كما لو صُنع من المُشاقة، وعيونهما مبرَّجة بكثافة، والوجهان مجعَّدين والخدود حمراء، والشفاه مخضَّبة. عندما كانتا تفرغان من العزف، عوضًا عن شكر المستمعين، كانتا تمدَّان لسانيْهما. لم أكن قد رأيتهما يومًا، إلَّا أنَّ قصص الكبار هي صور متدفِّقة.. لذا، رسخت القزمتان العجوزان في ذهني. والآن، يبدو لي أنَّ إيلاريا انبعثت عمدًا من روايات الطفولة تلك.

عندما أدركت القرفَ الذي ارتسم لا شكّ على وجهي، ابتسمت الطفلة مرتبكة، والتمعتْ عيناها، وقالت مبرِّرة فعلتها:

«نحن متطابقتان».

خضَّتني الجملة، اعترتني قشعريرةٌ، وفقدت في لحظةٍ المساحةَ التي أقف عليها والتي بدا لي أنَّني كسبتها. ما معنى أنَّنا متطابقتان؟.. في تلك اللحظة، كنت أريد أن أتطابق فقط مع نفسي. لم أكن أستطيع، ولم يكن عليَّ أن أتصوَّر نفسي كإحدى عجوزَيْ المصاعد السلكيَّة. الفكرة وحدها تسبَّبت لي بدُوار في الرأس، وأثارت فيَّ غثيانًا خفيفًا. راح كلّ شيء يتفتَّت من جديد، فكَّرت أنَّ إيلاريا ربَّما كانت بالفعل إحدى امرأتَيْ ڤوميرو الصغيرتيْن وقد ظهرت غدرًا، كما سبق أن حدث لي مع «المسكينة» التي غرقت في كابو بيزينو. أو ربَّما لا. ربَّما كنت أنا منذ زمن، أنا بالذات إحدى عازفتَي المندولينة العجوزيْن، وقد اكتشف ماريو ذلك، فهجرني. تحوَّلت من دون أدنى انتباه إلى إحداهما، إلى طيف خيالاتي الطفوليَّة، وكانت إيلاريا الآن تعكس لي فقط صورتي الحقيقيَّة، وجلُّ ما فعلتْه أنَّها حاولت

التشبُّه بي متبرِّجةً مثلي. كان ذلك الواقع الذي سأكتشفه خلف المظهر الذي تستَّرتُ وراءه لسنواتٍ عدَّة. لم أعد أنا. كنت امرأةً أخرى، كما كنت أخشى منذ استيقاظي، كما كنت أخشى منذ زمن طويل. كانت كلّ مقاومة الآن بلا طائل. ضعتُ فيما كنت أبذل قصارى جهدي ألّا أضيع، لم أعد حتى هناك في مدخل بيتي، أمام الباب المصفَّح، أُعالج المفتاح العاصي. كنت فقط أتظاهر بذلك كما لو كنتُ مستغرقةً في لعبةٍ طفوليَّة.

حشدت قوَّتي، وأمسكت بيد إيلاريا. جررتُها عبر الرواق. كانت تحتجّ بوهن. فقدت فردة حذائها. حاولتِ التملُّص، وسقط شعرها المستعار أيضًا. قالت:

«أنتِ شرِّيرة، لا أطيقك».

شرَّعتُ باب الحمَّام، تفاديت المرآة، وجررت الطفلة حتى المغطس الذي كان طافحًا بالمياه. أمسكتُ بيدي رأس إيلاريا، وأغرقته في الماء، فيما كنت أحفّ باليد الأخرى وجهها بقوَّة. أريد الواقع، الواقع بلا تبرُّج. هذا ما كنت أحتاج إليه الآن إذا ما كنت أريد أن أنقذ نفسي، وابني، والكلب. لا بل عليَّ أن أُصِرَّ في أداء واجبي كمنقذة. ها قد غسلتها. رفعت الطفلة. فرشَّتِ الماء في وجهي نافخةً، ومتخبِّطةً، ومتنفِّسةً بنهمٍ، وصارخة:

«لقد جعلتِني أبتلع الماء، كنتِ تُغرقينني».

قلت لها بحنانٍ مفاجئ، وقد تملَّكتني مجدَّدًا رغبةٌ بالبكاء:

«كنت أريد أن أرى كم هي جميلةٌ صغيرتي إيلاريا، نسيت كم هي جميلة».

تناولتُ بعض الماء في راحة كفِّي، وفيما كانت تتملَّص منِّي وتحاول الهرب، عاودت حفَّ وجهها، وشفتيْها، وعينيْها مازجةً الألوان المتبقِّية، مذيبةً إيَّاها ومحوِّلةً إيَّاها إلى عجيبة، إلى أن أمسى وجهها وجه لعبةٍ ليلكيًّا.

«ها قد انتهينا»، قلت لها محاولة معانقتها «تروقين لي هكذا».

دفعتني صائحة:

«اغربي عن وجهي! لماذا تستطيعين أنتِ، أن تتبرَّجي، أمَّا أنا فلا؟»

«معك حقّ، أنا أيضًا يجب ألَّا أتبرَّج».

أفلتُّها، وأغرقت وجهي وشعري في ماء المغطس البارد. شعرت بتحسُّن. عندما نهضت، وحففت جلد وجهي بيديَّ الاثنتيْن، شعرت بقطعة القطن المبتلَّة في منخريَّ، فنزعتها بحذر راميةً إيَّاها في المغطس. عامت قطعة القطن على صفحة الماء وقد امتلأت بدمٍ أسود.

«أهكذا أفضل؟»

«كنَّا أجمل من قبل».

«سنكون جميلتيْن إذا ما أحببنا بعضنا بعضًا».

«أنتِ لا تحبِّينني، لقد آلمتِ معصمي».

«أنا أحبّك كثيرًا».

«أنا لا أحبّك».

«صحيح؟»

«لا».

«إذا ما كنتِ تحبِّينني عليك أن تساعديني».

«ماذا يجب أن أفعل؟»

شعرتُ باختلاجٍ وبنبضاتي تتسارع، وقد اضطربت الأشياء فجأةً. استدرت نحو المرآة متردِّدةً. كانت حالتي يُرثى لها، كان شعري مبتلًّا وقد التصق إلى جبيني، وقد تجمَّد الدم في أحد منخرَيَّ. كان تبرُّجي قد شحُب، أو تحوَّل إلى حبوبٍ صغيرةٍ سوداء، وقد زال الأحمر عن الشفتيْن، لكنَّه فاض من الجهتيْن باتِّجاه الأنف والذقن. مددت يدي لأتناول أسطوانة من القطن.

قالت لي إيلاريا وقد عيل صبرها:

«إذًا؟»

بلغني الصوتُ من بعيد. لحظةً فقط، عليَّ أن أُزيل تبرُّجي الآن بحرص. وبفضل درفتيْ المرآة الجانبيَّتيْن، رأيت قسمَيْ وجهي منفصلَيْن ومتباعدَيْن، وقد لفت نظري جانب وجهي الأيمن أوَّلًا، ومن ثم الجانب الأيسر. كانا غريبيْن عنِّي تمامًا، فلم أستخدم الدرفتيْن عادة. لم أكن أتعرَّف على نفسي سوى في الصورة التي تعكسها لي المرآة الكبيرة. حاولتُ تحديد وضعيَّتهما الآن بشكلٍ يُتيح لي أن أرى نفسي من الجانب، ومن الأمام. لم يتمكَّن حتى الآن أيّ نتاجٍ تقنيّ من التفوُّق على المرآة والأحلام. كانت المرآة تحدِّد حالتي، ففيما كانت الصورة الأماميَّة تطمئنني مؤكِّدة لي أنَّني أولغا، وأنَّني قد أفلح في بلوغ نهاية هذا النهار، كانت صورة جانبي تؤكِّد عدم صحَّة ذلك. كانت تظهر لي العنق، والأذنيْن الحيَّتيْن البشعتيْن، والأنف المعقوف قليلًا الذي لم يرق

لي يومًا، والذقن، والوجنتيْن العاليتيْن، وجلدهما المشدود كما لو كان ورقةً بيضاء. ما علاقتي بهذه الصور؟ الجانب الأفضل، الجانب الأسوأ: هندسة المستتر. فإذا ما عشتُ حياتي ظانَّةً أنَّني أولغا بصورتها الأماميَّة، طالما رأى فيَّ الآخرون ذاك التلاحم المتحرِّك والمتردِّد بين جانبَيْ صورةٍ شاملة، لم أكن على علم بها.

وماريو، ماريو تحديدًا الذي كنت أخال أنَّني أعطيته أولغا، أولغا مرآة الوسط، لم أعد أعلم في الواقع أيَّ وجه، وأيَّ جهة وهبْتُه. كان هو قد جمعني بالاستناد إلى هذيْن الوجهيْن المتحرِّكيْن، المفكَّكيْن، الهاربيْن، ومن يدري أيّ شكلٍ أعطاني! من يدري بأيّ توليفةٍ منِّي أُغرم، وأيّ توليفةٍ أثارت نفوره وبدَّدت حبّه! سرت قشعريرةٌ في جسدي، فأنا في عينيْ ماريو لم أكن يومًا أولغا. المعاني، معاني حياتها هي، وهو ما أدركتُه فجأةً، لم تكن سوى انبهار نهاية المراهقة، ووهمي بالاستقرار. من الآن فصاعدًا، إذا أردت تدبُّر حالي، عليَّ أن أوكلَ نفسي لهذيْن الجانبيْن، لغرابتهما لا لحمِيميَّتهما، وانطلاقًا من هنا، عليّ أن أستعيد رويدًا رويدًا الثقة، وأبلغ الرشد.

بدت لي تلك الخلاصة الحقيقةَ بعيْنها، حتى إنَّني، وأنا أنظر بانتباهٍ إلى نصف وجهي الأيسر وإلى السُحنة المتبدِّلة بجوانبها السرِّيَّة، تعرَّفت على ملامح «المسكينة». ما كنت لأتصوَّر يومًا أنّ كلّ هذه القواسم المشتركة تجمع بيننا! كان جانب وجهها، وهي تنزل الدرج وتقطع عليَّ ألعابي وألعاب رفيقاتي لتمرّ أبعدَ من نظرة الألم الغائبة، قد تربَّص داخلي منذ زمنٍ أعجز عن تحديده، وهو

ما أقدِّمه الآن للمرآة. همست لي المرأة من الدرفة:

«تذكَّري أنَّ الكلب يُحتضر، وأنَّ جاني مُصاب بحمَّى خطرة في معدته».

«شكرًا» قلت بدون خوف، لا بل بامتنان.

«شكرًا علامَ؟» سألتني إيلاريا مستاءة.

«شكرًا، لأنَّكِ وعدتِني أنَّكِ ستساعديني».

«ولكنَّك لا تقولين لي ما عليّ أن أفعل!»

ابتسمتُ، وقلت:

«سنذهب الآن إلى غرفة المؤونة، وأُريكِ ما عليكِ فعله».

27

تحرَّكتُ. كان يُخيَّل لي أنَّني نَفَسٌ صافٍ مضغوطٌ بين جزأَيْ وجهٍ واحد، جُمعا كيفما اتَّفق. لم يكن من طائل من التجوُّل في هذا البيت المعروف. كانت مساحاته كلُّها قد أمست مسطَّحاتٍ متباعدة، منفصلةً في ما بينها. في ما مضى، قبل خمس سنوات، كنت أعرف بدقَّةٍ مقاساتِه، كنت قد قُست كلّ زاوية، وأثَّثت البيت بعناية. أمَّا الآن، فلم أعد أعرف كم يبعد الحمَّام عن غرفة الجلوس، وغرفة الجلوس عن غرفة المؤونة، وغرفة المؤونة عن المدخل. كنت أُجذب من هنا ومن هناك، كما لو كنتُ في لعبةٍ ما وشعرتُ بالدُّوار.

«ماما انتبهي»، قالت لي إيلاريا، وأمسكتْ بيدي. كنت أترنَّح، كدت أقع ربَّما! ما إن وصلنا إلى المدخل حتى أشرت إلى صندوق العدَّة، قائلة:

«تناولي المطرقة، واتبعيني».

عدنا أدراجنا وهي تحمل بفخر المطرقة بيديْها الاثنتيْن. بدت سعيدة أخيرًا، لأنَّني أمُّها، وأنا أيضًا أسعدني ذلك. وعندما أصبحنا في غرفة الجلوس، قلت لها:

«ستجلسين الآن هنا، وتقرعين الأرض بدون أن تتوقَّفي أبدًا».

ارتسم على وجه إيلاريا تعبيرُ فرحٍ عارم:

«سنُغضب السيِّد كارانو هكذا».

«بالضبط».

«وماذا لو صعد ليعاتبنا؟»

«ناديني لأكلِّمه».

توجَّهتِ الطفلة إلى وسط الغرفة، وبدأتْ بتسديدِ ضرْباتٍ إلى الأرض ممسكةً بالمطرقة بيديْها الاثنتيْن.

خطر لي أنَّه آن الأوان لأعتني بجاني، فقد نسيته. أيّ أمّ طائشة أنا!

تبادلتُ نظرةَ تواطؤ أخيرة مع إيلاريا، وهممتُ بالذهاب، إلَّا أنَّ نظرتي استقرَّت على غرضٍ ملقًى في غير محلِّه عند أسفل المكتبة. كانت عبوة المبيد الحشريّ، كان يُفترض أن تكون في غرفة المؤونة، إلَّا أنَّها كانت هناك مطروحةً أرضًا وقد جعَّدتها أنياب أوتو، وكان بخَّاخ الرذاذ الأبيض قد نُزع منها.

لملمتها، وتفحَّصتها، ونظرت حولي ضائعةً، فوقع نظري على النملات، كانت تركض في صفٍّ على طول قاعدة المكتبة وقد استأنفت حصارها البيت، وربَّما كانت الخيطَ الأسودَ الوحيد

الذي ما يزال يحافظ على تماسك أجزائه! من غير عنادها، بدا لي أنَّ إيلاريا كانت لتكون الآن جالسة على شظيَّةٍ من الأرض أبعد بكثير ممَّا كنت أراها، وكانت الغرفة التي ينام فيها جاني أبعد من قلعةٍ رُفعت الجسورُ المؤدِّية إليها، وغرفة الآلام التي يُحتضر فيها أوتو كانت لتكون محجر موبوئين يُحظَّر الدخول إليه؛ ومشاعري، وأفكاري، وذكرياتي عن الحياة الماضية، والأماكن الغريبة، ومدينتي الأصليَّة، والطاولة التي كنت أستمع تحتها إلى قصص أمِّي، كانت لتكون غبارًا في ضوء أغسطس اللاهب. فلأدع النملات وشأنها. ربَّما لم تكن عدوًّا، وقد أخطأتُ حينما حاولتُ القضاء عليها، فتماسك الأشياء يوكل أحيانًا لعناصر مزعجة يبدو وكأنَّها تبلبل لُحمته.

كان لتلك الفكرة الأخيرة صوتٌ عميق، سُمع صداه، لم يكن صوتي. سمعت بوضوحٍ رنَّته، حتى إنَّه أفلح في تجاوز حاجز ضرْبات إيلاريا المنتظمة. رفعت نظري عن العبوة التي كانت بين يديَّ لتستقرّ على مكتبي. كان جسد مسكينة نابولي الورقيّ يجلس هناك وقد أُلصق جانبُ وجهها يدويًّا. كانت تُبقي نفسها على قيد الحياة بفضل أوردتي، كنت أراها حمراء، ومكشوفة، ورطبة، ونابضة؛ وكذلك الحَلْق، والأوتار الصوتيَّة، والنَّفَس الذي يبثّ فيها الذبذبات، كلُّها كانت لي. بعد أن لفظتْ تلك الكلمات المفكَّكة، عادتْ لتكتب على دفتري.

على الرَّغم من أنَّني لم أبرح موقعي، كنتُ قادرةً على رؤية ما تكتب. كانت تكتب ملاحظتها على صفحاتي. كانت تكتب بخطِّ يدي: هذه الغرفة واسعةٌ جدًّا، لا أستطيع التركيز، لستُ

قادرةً على أن أعيد تمامًا أين أنا، وماذا أفعل، ولماذا! الليل طويل، ولا ينقضي، لذلك هجرني زوجي. كان يريد ليالِيَ تنقضي على عجلٍ قبل أن يهرم ويموت. إنّي بحاجةٍ لأن أكتب كما ينبغي، لأن أمضي إلى كنْهِ كلّ سؤال، إلى مكانٍ أصغر وأكثر أمانًا. عليَّ أن أُلغي الفائض. عليَّ أن أضيِّق الفضاء. الكتابة الحقيقيَّة هي الكلام من أحشاء بطن الأمّ، وطيّ الصفحة، والبدء من جديد يا أولغا.

لم أنم هذه الليلة، قالت لي المرأة الجالسة إلى المكتب. ولكنْ أذكر أنّي آويتُ إلى الفراش. نمت قليلًا، واستيقظت ثم عاودت النوم. لا شكَّ في أنّني ارتميتُ بكامل ثقلي على السرير في وقتٍ متأخِّر جدًّا، قاطعةً إيّاه بشكلٍ موارب. لذا، ألفيتُ نفسي في ذاك الموقع الغريب عندما استيقظتُ.

انتبهي إذًا، أعيدي ترتيب الأحداث. أثناء الليل، كان شيءٌ ما داخلي قد استسلم، قد انكسر. كان العقل والذاكرة قد تصدَّعا، فالألم الطويل قادرٌ على ذلك. كنت أظنّ أنّني آويت للفراش، غير أنّني لم أفعل. أو ربَّما ذهبت للنوم ومن ثم نهضت. إنَّه الجسد المتمرِّد. كتبت في دفتري، كتبت صفحاتٍ وصفحات. كتبت باليد اليسرى لتحارب الخوف، لتتصدَّى أمام الإذلال. هذا ما جرى على الأرجح.

حملت العبوةَ في كفِّي، ربَّما تحاربتُ الليل بطوله مع النملات عبثًا. رششت المبيد الحشريّ في كلّ غرفة من البيت، ولذا كان أوتو الآن مريضًا، ولذلك تقيَّأ جاني مرارًا. أو ربَّما لا، كانت جوانبي الغامضة تخترع ذنوبًا ليست ذنوبَ أولغا. أرسم

نفسي امرأةً مُهملة، وغير مسؤولة، وعاجزة؛ أدفع نفسي باتِّجاه احتقار الذات ما يُسهم في مزيدٍ من تشويش الوضع الحقيقيّ، وما يحول دون أن أرسم الهوامش، وأن أحدِّد ما كان ممَّا لم يكن.

وضعتُ العبوة على أحد الرفوف، وتراجعتُ باتِّجاه الباب على رؤوس أصابعي، كما لو أنَّني لم أشأ إزعاج طيف المرأة الجالسة إلى المكتب وقد استأنفت الكتابة، فيما إيلاريا تتابع الطرْق بمنهجيَّة. توجَّهت مجدَّدًا إلى الحمَّام مصارعةً ذنوبي المتخيَّلَة. يا للطفل المسكين، ابني الحنون! بحثت عن دواء نوفالجين في فوضى خزانة الأدوية. وعندما عثرت عليه، سكبت اثنتي عشرة قطرة (اثنتي عشرة بالضبط) في كوب ماء. أيُعقل أن أكون قد تصرَّفت من غير أدنى حذر إلى هذا الحدّ؟ أيُعقل أن أكون قد رششت المبيد الحشريّ ليلًا إلى أن استنفدت العبوة، فيما النوافذ كلُّها موصدة؟!

من الرُّواق، كنتُ أسمع جاني يتقيَّأ. رأيتُه يطلّ من سريره وقد فتح عينيْه على وسعهما، وامتقع وجهه، وفغر فاه، فيما كانت قوَّة تهزُّه من الداخل من دون أيّ جدوى. لحُسن الحظّ أنِّي ما عدتُ أستطيع حفظَ أيّ شيء. لا أحاسيس، ولا انفعالات، ولا شكوك. ها إنَّ الإطار يتبدَّل من جديد، معطيات أخرى، احتمالات أخرى. خطر على بالي المندفع أمام القلعة: ماذا لو تنشَّق جاني عندما تسلَّل إلى داخل المدفع العتيق مرض مآسٍ ومناخاتٍ بعيدة، تنشَّق إشارة عالمٍ في حالة غَلَيان، يعمّه التبدُّل، حدودٌ تتمدَّد، البعيد الذي يصبح قريبًا، أصوات تقلُّبات، أحقادٌ قديمة وحديثة، حروبٌ بعيدة أو ربَّما على الأبواب؟

كنت قد استسلمتُ للخيالات كلِّها، وللمخاوف كلِّها. العالم المنطقيّ الذي بنيته بعد المراهقة قد رقّ. وعلى الرَّغم من محاولاتي لأن أكون بطيئة، ولأن أفكِّر مليًّا بحركاتي، تحرَّك ذاك العالم حولي على مرِّ السنوات بصخبٍ شديد، وقد تحوَّل شكله الكرويّ إلى لوحٍ رقيقٍ ومستدير، إلى حدِّ أنَّه لفرط ما تساقطت قطعٌ منه بدا مثقوبًا في وسطه، وسرعان ما سيُمسي خاتمَ زواج ليتبدَّد في النهاية.

جلستُ قرب جاني، ووضعت يدي على جبينه، وشجَّعته على التقيُّؤ. بصق لعابًا ضاربًا إلى الأخضر وقد أُنهك، وسقط بعدها مستلقيًا على ظهره باكيًا.

«ناديتكِ ولم تأتِ»، عاتبني وهو يبكي.

مسحتُ فمه، وعينيْه. اعترضتني بعض المشاكل، قلتُ مبرِّرة. كان عليَّ أن أحلَّها في الحال. لم أسمعه.

«هل صحيح أنَّ أوتو أكل السمّ؟»

«لا، ليس هذا صحيحًا».

«هذا ما قالته لي إيلاريا».

«أشعر بالألم هنا»، قال لي متنهِّدًا وهو يُشير إلى ظاهر رقبته، وعنقه. «أشعر بألمٍ شديد، لكنَّني لا أريد التحميلة».

«لن أُعطيك إيَّاها، عليك فقط أن تتناول هذه القطرات».

«ستجعلني أتقيَّأ من جديد».

«القطرات لا تجعلك تتقيَّأ».

شرب الماء بصعوبة، وأصابته نوبةُ غَثَيان جديدة، ومن ثم

تراخى على الوسادة. تحسَّستُ جبينه. كان لاهبًا. بدا لي أنَّ جلده الناشف لا يُحتمل، جلدٌ حارقٌ ككعكةٍ أُخرجت لتوِّها من الفرن. بدا لي أنَّ طرْق إيلاريا لا يُحتمل على الرَّغم من المسافة. كانت ضرْبات قويَّة يُسمع صداها في كافَّة أرجاء البيت.

«ما هذا؟» سألني جاني خائفًا.

«أشغال في بيت جارنا».

«إنَّه يزعجني. اذهبي وقولي له أن يتوقَّف».

«حسنًا» قلت له مطَمْئِنةً، وأجبرته على وضع المحرار. لم يُوافق، إلَّا لأنَّني عانقته بقوَّة بذراعيَّ وضممته إليّ.

«طفلي الصغير»، رحت أرنِّم وأنا أهدهده «طفلي الصغير المريض الذي سيُشفى الآن».

خلال دقائق معدودة، وعلى الرَّغم من ضرْبات إيلاريا المستمرَّة، غرق جاني في النوم، إلَّا أنَّ جفنيْه لم ينطبقا تمامًا، كان ريفهما زهريًّا، وخيطٌ أبيض يمتدّ بين الأهداب. انتظرتُ لبعض الوقت والقلق يتملَّكني بسبب تنفُّسه المتسارع، وحركة البؤبؤيْن التي كانت تتبدَّى خلف الجفنيْن، ونزعت بعد ذلك المحرار. كان الزئبق قد طار إلى الأعلى ليبلغ الأربعين درجة تقريبًا.

وضعتُ المحرار على المنضدة بقرف، كما لو كان حيًّا. فيما وضعتُ جاني على الشرشف وعلى الوسادة مراقبةً ثقب فمه الأحمر الفاغر، وكأنَّه ميِّت. كانت ضربات إيلاريا تقرع دماغي. يجب أن أعود إلى ذاتي، وأصحِّح ما أسأت فعله ليلًا ونهارًا.

هما ابناي، رحت أفكّر لأُقنع نفسي، هما من صُلبي. وحتى لو أنَّ ماريو أنجبهما مع امرأةٍ ما تخيَّلها، وحتى لو أنَّني ظننتُ نفسي أولغا وأنا أنجبهما له، وحتى لو أنَّ زوجي يُعلِّق معنًى وقيمةً الآن فقط على فتاة تُدعى كارلا في انبهارٍ آخر من انبهاراته، ولا يعترف حتى بجسدي، والجسد الذي أوكله لي ليتمكَّن من حبِّي، وتخصيبي، وحتى لو لم أكن أنا ذاتي يومًا تلك المرأة، أو حتى، وهو ما أعرفه الآن، أولغا التي كنت أظنّ أنَّني كنتُها، وحتى لو كنتُ، يا إلٰهي، توليفةً مفكَّكة من جوانب مختلفة، غابةً من الصور المكعَّبة التي أجهلها حتى أنا نفسي.. إلَّا أنَّ هذيْن المخلوقيْن منِّي، ابناي الحقيقيَّان اللذان وُلدا من جسدي، هذا الجسد، وأنا مسؤولة عنهما.

لذا، وبجهدٍ كلَّفني تعبًا يكاد لا يُطاق، وقفت على قدميَّ. يجب أن أتمالك نفسي، وأن أفهم. عليَّ أن أُنشِّط اتِّصالاتي في الحال.

28

أين وضعتُ الهاتف الخلويّ؟ يوم كسرته أين وضعت أجزاءه؟ ذهبت إلى غرفة النوم، بحثت في دُرج منضدتي. كان هناك جزءان منفصلان من اللون الليلكيّ.

على الرَّغم من أنَّني لم أكن أعرف أيّ شيء عن آليَّة عمل الهواتف الخلويَّة، وربَّما لذلك تحديدًا حاولت أن أُقنع نفسي أنَّه لم يكن معطوبًا، تفحَّصت الجزء الذي يضمّ الشاشة والرتّابة، ضغطتُ على زرِّ التشغيل، فلم يحدث أيّ شيء. قلت لنفسي إنَّه ربَّما عليَّ أن أصل الجزأيْن ببعضهما بعضًا لأشغِّله. عالجته قليلًا بدون أيّ منهجيَّة. أعدت البطَّاريَّة إلى مكانها بعد أن خرجتْ منه، وحاولتُ جمع الجزأيْن. اكتشفتُ أنَّ الجزأيْن كانا قد انفصلا، لأنَّ الجزء الأوسط كان قد انكسر، وقد تشظَّى الضلع الذي يُفترض إدخال الجزأيْن فيه: نصنِّع أغراضًا تُشبه أجسادَنا، جزء متداخل بالآخر، أو نخطِّط لها، ونتصوَّرها متَّحدة كما نتَّحد نحن

بالأجساد المشتهاة. مخلوقات تولد من خيالٍ تافه. ماريو، بدا لي فجأةً، على الرَّغم من نجاحه في عمله، وعلى الرَّغم من كفاءاته وذكائه المتّقد، رجلًا ذا خيالٍ تافه. وربَّما، لهذا السبب تحديدًا، كان ليُعيد تشغيل الهاتف الخلويّ. وهكذا، كان لينقذ الكلب، والطفل. يعتمد النجاح على قدرة إدارة المؤكَّد بدقَّة الحساب. لم أعرف كيف أتأقلم، لم أعرف كيف أُذْعِن تمامًا لنظرة ماريو. بذلتُ ما في وسعي. وبعنادي، تظاهرت أنَّني زاوية مستقيمة، حتى إنَّني تمكَّنتُ من خنق دعوتي للتنقُّل من صورةٍ خياليَّة لأخرى. لم يكن ذلك كافيًا، فقد توارى على كلِّ حال، وراح ليلتحق بشكلٍ أكثر ثباتًا في مكانٍ آخر.

لا، كفى. فلأفكِّر بالهاتف الخلويّ. عثرت في الدُّرْج على شريطٍ أخضر. ربطت النصفيْن إلى بعضهما بعضًا على نحو وثيق، وحاولت ضغط زرِّ التشغيل. لا شيء. كنت آمل في أن يحدث سحرٌ ما، حاولت أن أتبيَّن إذا ما كان هناك خطّ. لا شيء، لا شيء، لا شيء.

تركت الجهاز على السرير وقد أنهكني طرْق إيلاريا، ومن ثم تذكَّرت في لمح البرْق الكومبيوتر. أيُعقل أنَّني لم أفكِّر بذلك. الذنب ذنب ما أنا عليه. كانت معرفتي محدودة، كانت آخر عمليَّة تحقّق أستطيع القيام بها. ذهبت إلى غرفة الجلوس، تحرَّكت كما لو أنَّ الضرْبات كانت ستارًا رماديًّا، ستارًا مسرحيًّا، كان عليَّ أن أشقّ لي دربًا مادَّةً ذراعيَّ، ويداي تتلمَّسان دربي.

رأيت الطفلة تجلس القرفصاء، وتقرع البلاطةَ نفسها. كان قرْعًا لم أحتمله، ولم يكن يحتمله كارانو على الأرجح!

«هل أستطيع التوقُّف؟» سألتني والعرق يكسوها، وقد احمرَّ وجهها، والتمعت عيناها.

«لا، الأمر مهمّ.. استمرّي».

«قومي بذلك أنتِ، لقد تعبتُ».

«لديَّ أمر طارئ آخر أقوم به».

إلى مكتبي، لم يكن يجلس الآن أحد. جلستُ، لم يكن الكرسيّ يستبقي أيّ حرارة إنسانيَّة. أدرت الكومبيوتر، وذهبت إلى مفتاح البريد وضغطتُ عليه، لأتلقّى الرسائلَ الإلكترونيَّة وأُرسلها. كنت آمل بالاتِّصال بالشبكة على الرَّغم من العطل الذي كان يمنعني من إجراء المكالمات. كنت آمل أن يكون العطل محصورًا فقط بالجهاز، كما قال لي عامل الهاتف. فكَّرت في بعث رسائل استغاثة إلى جميع الأصدقاء والمعارف المسجَّلين في لائحتي ولائحة ماريو. بيد أنَّ الكومبيوتر حاول أكثر من مرَّة الاتِّصال بالشبكة عبثًا. كان يبحث عن الخطّ بأصواتِ استياءٍ طويلة، كان ينفخ، وما يلبث أن يستسلم. ضغطتُ على طرفَي الرتّابة، والتفتُّ إلى هنا وإلى هناك لكي لا أشعر بالقلق، وكانت عيناي بين الحين والآخر تستقرّان على دفتري الذي كان ما يزال مفتوحًا على الجُمل التي سُطِّرت بالأحمر: «أين أنا؟ ماذا أفعل؟ لماذا؟». كلمات آنَّا، وقد أثارتها بغباء شكوكها بأنَّ عشيقها سيُقدم على خيانتها، وهجرها. أيَّة انفعالاتٍ لاعقلانيَّة تدفعنا إلى أن نطالب بالمعنى. قطع قرْع إيلاريا لبرهة الخيطَ القلِق للأصوات المنبعثة من الكومبيوتر، كما لو أنَّ سمكة أنقليس تنسلّ في الغرفة فيما الطفلة تقطِّعها إلى أجزاء. قاومتُ قدر ما استطعتُ، ومن ثم أُسقط بيدي.

«كفى» صحتُ.. كُفِّي عن الطَّرْق بهذه الطريقة!»

فغرت إيلاريا فاها لفرط المفاجأة، وتوقَّفت.

«سبق وقلتُ لكِ إنِّي أريد التوقُّف».

أشرتُ بالإيجاب مضطربة. أنا استسلمتُ، أمَّا كارانو فلا. لا حياة لمن تُنادي في أيٍّ من زوايا المبنى. كنت أخبط خبْط عشواء، ولم أكن قادرةً على اتِّباع استراتيجيَّة. وحليفتي الوحيدة في هذا العالم كانت طفلةً في السابعة من العمر، وكان يُحْدِق بي دائمًا خطرُ تأزيم علاقتي بها.

نظرتُ إلى شاشة الكومبيوتر، لا نتيجة. نهضتُ، وذهبت لمعانقة الصغيرة وقد صدر عنِّي تأوُّهٌ عميق.

«هل يؤلمك رأسك؟» سألتني.

«سينقضي كلّ شيء»، أجبتها.

«هل أدلك لك صدغَيْكِ؟»

«نعم».

جلست أرضًا، فيما كانت إيلاريا تحفّ صدغيَّ بدقَّة بأصابعها. ها أنا أستسلم مجدَّدًا! أأظنُّ أنَّ الوقتَ المُتاح أمامي طويل؟ جاني، أوتو.

«سأجعلكِ تشفين من كلّ شيء» قالت.. «هل تشعرين بتحسُّن؟»

أشرت بالإيجاب.

«لماذا وضعتِ هذا الملقط على ذراعكِ؟»

انتفضتُ، رأيتُ الملقط بعد أن نسيته. كان الألم الصغير

الذي يتسبَّب لي به قد تحوَّل جزءًا لا يتجزَّأ من لحمي، أي لم يعد له من طائل. نزعته وتركته على الأرض.

«أحتاجه لأتذكَّر. اليوم، أنا أنسى كلّ شيء، لست أدري ما عساني أفعل».

«سأساعدك أنا».

«هل أنتِ جادَّة؟»

نهضتُ، وتناولتُ عن المكتب سكِّينًا معدنيًّا لقطع الورق.

«خذي هذا»، قلت لها، «وإذا رأيتِ أنَّني أشرد خزيني».

تناولتِ الطفلة السكِّين، وتفحَّصتني بانتباه.

«كيف أعرف أنَّكِ شردتِ؟»

«ستُدركين ذلك. الشخص الشارد لا يشمّ الروائح، ولا يسمع الكلمات، ولا يشعر بأيِّ شيء».

أشارت إلى السكِّين.

«وماذا لو لم تشعري حتى بهذا؟»

«خزيني إلى أن أشعر به. تعالي الآن».

29

جررتها خلفي حتى غرفة المؤونة. بحثتُ في كلِّ مكان عن حبلٍ متين. كنت على ثقةٍ أنَّ لديَّ واحدًا. إلَّا أنَّني لم أعثر سوى على مكبٍّ لخيوط ربط العلب. توجَّهت إلى المدخل، وربطتُ طرف الخيط بقطعة الحديد القصيرة التي تركتها أرضًا أمام الباب المصفَّح، تتبعني إيلاريا. عدتُ إلى غرفة الجلوس، وخرجت إلى الشرفة.

صفعتني ريحٌ ساخنة، كانت قد أحنت لتوِّها الأشجار مخلِّفة وراءها حفيف الشجر المستاء. كدتُ أفقد أنفاسي وقد التصق قميص النوم القصير بجسدي. أمسكتُ إيلاريا بطرفه بيدها، كما لو كانت تخشى أن تطير. كانت تعبق في الهواء رائحة النعناع البرِّيّ، والغبار، ولحاء أحرقته الشمس.

أطللتُ من وراء الحاجز، وحاولت النظر إلى شرفة كارانو في الأسفل.

«حاذري أن تقعي»، قالت لي إيلاريا قلقةً شادَّةً إيَّايَ بطرف قميصي.

كانت النافذة موصدة، ولم تكن تُسمع سوى زقزقة العصافير، وهدير الحافلات البعيد. كان النهر طبقةً رماديَّةً فارغة. لا أصوات آدميَّة. وعلى طول الطوابق الخمسة في الأسفل، إلى اليمين وإلى اليسار، لم أرصد أيّ إشارة حياة. أصخيت السمع لتصلني موسيقى تنبعث من مذياع، أغنية، أصوات برامج تلفزيونيَّة.. لا شيء، لا شيء قريب على الأقلّ، لا شيء يشذّ عن حفيف الأوراق بين الفينة والأخرى وقد حرَّكتها الرياح غير الطبيعيَّة اللاهبة. صرخت أكثر من مرَّة بصوتٍ واهن، لم يكن قويًّا يومًا:

«كارانو! آلدو! هل من أحد هناك؟ النجدة! ساعدوني».

لم يحدث أيّ شيء، انتزعتِ الريح من شفتيَّ الكلمات، كما لو كنت أحاول أن أتلفَّظ بها فيما كنت أقرِّب من فمي فنجانًا من سائلٍ يغلي.

إيلاريا المتوتِّرة، كما يبدو، سألتني:

«ما حاجتنا إلى المساعدة؟»

لم أُجبها، لم أكن أعلم ما عليّ أن أقوله لها. همهمتُ قائلة فقط:

«لا تقلقي، سنساعد أنفسنا بأنفسنا».

مرَّرت قطعة الحديد وراء الحاجز، أنزلتها وقد ربطتها بالحبل إلى أن لمست الدرابزين لدى كارانو. انحنيتُ لأرى المسافة الفاصلة عن النافذة، فتركتُ إيلاريا في الحال ذيل قميصي، إلَّا

أنَّها ضمَّت ساقي العارية إليها، وشعرتُ بها تتنفَّس على الجلد، قائلة:

«أنا ممسكة بكِ ماما».

مددت ذراعي اليمنى ما استطعت، وضغطتُ بقوَّة الخيطَ بين إبهامي وسبَّابتي، حرَّكتُ قطعة الحديد بشكل متعرِّجٍ باندفاعاتٍ سريعةٍ وحاسمة. راحت قطعة الحديد تذهب وتجيء، كما لو كانت رقَّاص ساعةٍ على طول شرفة كارانو. لأنجح في حركتي، رحت أحني أكثر فأكثر جذعي فوق الحاجز. كنت أصوِّب عينيَّ إلى العارضة، كما لو كنت أريد تنويم نفسي. كنت أرى قطعةً قاتمةً مدبَّبة تطير تارةً فوق الأرض، وطورًا تتراجع إلى الخلف لتمسّ درابزين جاري. سرعان ما تبدَّد خوفي من السقوط، وبدا لي أنَّ شرفتي لم تكن بعيدة عن الطريق أكثر من طول الخيط. كنت أريد ضربَ زجاج كارانو.. كنت أريد أن تكسره العارضة وأن تدخل إلى شقَّته، وإلى غرفة الجلوس حيث استقبلني في قلب الليل. شعرت برغبةٍ بالضحك. لا شكَّ في أنَّه كان مستلقيًا بتكاسلٍ في سريره غارقًا في شبه نَوْم، رجلٌ على شفير التداعي الجسديّ، انتصابه غير أكيد، رفيقٌ عابر وغير قادرٍ على تسلُّق تلَّة الإذلال. وأنا أتصوَّر كيف يقضي نهاراته، شعرت تجاهه بشيءٍ من الاحتقار. خاصَّة في ساعات النهار الحارَّة. كان يمضي قيلولةً طويلة في الظلِّ، متعرِّقًا وأنفاسه ثقيلة، ينتظر أن يتوجَّه للعزف في إحدى الفرق الموسيقيَّة التافهة وقد فقد كلّ أمل. تذكَّرت لسانَه الخشن، ومذاق فمه المالح، ولم أنتفض إلَّا عندما شعرت برأس سكِّين ورق إيلاريا على جلدِ فخذي الأيمن. طفلةً نبيهة، متنبِّهة،

حسَّاسة. كانت تلك الإشارة الحسِّيَّة التي أحتاجها. مرَّرت الخيط بين أصابعي، فضاعت العارضة بسرعةٍ كبيرة تحت طابق شرفتي. سمعتُ صوت تحطُّم الزجاج، وانقطع الخيط، ورأيت العارضة تتدحرج على بلاط الشرفة في الأسفل، وتصطدم بالدرابزين وترتدَّ إلى أحد الجوانب، وتسقط في الفراغ. سقطتْ عميقًا تتبعها شظايا لامعة من الزجاج، وهي تصطدم عند كلِّ طابق بدرابزين الشرفات الأخرى المتطابقة. عارضةٌ سوداء ما فتئت تصغر، استقرَّت على الإسفلت مرتدَّة مرارًا مصدرةً رنينًا بعيدًا.

تراجعتُ خائفةً، استعادت هاوية الطابق الخامس عمقها. شعرت بإيلاريا وهي تعانق ساقي. انتظرت صوت الموسيقيّ العميق، والغضب للأضرار التي تسبَّبتُ بها. لم يصدر أيّ ردّ فعل. إلَّا أنَّ العصافير عادت، كما عادت موجات الهواء المحروق التي تصفعني وتصفع الطفلة، ابنتي، ذاك الاختراع الحقيقيّ لِلَحْمي الذي يُجبرني على مواجهة الواقع.

«كنتِ بارعة»، قلت.

«لو لم أُمسكِكِ لسقطتِ».

«هل تسمعين شيئًا؟»

«لا».

«فلننادِ إذًا: كارانو، كارانو، النجدة!»

صرخنا معًا، طويلًا، إلَّا أنَّه لم تصدر أيّ إشارة عن كارانو، بيد أنَّ نباحًا طويلًا وواهنًا أجابنا، ربَّما كان كلبًا بعيدًا تُرك صيفًا عند قارعة الطريق، أو ربَّما هذا أوتو! نعم هو، الذئب.

30

يجب أن أُعيد تشغيل نفسي في الحال، عليَّ أن أفكِّر في حلول. يجب أن أتفادى الاستسلام أمام هذا اليوم الخاوي من المعاني، وأن أُبقي على جُزَيْئيَّات حياتي مجتمعةً، كما لو كانت أجزاء رسم ما. أشرتُ إلى إيلاريا بأن تتبعني، وابتسمتُ لها. أصبحت هي الآن الورقة الرابحة وهي تمسك بيدها بسكِّين قَطْع الورق، كانت مفاصل أصابعها بيضاء لشدَّة ما كانت تؤدِّي مهمَّتها بجدِّيَّة.

خُيِّل إليَّ أنَّها كانت ربَّما لتنجح حيث فشلتُ أنا. عدنا إلى المدخل أمام الباب المصفَّح.

«حاولي إدارة المفتاح»، طلبت منها.

نقلت إيلاريا السكِّين من يُمناها إلى يُسراها، ومدَّت ذراعها. كان يصعب عليها الوصول إلى المفتاح، لذا طوَّقتها عند الخصر، ورفعتها بِقَدْرِ ما ينبغي.

«هل أُديره بهذا الاتِّجاه؟» سألتني.

«لا، بالاتِّجاه الآخر».

يدها ناعمةٌ وأصابعها من بخار. حاولتْ مرَّة بعد مرَّة، إلَّا أنَّها لم تكن تمتلك القوَّة الكافية. ما كانت لتنجح في إدارة المفتاح حتى لو لم يعلق بالقفل.

وضعتها أرضًا. خاب أملها، لأنَّها لم تُثبت أنَّها على قدر مسؤوليَّة هذا الواجب الجديد الذي ألقيته على عاتقها.

فجأةً، غضبت عليَّ.

«لماذا تجعلينني أقوم بما يجب أن تقومي به أنتِ؟»

«لأنَّكِ أبرع منِّي».

قالت متوجِّسة «ألم تعودي تعرفين كيف تفتحين الباب؟»

«لا».

«كما في تلك المرَّة؟»

نظرتُ إليها بِحيرة.

«أيّ مرَّة؟»

«عندما ذهبنا إلى الريف».

شعرت بوخزةٍ طويلة في صدري، كيف يمكنها تذكُّر ذلك، لم تكن قد تجاوزت آنذاك الثالثة من العمر!

أضافت «أنتِ أحيانًا غبيَّة مع المفاتيح، وتسوِّدين وجهك» لتثبت لي أنَّها تذكر تمامًا ما جرى.

هززتُ رأسي. لا، كانت علاقتي بالمفاتيح طيِّبةً عامَّةً. كنت أفتح الأبواب عادةً بحركاتٍ طبيعيَّة، لم أكن أشعر بأيّ قلقٍ من

أن تعلق في الأقفال. ولكنَّني أحيانًا، لا سيَّما أمام أقفالٍ أجهلها، كغرفةٍ في فندق مثلًا، كنت أضيع في الحال.. وعلى الرَّغم من شعوري بالخجل، كنت تراني رائحةً غادية من مكتب الاستقبال، لا سيَّما إذا ما كان المفتاح إلكترونيًّا. كما كانت الشرائح الممغنطة تقلقني. كانت فكرةٌ جانبيَّة واحدة، وتوقُّع مواجهة الصعاب، كافيَيْن لتفقد الحركة طبيعيَّتها، وكان يصادف ألَّا أتمكَّن من فتح الباب!

اليدان تنسيان، والأصابع لا تذكر الإمساك بالمفتاح، والضغط الذي يجب أن تمارسه. كما في تلك المرَّة عندما شعرت بالإذلال. جينا، أمّ الأفعى الصغيرة كارلا، كانت قد أعطتني مفاتيحَ منزلهما في الريف لأقصده مع الولديْن. ذهبت إلى هناك، كان ماريو مشغولًا، وكان يُفترض أن يوافينا في اليوم التالي. عند العصر، وبعد رحلةٍ استغرقت ساعتَيْن في السيَّارة، وقد وتَّرني ازدحام سير نهاية الأسبوع الشديد، ومشادَّات الطفليْن المستمرَّة، ونُباح أوتو الذي كان ما يزال جروًا، بلغتُ مقصدي. طيلة الرحلة وأنا أفكِّر كيف أسرف وقتي بغباء. لم أعد قادرة على القراءة، لم أعد أكتب، لم يكن لديَّ من دورٍ اجتماعيٍّ يُتيح لي أن ألتقي بنفسي بأشخاصٍ جدد، أن أعيش نزاعاتٍ وصداقات.. إلى ماذا آلت المرأة التي كنت أتخيَّل أنَّني سأكونها في مراهقتي؟ كنت أحسد جينا التي كانت تعمل آنذاك مع ماريو. كان لديهما دائمًا ما يناقشانه، كان زوجي يتكلَّم معها أكثر ممَّا يتكلَّم معي. وكانت كارلا تُزعجني بعض الشيء، تبدو واثقةً تمامًا من مصيرها، وتذهب أحيانًا لانتقادي، كأن تقول إنَّني أخصِّص وقتًا طويلًا

لابنَيَّ، وللبيت. كانت تمدح كتابي الأوَّل، وتصيح: لو كنتُ مكانكِ لفكَّرت بالدرجة الأولى بموهبتي. لم تكن غايةً في الجمال فقط، بل كانت أمُّها قد ربَّتها على أنَّ مستقبلًا باهرًا ينتظرها حكمًا. كان يبدو من الطبيعيّ بالنسبة لها أن تُدلي بدلوها حول كلّ شيء، على الرَّغم من أنَّها لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، وغالبًا ما كانت تسعى لتلقيني الدروس. كانت تُصدر الأحكام حول أمورٍ لا تفقه منها شيئًا! وراح صوتها وحده يُثير عصبيَّتي.

ركنت سيَّارتي في الفِناء، وقد أثارت أفكاري اضطرابي. ماذا كنت أفعل هناك مع طفليْن وجرو كلب؟ كنت قد توجَّهت إلى الباب وحاولت فتحه، لكنَّني لم أفلح في ذلك. وعلى الرَّغم من أنَّني أعدتُ الكرَّة مرارًا، فيما كان الظلام يحلّ، وكان جاني وإيلاريا يبكيان من التعب والجوع، فشلتُ في فتحه. لكنَّني لم أشأ الاتِّصال بماريو حرصًا على عزَّة نفسي، وكبريائي، ولكي لا أُجبره على الحضور لمساعدتي بعد يوم من العمل المضني. كان الطفلان وأوتو الصغير قد أكلوا البسكويت، وناموا في السيَّارة. أمَّا أنا، فعاودت المحاولة، حاولت مرَّة بعد مرَّة، وقد آلمتني أصابعي وتخدَّرتْ إلى أن عدلتُ عن المحاولة، وجلستُ على إحدى الدرجات.. وتركت الليل يُرخي بثقله عليّ.

وصل ماريو صباحًا عند العاشرة، ولكنَّه لم يكن وحيدًا. كانت ترافقه، بدون سابق إنذار، صاحبتا البيت. ما جرى؟ كيف؟ لماذا لم تتَّصلي؟ شرحت ما جرى متأتئةً، وأنا أستشيط غضبًا، لأنَّ زوجي، وقد شعر بالارتباك، راح يسخر من عجزي. كان

يصفني كامرأةٍ واسعة الخيال لا تُحسن تصريف الشؤون العمليَّة! أيْ غبيَّة بالمحصِّلة. تبادلتُ، كما أذكر، نظرةً طويلة مع كارلا، بدت لي نظرة تواطؤ، وتفاهم، كما لو أرادت أن تقول لي: تمرَّدي، قولي كيف هو الوضع بالضبط، قولي إنَّك أنتِ من يواجه يوميًّا الحياة العمليَّة، والواجبات، وهمّ الطفليْن. فاجأتني تلك النظرة، لكنَّني لم أكن قد فهمتُ بالطبع معناها الحقيقيّ، أو ربَّما فهمته! كانت نظرةَ فتاةٍ صغيرةٍ تتساءل كيف عساها تعامل ذاك الرجل الجذَّاب لو وجدتْ نفسها مكاني. في هذه الأثناء، كانت جينا قد أدخلت المفتاح في القفل، وفتحت الباب بدون أدنى عقبة.

انتفضت، شعرتُ برأس السكِّين على جلد الذراع اليسرى.

قالت لي إيلاريا «لقد شردتِ».

«لا، كنت أفكِّر فقط أنَّكِ محقَّة».

«محقَّة حول ماذا؟»

«أنتِ محقَّة. لماذا لم أتمكَّن من فتح الباب في تلك المرَّة؟»

«سبق أن قلتُ لكِ، لأنَّك غبيَّة أحيانًا».

«نعم».

31

نعم، كنت غبيَّة. كانت قنوات المعنى قد أُقفلت، ولم يكن يتدفَّق فيها نسغُ الحياة منذ مدَّةٍ طويلة. كم أخطأتُ في أسرِ معنى وجودي داخل الطقوس التي كان يقدِّمها لي ماريو بمحبَّةٍ زوجيَّةٍ حذرة! كم أخطأتُ عندما أوكلت معنى نفسي لثنائه، وحماسته، ومسيرة حياته التي ما انفكَّت تدرّ له المزيد من الثمار! كم أخطأتُ عندما ظننت أنَّني لا أستطيع العيش من دونه، على الرَّغم من أنَّني لم أعد واثقةً منذ زمنٍ بعيد أنَّني حيَّة معه. أين كان جلده تحت أصابعي مثلًا، أين كانت حرارة الفم؟ إذا ما تساءلت مليًّا، وهو ما تجنَّبته دومًا، كان عليّ أن أقرّ أنَّ جسدي في السنوات الأخيرة كان متلقِّيًا تمامًا، ومضيافًا في مناسباتٍ غامضة، في مصادفاتٍ محضة، كالفرح عند رؤيةِ شخصٍ عرفته معرفةً عابرة مرَّةً إثر مرَّة وقد أثنى على ذكائي، وموهبتي، ولمس يدي بإعجاب؛ وارتجافة فرحٍ مباغتة لِلقاءٍ غير متوقَّع في الطريق؛

وزميل عمل من زمنٍ ماضٍ، والجُمل المتبادلة، أو فواصل الصمت مع صديقٍ لماريو جعلني أفهم أنَّه يريد أن يكون صديقي أنا بالذات؛ والسعادة لبعض التصرُّفات الملتبَسة تجاهي في مناسباتٍ كثيرة.. أكان ذلك صحيحًا أم لا، لا بل هو صحيحٌ أكثر منه غير صحيح، لا سيَّما إذا ما أردت ذلك، إذا ما شكَّلت رقم هاتفٍ متذرِّعةً بعذرٍ مناسب في الوقت المناسب، وتسارع ضرْبات القلب أمام الأحداث التي يصعب توقُّع ما قد تؤول إليه.

ربَّما كان عليَّ أن أرحل من هناك، عندما قال لي ماريو إنَّه يريد أن يهجرني. كان عليَّ أن أبتعد عن فكرةِ أنَّ صورة رجلٍ جذَّابٍ وشبه غريب، رجلٍ تحمله المصادفة، رجل «الربَّما» الذي عليَّ أن أُمسك بطرف الخيط لِأُدركه، لكنَّه يستحقّ الجهد، كانت قادرةً على إسباغ معنًى على رائحة بنزين عابرة مثلًا، أو على جذع شجرة دلب رماديّ في المدينة، وقادرةً أن تُحدِّد إلى الأبد في مكان اللقاءِ المصادفة ذاك إحساسًا عارمًا بالفرح، انتظارًا ما. إلَّا أنَّ شيئًا في ماريو لم يكن يمتلك قدرةً مزلزلة، وكانت كلّ حركةٍ تحمل القدرةَ فقط على أن تُدرَج في المكان المناسب، في الشبكة الآمنة نفسها بدون هدر، وبدون مبالغات.

لو رحلتُ عن ذاك المكان، عن انفعالاتي السرِّيَّة، لربَّما فهمتُ على نحوٍ أفضل لماذا مضى، ولماذا أشعر الآن أنا، أنا التي آثرتُ دائمًا ترتيب عواطفنا المستقرّ على فوضى الدم بين الفينة والأخرى، بحسرة الفقدان العنيفة، بألم لا يُطاق، وقلقِ أن أهوي خارج نسيج الثوابت، وأن أُجبر على إعادةِ تعلُّم الحياة من غير أن أكون واثقةً من قدرتي على ذلك.

عليَّ، على سبيل المثال، أن أتعلَّم من جديد كيف أُدير مفتاحًا في قفل باب. أيُمكن أن يكون ماريو برحيله قد انتزع من يديّ تلك المهارة؟ أيُمكن أن يكون قد شرع بذلك منذ حادثة الريف عندما بدأ استسلامه الهانئ إلى غريبتَيْن، يمزِّقني من الداخل، وينتزع من أصابعي القدرةَ على التقاط الأشياء؟ أيُعقل أن يكون اختلالي وألمي قد بدأا آنذاك فيما كان يتحقَّق تحت أنظاري من سعادته في الإغواء، وفيما كنت أتبيَّن في وجهه ملامح متعة، كنتُ قد لامستها غالبًا، إلَّا أنَّني علَّقتها دائمًا مخافةَ أن أحطِّم ضمانات علاقتنا؟

وخزتني إيلاريا، أكثر من مرَّة كما أظنّ، فآلمتني حتى إنَّني انتفضت مبتعدةً عنها، فتراجعتْ صائحة:

«أنتِ طلبتِ منِّي أن أخزكِ!»

أشرت بالإيجاب، وطمأنتها بحركةٍ منِّي، وباليد الأخرى مسَّدت رسغي حيث وخزتني. حاولت مرَّةً أخرى فتح الباب، لكنَّني لم أفلح. انحنيتُ عندئذٍ، وتفحَّصت المفتاح عن كثب. أُخطئ إذا ما بحثتُ عن بصمات الحركات المعهودة، عليَّ بتفكيكها. تحت نظرة إيلاريا المدهوشة، قرَّبت فمي من المفتاح، تذوَّقته بفمي، وشممتُ رائحة البلاستيك والمعدن عليه. أطبقت أسناني عليه بحزم، وحاولت أن أديره. قمت بذلك بحركةٍ مباغتة، كما لو كنت أريد أن أفاجئ المفتاح، وأفرض عليه وضعًا جديدًا، وتبعيَّة مختلفة. سنرى الآن مَنِ الغالب، كنت أقول في سرِّي فيما كان طعمٌ عجينيٌّ ومالح يجتاح فمي، إلَّا أنَّني لم أحقِّق أيَّ نتيجة باستثناء انطباعي أنَّ الحركة الدائريَّة التي كنت أفرضها

على المفتاح بأسناني، من غير أن أتوصَّل إلى تحريكه قيد أنملة، كانت تنعكس على وجهي فتمزِّقه، كما لو كانت فتَّاحة علب، فيتحرَّك صفّ أسناني ويُقتلع من أعماق وجهي حاملًا معه الأنف، وحاجبًا، وعينًا، كاشفًا عن داخل الرأس والحلق اللزج.

أبعدت في الحال فمي عن المفتاح، بدا لي وكأنَّ وجهي كان يتدلَّى كلُّه من جانبٍ واحد كقشرة برتقالةٍ أفعوانيَّة، بعد أن قشَّر السكِّين بعضًا منها. ما بوسعي أن أُجرِّب بعد الآن؟ قد أستلقي على ظهري، وأتحسَّس به الأرض الباردة. أمدّ ساقيّ العاريتيْن على درفتَي الباب المصفَّح، وألفّ باطن قدميَّ حول المفتاح، وأحضن رأسه العدائيّ بجلدِ كعبيَّ، لأُحاول مجدَّدًا الإمساك بالحركة المناسبة!

نعم، لا، نعم.. انسقت قليلًا وراء اليأس الذي كان يريد اختراق أعماقي محوِّلًا إيَّاي إلى معدنٍ، إلى درفةِ باب، إلى تشبيك أسنان القفل كفنَّانٍ يحوِّل جسدَه إلى عمله الفنِّي، إلَّا أنَّني شعرت عند فخذي الأيسر أعلى ركبتي بتمزُّق موجع، باغتتني صرخةٌ، وأدركتُ أنَّ إيلاريا كانت قد جرحتني جرحًا عميقًا.

32

رأيتها تتراجع خائفةً وسكِّينُ قَطْعِ الورق في يمناها.

«أجُننتِ؟» قلت لها مستديرةً بسرعة، بحركةٍ متوحِّشة.

«أنتِ لا تسمعينني»، صرختْ إيلاريا «أناديكِ ولا تسمعين، تقومين بأفعالٍ قبيحة، تجحظين بعينيْكِ، سأخبر أبي بذلك».

نظرتُ إلى الجرح العميق أعلى ركبتي، وخيط الدم. انتزعت منها السكِّين، ورميتُها جانبًا باتِّجاه باب غرفة المؤونة المشرَّع.

«هذه اللعبة انتهت»، قلت لها «لا تعرفين كيف تلعبين، إبقي الآن هنا وكوني عاقلة، لا تتحرَّكي. نحن عالقتان هنا، نحن سجينتان، وأبوكِ لن يأتي أبدًا لإنقاذنا. أنظري إلى ما فعلتِه بي».

«أنتِ تستحقِّين أكثر من ذلك»، أجابتني وعيناها مغرورقتان بالدمع.

حاولت أن أهدِّئ من روعي، وتنفَّستُ بعمق.

«لا تبكي، إيَّاكِ والبكاء...».

لم أكن أعرف ما أقوله، وما قد أفعله! بدا لي أنَّني جرَّبتُ كلّ شيء، ولم يتبقَّ لي سوى أن أرسم للوضع أُطُرًا واضحة، وأن أقبل به.

قلتُ مستذكرةً قدرةً كاذبة على إصدار الأوامر:

«لدينا في البيت مريضان جاني وأوتو. الآن، ومن غير أن تبكي، ستذهبين لتطمئنِّي على أخيكِ، وأنا سأذهب لأرى كيف حال أوتو».

«عليَّ أن أبقى معكِ لأخزكِ، أنتِ من قال لي ذلك».

«لقد أخطأتُ، جاني بمفرده وهو بحاجةٍ لمن يتحسَّس له جبينه، ومن يضع له النقود الباردة مجدّدًا، لا أستطيع أنا القيام بكلِّ شيء».

دفعتُها عبر غرفة الجلوس، فتمرَّدتْ:

«ولكنْ إذا ما شردتِ من سيخزك؟»

نظرتُ إلى الجرح الطويل على ساقي، وخطٌّ كثيفٌ من الدم ما فتئ ينبعث منه.

«تذكَّري أن تناديني من وقتٍ لآخر هكذا، حتى لا أشرد».

فكَّرتْ قليلًا، وما لبثتْ أن قالت:

«لا تتأخَّري.. أنا أملّ عندما أكون مع جاني، لا يعرف أن يلعب».

تسبَّبتْ لي تلك الجملة الأخيرة بالألم. تحديدًا من خلال ذاك التذكير الصريح باللعب. أدركتُ أنَّ إيلاريا لم تعد راغبة باللعب، وأنَّها بدأت تقلق بالفعل عليَّ. فإذا ما كنت أنا مسؤولةً

عن مريضَيْن، راحت هي تشعر أنَّ ثلاثة مرضى يحيطون بها. مسكينة تلك الصغيرة، مسكينة! كانت تشعر بنفسها وحيدةً، كانت تنتظر سرًّا أبًا لا يأتي، ولم تعد قادرة على أن تبقى في إطارٍ من اللعب ذاك اليوم المضطرب. كنت أشعر الآن بقلقها، وأُضيفه إلى قلقي. كم أنَّ كلّ شيء متبدِّل، كم أن لا ثوابت البتَّة! مع كلِّ خطوةٍ كنت أخطوها باتِّجاه غرفة جاني، وباتِّجاه غرفة أوتو، كنت أخشى أن يسوء حالي، أن أظهر بمظهرٍ متراخٍ. عليَّ أن أحافظ على رشدي وعلى صفاء ذاكرتي، فهما عنصران مترافقان دائمًا، هما ثنائيَّة الصحَّة.

دفعت الطفلة إلى داخل الغرفة. ألقيتُ نظرةً على الصبيِّ الذي كان ما يزال مستغرقًا بالنوم، وخرجتُ مقفلةً بالمفتاح الباب بحركةٍ صافية وطبيعيَّة للغاية. على الرَّغم من أنَّ إيلاريا كانت تحتجّ، وتناديني، وتقرع بيديْها الباب، لم أعرها اهتمامًا، وتوجَّهت إلى الغرفة التي كان يرقد فيها أوتو. لم أكن أدري ما كان يحدث للكلب، كانت إيلاريا تحبّه حبًّا جمًّا، فلم أشأ أن ترى هذه المشاهد المريعة. عليَّ بحمايتها، نعم. حقيقة ذاك القلق تجديني نفعًا. بدا لي تحوُّل البرنامج الجليديّ لحماية ابنيَّ رويدًا رويدًا إلى حاجةٍ لا فكاك منها مؤشِّرًا حسنًا.

في غرفة الكلب، وتحت مكتب ماريو، كانت تنبعث الآن رائحة الموت. دخلتُ بتؤدة. كان أوتو جامدًا، لم يكن قد تحرَّك قيد أنملة. تكوَّرتُ قربه، وما لبثتُ أن جلست أرضًا.

كان النمل أوَّل ما وقع نظري عليه، فقد وصل حتى هناك، وراح يستكشف الأرضَ اللزجة التي كانت تتاخم ظهر الكلب، إلَّا

أنَّ أوتو لم يكن يعبأ بذلك. بدا رماديًّا، كجزيرةٍ نُزعت ألوانها، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. بدا وكأنَّ خطمه قد أتلف بلُعابِ أنيابه المخضوضر البلاطَ، وبدا وكأنَّه غارقٌ فيه. عيناه كانتا مغمضتيْن.

«سامحني»، قلت له.

مرَّرت باطن كفِّي على وبر عنقه، فارتعد وانفكَّت أنيابه، وأصدر همهمةً محذِّرة. كنتُ أريده أن يسامحني على ما فعلتُه على الأرجح، وعلى ما لم أنجح في فعله. جذبته إليَّ، وأسندت رأسَه إلى ساقيَّ. كانت تنبعث منه حرارةٌ عليلة تدخل إلى دمي. حرَّك أذنيْه، وذنبه بالكاد. ظننتُ ذلك إشارةَ سعادة، حتى إنَّ تنفُّسه بدا لي أخفّ. بدا كأنَّ بقع اللعاب اللامع الكبيرة، التي كانت تتَّسع كطلاءٍ حول أطراف الشدقيْن السوداء، تتجمَّد، كما لو لم يعد بحاجةٍ لإصدار أمزجة العذاب تلك.

كم يبدو عصيًّا على الاحتمال جسدُ كائنٍ حيّ يحارب الموت، ويبدو وكأنَّه ينتصر تارةً، ويُهزم طورًا! بقينا على هذا الحال لوقتٍ طويل. كانت أنفاس الكلب تتسارع حينًا، كحالها عندما كان في صحَّة جيِّدة وهو يتحرَّق شوقًا للَّعب، وللجرْي في الهواء الطلق، ويتوسَّلنا المحبَّةَ والمداعبة، وكانت تخبو أحيانًا. كانت تتناوب على الجسد لحظاتٌ من الارتعاد والانتفاض، ولحظاتٌ من الجمود المطلق. شعرت ببقايا قوَّته وهي تتبدَّد رويدًا رويدًا. بدت لي صورًا ماضية تتقاطر: فراره بين قُطيرات الماء البرّاق تبثُّه رشَّاشات الحديقة العامَّة، وصوت خرمشته الفضوليَّة بين الشجيرات، وملاحقته إيَّاي في البيت وهو يتوقَّع منِّي أن أُطعمه. جعلني دنوُّ الموت الواقعيّ ذاك، وجرح عذابه الدامي،

أشعر بشعورٍ مباغت بالخجل من الألم الذي انتابني في الأشهر الأخيرة، ومن ذاك النهار بعدم واقعيَّته المفرط. أحسست بالغرفة تستعيد ترتيبَها، وبالبيت وهو يضمّ مساحاتِه إلى بعضها بعضًا، وبصلابة الأرض، وبالنهار الحارّ وهو يغطّي كلّ شيءٍ كما لو كان صمغًا شفَّافًا!

كيف تركتُ نفسي تؤول إلى ما آلت إليه، ففككتُ حواسّي، ومعنى البقاء على قيد الحياة؟ داعبت أوتو بين أذنيْه، ففتح عينيْه الشاحبتيْن وشخص إليّ. رأيتُ فيهما نظرة الكلب الصديق الذي، عوضًا عن اتّهامي، كان يستغفرني لحالته. وما لبث ألمٌ حادّ في جسده أن أسدل جفنيْه، فصرّ أسنانه، ونبح بدون شراسة. بعد قليلٍ، قضى في حضني، فانخرطتُ في بكاءٍ لا يُكفكف، ولا يُشبه أيّ دمعٍ آخر ذرفتْه في تلك الأيَّام، وتلك الأشهر.

عندما جفَّت مقلتاي، وخبت آخر الغصَّات في صدري، أدركتُ أنَّ ماريو عاد الرجل الطيِّب الذي كان عليه دائمًا، ربَّما! وأنَّني لم أعد أحبّه.

33

أسندتُ رأس الكلب إلى الأرض، ونهضتُ. عاد شيئًا فشيئًا صوت إيلاريا التي كانت تُناديني، وسرعان ما انضمَّ إليه صوت جاني. نظرتُ حولي، فرأيت البراز الذي اسودّ من الدم، والنمل، والجسد الميِّت. خرجت من الغرفة، وذهبت لتناول الدلو وخِرقة المسح. شرَّعتُ النوافذ، ونظَّفتُ الغرفة وأنا أعمل بسرعة وفعاليَّة في آن. صرختُ متوجِّهة إلى الطفليْن مرارًا:

«لحظة، سأصل في الحال».

ساءني أن يبقى أوتو هناك، لم أشأ أن يراه الولدان. حاولتُ رفعه، لكنَّني لم أكن أتمتَّع بالقوَّة الكافية. أمسكتُ بقائمتيْه الخلفيَّتَيْن، وجررته على الأرض مرورًا بغرفة الجلوس، وصولًا إلى الشرفة. كم يزن جسدٌ اجتازه الموت! الحياة خفيفة، وعلينا ألَّا نسمح لأحدٍ أن يجعلها ثقيلة. نظرتُ قليلًا إلى وبر الكلب

وقد حرَّكته الريح؛ وما لبثتُ أن دخلتُ. وعلى الرَّغم من الحَرّ، أقفلت الباب بعناية.

كان البيت صامتًا، وبدا لي صغيرًا، وحميمًا، من غير زوايا مظلمة، من غير ظلال، وقد أصبح شبه فَرِح بفعل أصواتِ الولديْن اللذيْن راحا يناديانني وهما يلعبان مع بعضهما بعضًا، ويتضاحكان. كانت إيلاريا تقول «ماما» بصوت السوبرانو، فيما كان جاني يردِّد «ماما» بصوت التينوري.

سارعت في التوجُّه إليهما، وفتحت الباب بحركةٍ واثقة، وقلتُ بحبور:

«ها هي ماما».

ارتمت إيلاريا عليَّ، وسدَّدتْ أكثر من مرَّة صفعاتٍ لساقيَّ.

«ما كان عليكِ أن تحبسيني هنا».

«صحيح. معكِ حقّ، لكنَّني فتحتُ لكِ الباب».

جلستُ على سرير جاني، كانت الحمَّى تتراجع بالتأكيد، وبدا وكأنَّه يتوق لاستئناف اللعب مع أخته، مع ما يعنيه ذلك من صراخٍ، وضحكٍ، وعراكٍ عنيف. تحسَّستُ جبينه. كانت القطرة قد أتت بمفعولها، فكان الجلد فاترًا ومتعرِّقًا بالكاد.

«أَمَا يزال رأسُك يؤلمك؟»

«لا. أنا جائع».

«سأعدّ لكَ بعض الأرزّ».

«لا أحبّ الأرزّ».

«وأنا أيضًا لا أحبُّه»، قالت إيلاريا.

«الأرزّ الذي أعدُّه أنا لذيذ جدًّا».

«أين أوتو؟» سألني جاني.

تردَّدتُ في الإجابة.

«ينام هناك لا تزعجاه».

كدتُ أضيف كلامًا آخر حول مرض الكلب الخطير، ما يمهِّد لاختفائه من حياتهما عندما سمعتُ فجأةً جرس الباب يرنّ.

بَدَوْنا ثلاثتنا كالمعلَّقين، لم نبدِ ساكنًا.

«بابا»، همست إيلاريا مفعمةً بالأمل.

قلتُ:

«لا أعتقد، ليس بابا. إبقيا هنا، ممنوع عليكما أن تتحرَّكا، حذارِ أن تخرجا من هذه الغرفة. سأذهب لأفتح الباب».

تعرَّفا على نبرتي المعتادة الصارمة والساخرة في آن، والكلمات المبالَغ بها عمدًا لمعالجة أوضاعٍ لا تتطلَّبها. أنا أيضًا تعرَّفت عليها وقبلتها، وقبلاها.

اجتزتُ الممرّ، وبلغت المدخل. أيُعقل أن يكون ماريو قد تذكَّرنا بالفعل؟ هل أتى ليطمئنَّ على حالنا؟ لم يُثر فيَّ السؤال أيّ انفعال، ولم أفكِّر إلَّا بأنَّني أرغب في أن أتكلَّم مع أحد.

نظرت من العيْن السرِّيَّة. كان كارانو.

«ماذا تريد؟» سألتُه.

«لا شيء. أردتُ فقط أن أعرف كيف حالك. خرجت صباح اليوم باكرًا لأزور أمِّي، ولم أشأ أن أزعجكِ. ولكنَّني، وقد عدتُ الآن، عثرت على الزجاج مكسورًا. هل حدث شيءٌ ما؟»

«نعم».

«هل تريدين المساعدة؟»

«نعم».

«ألا تستطيعين، رجاءً، فتح الباب لي؟»

لم أكن أعرف إذا ما كنت أستطيع ذلك، لكنَّني لم أقله له. مددتُ يدي إلى المفتاح، أمسكت به بصرامة بأصابعي، وحرَّكتُه حركة خفيفة وشعرت به مطيعًا. دار المفتاح في القفل ببساطة.

«حسنًا»، همس كارانو قائلًا وهو يراقبني بحَرَج ساحبًا وردةً من خلف ظهره، وردةً وحيدةً ساقها طويلة.. وردةً مثيرة للضحك، يقدِّمها بحركةٍ تثير الضحك رجلٌ مرتبك.

تناولتها وشكرته بدون أن أبتسم، وقلت:

«لديَّ عمل مقيت أوكلك به».

34

تصرَّف كارانو بلطف. لفّ أوتو في غطاء من البلاستيك كان يحتفظ به في القبو، ووضعه على متن السيَّارة، وبعد أن ترك لي هاتفه الخلويّ، ذهب لدفنه خارج المدينة.

اتَّصلتُ في الحال بطبيب الأطفال، وكنت محظوظة بالفعل، فوجدتُه، على الرَّغم من أنَّنا كنَّا في شهر أغسطس. فيما كنت أروي له بالتفصيل عوارض الطفل، انتبهتُ إلى أنّ نبْضات معصمي كانت متسارعة إلى حدّ أنَّني خشيتُ أن يسمع الطبيب الضرْبات عبر الهاتف. عاد القلب لينتفخ في صدري، ولم يعد خاويًا.

تحدَّثتُ مطوَّلًا إلى الطبيب محاولةً أن أكون دقيقة، فيما كنت أتجوَّل في أرجاء البيت، وأنا أختبر ترابط المساحات، وألمس الأشياء. وعند كلّ تماسٍّ خفيفٍ مع كلّ غرضٍ تزيينيٍّ، مع دُرْج، مع الكومبيوتر، ومع الكتب، واللوحات، ومقبض باب.. كنت

أردِّد لنفسي أنَّ الأسوأ قد انقضى.

استمع إليَّ طبيبُ الأطفال بصمت، وأكَّد لي أن لا داعي للقلق على جاني، وأنَّه سيحضر ليُعاينه مساءً. أخذتُ عندها دوشًا باردًا طويلًا، فوخزتْ إبر الماء جلدي، وشعرتُ بقنوطِ الأشهر كلِّها، والساعات الماضية. رأيتُ الخواتم التي تركتها عند استيقاظي على حافَّة المغسلة، ووضعتُ خاتم الزمرُّد الريحانيّ، فيما تركت، من دون أيّ تردُّد، خاتم زواجي يهوي في ثقب مياه الصرف. تفحَّصتُ الجرح الذي تسبَّبت لي به إيلاريا بسكِّين قطع الورق، وطهَّرته، وغطَّيته بقطعة شاش. رحت بعدها أفصل، بهدوء، الثياب الملوَّنة عن الثياب البيضاء، لأُدير بعد ذلك الغسَّالة. كنت أريد ثقة الأيَّام العاديَّة المسطَّحة، على الرَّغم من أنَّني كنتُ أعلم تمامًا أنَّ حركةً محمومةً تتَّجه إلى الأعلى كانت مستمرَّة في جسدي، أو اضطرابًا كما لو رأيتُ في قعر حُفرةٍ حشرةً بغيضةً سامَّة، وما يزال كلُّ جزءٍ منِّي ينسحب وأنا أحرِّك ذراعيّ، ويديّ وأنا أسدِّد الركلات. قلتُ لنفسي إنَّ عليَّ أن أتعلَّم مجدَّدًا أن أسير بهدوء كمن يعرف إلى أيِّ وجهةٍ يمضي.

ركَّزتُ لذلك على الولديْن، فكان لا بدَّ أن أُخبرهما بأنَّ الكلب مات. اخترتُ الكلمات بعناية، بحثتُ عن نبرة القصص الخياليَّة الملائمة، إلَّا أنَّه على الرَّغم من ذلك بكت إيلاريا طويلًا، ثم ما لبث جاني، الذي اكتفى بدايةً بالقول بشيءٍ من العدائيَّة في صدًى خافتٍ للأحاسيس المهدَّدة أنَّه يجب إعلام ماريو، أن راح يتذمَّر من الصُّداع وشعوره بالغَثَيان.

كنتُ ما أزال أحاول مواساتهما عندما عاد كارانو. سمحت

له بالدخول، لكنَّني عاملته ببرودة على الرَّغم من سلوكه الخدوم. لم يكفّ الولدان عن مناداتي من الغرفة المجاورة. لم يكونا يريدان، لقناعتهما أنَّه هو من وضع السمّ للكلب، أن يطأ عتبة بيتنا، وأن يكلِّمهما بطبيعة الحال.

أنا، بدوري، شعرت بشيءٍ من الاشمئزاز عندما شممتُ رائحةَ أرضٍ مفلوحة تنبعث منه، ورددتُ على نبرته التي اتَّسمت بحميميَّةٍ خجولةٍ بكلماتٍ مقتضبة، تشبه قطراتٍ متفرِّقة تنهمر من حنفيَّة معطوبة.

حاول أن يُخبرني عن دفنه للكلب، ولكنْ، ونظرًا لأنِّي لم أُبْدِ اهتمامًا بموقع الحُفْرة، أو بتفاصيل هذه المهمَّة المشؤومة كما سمَّاها، لا بل كنت أقاطعه بين الحين والآخر لأصيح بجاني، وإيلاريا: اصمتا سأصل في الحال، شعر بالارتباك، واختصر الكلام. ليُغطِّي صراخ الولديْن المستاء، راح يحدِّثني عن أمّه، وعن المشاكل التي كان يواجهها في اهتمامه بها في شيخوختها. استغرق في الكلام إلى أن قلت له إنَّ الأبناء الذين تعيش أمَّهاتهم طويلًا لا يعلمون، لسوء حظِّهم، ما هو الموت فعلًا، لذا لا يتحرَّرون أبدًا. امتعض من كلامي، واستأذن بالخروج باستياءٍ واضح.

خلال ما تبقَّى من اليوم، لم يبذل محاولات أخرى لرؤيتي. تركت وردته تذبل في آنيةٍ على مكتبي الذي كان يفتقر إلى الورود، منذ ذاك الزمن الغابر الذي كان يهديني فيه ماريو في عيد ميلادي زهرة قتلايا، مقلِّدًا سوان إحدى شخصيَّات بروست. ما إن حلَّ المساء حتى كان تويجُها قد اسودّ، واتَّكأ على ساقها. رميتُها إلى المهملات.

وصل طبيب الأطفال بعد العشاء. كان رجلًا مسنًّا شديد النحول، يحبّه الطفلان كثيرًا، لأنَّه كان عادةً وهو يعاينهما ينحني مرارًا أمامهما، ويدعوهما السيِّد جوفاني، والآنسة إيلّي.

قال «سيِّد جوفاني أرجو أن تريني في الحال لسانك».

فحص الصبيّ باهتمام، وأكَّد أنّ مردّ توعُّكه فيروس صيفيّ يؤدِّي إلى اضطراباتٍ معويَّة، لكنَّه لم يستبعد أن يكون جاني قد تناول طعامًا فاسدًا، كبيضة على سبيل المثال، أو ربَّما، وهو ما قاله لي بصوتٍ خفيضٍ في غرفة الجلوس، أن يكون ما جرى ردّ فعل على حزنٍ عميقٍ ألمَّ به.

فيما كان جالسًا إلى المكتب وهو يستعدّ لكتابة وصفة الدواء، رويت له بهدوء، كما لو أنَّ العادة جرت بيننا على البوح الحميم، القطيعة مع ماريو، والنهار البغيض التي شارف أخيرًا على الانتهاء، وموت أوتو. استمع إليّ بانتباهٍ وصبر، وهزَّ رأسه مستاءً لما جرى، ووصف خميرةً لبنية، وحنانًا للولديْن، ومغلي الزهور، والراحة لي. وَعَدني بالرجوع خلال أيَّام قليلة.

35

نمتُ طويلًا وبعمق.

ابتداءً من اليوم التالي، اعتنيتُ بِحُرْصٍ كبير بإيلاريا وجاني. وبما أنَّه بدا لي أنَّهما يراقبانني ليتبيَّنا إذا ما كنتُ قد عدت مجدَّدًا أمَّهما المعهودة، أو إذا ما كان عليهما أن يتوقَّعا تحوُّلاتٍ جديدةً ومفاجئة، بذلت جُلَّ ما في وسعي لطمأنتهما. قرأتُ لهما كتب القصص الخياليَّة، ولعبتُ معهما لعبًا مملَّة لساعاتٍ طويلة، وبالغتُ في إبداء بعض الحُبور، لأُسكت نداءات اليأس. لم يذكر أيٌّ منهما أبدًا، ربَّما لاتِّفاق أبرماه، أباهما حتى من باب التأكيد على ضرورة إعلامه بموت أوتو. خشيتُ أن يتفاديا ذكره مخافة جَرْحي، ما قد يدفعني لأُحيد عن السكَّة مجدَّدًا. بدأتُ عند ذلك بنفسي بذكر ماريو راويةً أحداثًا قديمةً يبدو فيها مسلِّيًا للغاية، أو يُظهر فيها ابتكاره ورقَّته، أو يخوض فيها مغامراتٍ خطرة. فيما كنت أتكلَّم، شعرتُ أنَّه كان يزعجني الإبقاء على ماريو بين ذكرياتي.

عندما عاد طبيب الأطفال في زيارةٍ جديدة، ألفى جاني بصحَّةٍ جيِّدة وقد تماثل تمامًا للشفاء.

«سيِّد جوفاني»، قال له «لونك زهريٌّ جدًّا. هل حضرتُك متأكِّد أنَّك لم تتحوَّل إلى خنزير صغير؟»

في غرفة الجلوس، وبعد أن تحقَّقتُ من أنَّ الولديْن لا يستطيعان سماعي، سألتُه، لأوضِّح لنفسي إلى أيِّ حدٍّ عليَّ أن أشعر بالذنب، إذا ما كان من الممكن أن يكون جاني قد أُصيب بالمرض جرّاء مبيدٍ حشريٍّ رششته في المنزل للقضاء على النمل خلال الليل، إلَّا أنَّه استبعد ذلك، وذكَّرني بأنَّ إيلاريا لم تُصب بأيّ اضطرابات.

«وماذا عن كلبنا؟» سألته وأنا أُريه العبوة وقد تهشَّمت وانتُزع منها رشَّاش السمّ.

تفحَّصها، إلَّا أنَّه بدا حائرًا! وختم قائلًا إنَّه لا يستطيع أن يجزم. في نهاية المطاف، عاد إلى غرفة الولديْن، واستأذن منهما قائلًا بعد أن انحنى:

«الآنسة إيلي، السيِّد جوفاني يؤسفني حقًّا أن أستأذن منكما بالذهاب. آمل أن تمرضا سريعًا لأراكما قريبًا».

أشعرت تلك النبرة الولديْن بالطمأنينة. ولعدَّة أيَّام بعد ذلك، كنَّا نتبادل الانحناء وندعو بعضنا بعضًا السيِّد جوفاني، والسيِّدة ماما، والآنسة إيلي. ولأوطِّد حولنا جوًّا من المحبَّة، حاولت العودة إلى الحركات المعتادة كمريضٍ قضى وقتًا طويلًا

في المستشفى، ولينتصر على خوفه من الانتكاس مجدَّدًا، راح يسعى أيضًا للتشبُّث بحياة الأصحَّاء. استأنفت الطهو، وجاهدت في إثارة شهيَّتهما بوصفاتٍ جديدة. عاودتُ التقطيع، والقلي، والتمليح، حتى إنَّني رحت أعدّ الحلويَّات، إلَّا أنَّني لم أكن أتمتَّع بالموهبة، والحرفة، لإعدادها.

36

لم أكن دائمًا على مستوى المظهر المُحبّ والفعَّال الذي أردتُه لنفسي. كانت بعض المؤشِّرات تُثير قلقي، فكنتُ ما أزال أنسى أحيانًا القدور على النار من غير أن أشمّ حتى رائحة الطعام المحروق. كان ينتابني غَثَيان لم أشعر به يومًا وأنا أرى بقعَ نثرِ البقدونس الخضراء وقد اختلطت بقشورِ البندورةِ الحمراء تطفو على صفحة مياه المجلى الدهنيَّة وقد سُدّ. لم أكن أعرف كيف أسترجع لامبالاتي السابقة إزاء البقايا اللزجة للطعام، الذي كان يخلِّفه الولدان على شرشف الطاولة والأرض.

كنت أبرش الجبن أحيانًا، فتُمسي الحركة آليَّة، وقصيَّة، ومستقلَّة، إلى حدٍّ أنَّ المعدن كان يقطع أظافري، وجلد رؤوس أصابعي. زِدْ على ذلك أنَّني، وهو ما لم أكن قد فعلته يومًا، كنت أقفل باب الحمَّام عليَّ، وأولي جسدي معاينةً طويلةً، ودقيقةً، ومهووسة. أتلمَّس ثدييَّ، وأنزلق بأصابعي بين طيَّات

الجلد عند بطني، وأتفحَّص في مرآةٍ عانتي، لأرى كم هزلْتُ، وأتأكَّد إذا ما ترهَّل ذقني، وإذا ما أحاطت التجاعيد الشفةَ العليا. كنتُ أخشى أن يكون الجهدُ الذي بذلته لكي لا أضيع قد جعلني أشيخ. كان يبدو لي أنَّ شعري خفَّ، وقد ازدادت الشعيرات البيضاء وبات عليَّ أن أصبغها، كنت أشعر بشعري دبقًا، فأغسله باستمرار، وأنشِّفه بعنايةٍ مفرطة.

بيد أنَّ الصور الذهنيَّة التي تكاد لا تُرصد، والمقاطع اللفظيَّة النادرة التي كنت ألفظها كانت تُخيفني. كانت تكفيني فكرة لا أستطيع حتى تحديدها، واضطراب ليلكيّ بسيط للمعنى، وطلسم هيروغليفيّ أخضر يُصدره دماغي، ليعود الانزعاج للظهور، ولينمو الرعب داخلي. كنت أخاف أن تعود إلى بعض زوايا البيت ظلالٌ كثيفةٌ جدًّا ورطبةٌ بضوضائها، وحركاتٌ سريعة لكتلٍ مُظلمة. لذا، كنت أراني أُدير وأُطفئ التلفزيون على نحو آليّ، ليكون لي رفيقًا، وأدندن ترنيمةً بلهجةِ طفولتي، أو كنت أشعر بألم لا يُطاق لمرأى طبقِ أوتو الفارغ قرب البرَّاد، وأحيانًا كنت أقعُ فريسة نعاسٍ لا مبرِّر له، فأستلقي على الأريكة، وأمسِّد ذراعيَّ مخلِّفة عليهما آثارًا خفيفةً لأظافري.

إلَّا أنّ ما ساعدني كثيرًا من جهةٍ أخرى، في تلك المرحلة، كان اكتشافي أنَّني ما أزال قادرةً على التصرُّف بلياقة، فاختفت اللغة الفاحشة فجأةً، ولم أعد أشعر بأيِّ دافعٍ لاستخدامها، وكنت أخجل من استخدامي إيَّاها. تراجعت باتِّجاه لغة الكتب، لغةً متكلِّفة ومضطربة بعض الشيء، إلَّا أنَّها كانت تؤمِّن لي الثقة والبعد الضروريَّيْن. تمكَّنتُ مجدَّدًا من التحكُّم بنبرة صوتي، ورقد

الغضب في القعر، وكفَّ عن شحن الكلمات. من هنا، تحسَّنت علاقاتي مع العالم الخارجيّ، وتمكَّنتُ بعنادِ اللطف من إصلاح هاتفي، حتى إنَّني اكتشفتُ أنَّ هاتفي الخلويّ القديم كان قابلًا للتصليح. أراني البائع الشابّ، في متجرٍ كان مفتوحًا على غير المتوقَّع، كم كان من السهل إصلاحه، وكنتُ قادرةً على إصلاحه بنفسي.

لأخرج من عزلتي، أجريت سلسلةً من المكالمات الهاتفيَّة. كنتُ أريد استعادةَ معارفَ لديهم أبناءٌ في عمر جاني وإيلاريا تقريبًا، لأخطِّط لقضاء إجازة، ولو ليوم واحدٍ أو يومَيْن، لأعوِّض لهما عن هذه الأشهر السوداء. من مكالمة لأخرى، ألفيتُ أنَّني بحاجةٍ ماسَّة لأرقِّق الجلد القاسي عبر ابتساماتٍ، وكلماتٍ، وتصرُّفاتٍ ودِّيَّة. استأنفتُ علاقتي بليا فاراكو، وتصرَّفتُ بخفَّةٍ كبيرة عندما جاءت لزيارتي يومًا وقد بدا عليها حذرُ من يحمل خبرًا ملحًّا وحسّاسًا. أسهبتْ في المقدِّمات كعادتها، فلم أستعجلها، ولم يظهر عليَّ القلق. بعد أن تأكَّدتْ أنَّني لن أثور، نصحتني بأن أكون عقلانيَّة، وقالت لي إنَّ العلاقة بين اثنيْن قد تنتهي، إلَّا أنَّ شيئًا لا يمكن أن يحرم أبًا من أبنائه، أو أبناءً من أبيهم، وما شابه.. وختمتْ بالقول:

«عليكِ أن تحدِّدي أيّامًا يستطيع فيها ماريو رؤية الولديْن».

«هل هو من أرسلك؟» سألتها بدون عدائيَّة.

أقرَّت رغمًا عنها بذلك.

«قولي له إنَّه عندما يريد أن يراهما يكفيه أن يتَّصل هاتفيًّا».

كنت أعلم أنَّ عليّ أن أجد إزاء ماريو نبرةً مناسبةً لعلاقاتنا

المستقبليَّة، على الأقلِّ من أجل جاني وإيلاريا، ولكنَّني لم أكن أرغب في ذلك، وكنت أفضِّل ألَّا أراه بعد اليوم. مساءً، بعد ذاك اللقاء، وقبل أن أخلد إلى النوم، شعرتُ أنَّ الخِزانات ما تزال تبثّ رائحته، كانت تفوح من دُرْج منضدته، ومن الجدران، ومن خزانة الأحذية. كان مؤشِّر الشمّ ذاك قد أثار فيَّ في الأشهر الأخيرة الحنين، والرغبة، والغضب. أمَّا الآن، فبتّ أربطه باحتضار أوتو، فلم يعد يُثير فيَّ انفعالًا. اكتشفتُ أنَّه بات كذاكرةِ رائحةِ ذكرٍ شاخ يحفّ بنا، على متن الأوتوبيس، رغبات لحمه الميِّت. أزعجني ذلك، وأحبطني. انتظرتُ أن يتفاعل ذاك الرجل الذي كان يومًا زوجي مع الرسالة التي بعثتها إليه، إنَّما بدون تشنُّج، بل بتسليمٍ فقط.

37

سكنني أوتو طويلًا. غضبتُ كثيرًا عندما قبضتُ ذات عصرٍ على جاني وهو يضع طوْق الكلب على عنق إيلاريا، وفيما كانت تنبح كان يصيح بها شادًّا الرسن: اهدئي، ارقدي، سأركلك إذا ما لم تكفِّي عن النباح. أخذت الطوْق، والرسن، والكمَّامة، وأقفلت باب الحمَّام عليَّ وقد أخذ منِّي الاضطراب كلّ مأخذ. إلَّا أنَّني هناك، وبحركة مفاجئة، كما لو أنَّني كنت أنوي أن أُجرِّب أمام المرآة زيًّا من أزياء حقبة البانك المتأخِّرة، حاولتُ أن أُقفل الطوْق حول جيدي. وعندما أدركتُ ما كنت أفعله، انخرطتُ في البكاء، وهرعتُ لرمي كلّ شيء إلى القمامة.

في إحدى صبيحات سبتمبر، وفيما كان الطفلان يلعبان في الحديقة الصخريَّة، ويتخاصمان بين الحين والآخر مع أطفالٍ آخرين، بدا لي أنَّني رأيت كلبنا، هو بعيْنه، يعبر مسرعًا. كنت جالسةً إلى مقعدٍ في ظلِّ شجرة سنديانٍ كبيرة، على مقربة من

ينبوعٍ تروي نافورته عطش اليمام باستمرار، بين رذاذ الماء الذي كان يرتدّ على الريش. كنت أكتب عن أمور تخصّني بصعوبةٍ كبيرة، وكانت علاقتي بالمكان ضعيفة، ولم أكن أسمع سوى خرير الينبوع، والشلّال الصغير الذي ينساب بين الصخور، والمياه التي تجري بين النبات المائيّ. فجأةً، وبطرْف عيني، رأيت ظلًّا طويلًا وانسيابيًّا لكلبٍ يجتاز الحقل. لثوانٍ معدودة، كنتُ على ثقة أنَّه أوتو وقد عاد من جزيرة الأموات، وبدا لي أنَّ شيئًا ما عاد ليتآكل داخلي، فتملَّكني الخوف. في الواقع، وهو ما أدركته في الحال، ذاك الكلب، وهو حيوانٌ غريب، لم يكن يربطه أيّ قاسم مشترك بكلبنا المسكين، كان يريد فقط أن يقوم بما كان يقوم هو به غالبًا بعد أن يجري مطوَّلًا في الحقل: كان يريد أن يشرب. وقد توجَّه بالفعل إلى الينبوع الصغير، وتسبَّب بهَرَب الحمام، ونبح على الزنابير التي كانت تطنّ حول مخرج الماء، وقطع، بلسانه الضارب إلى الليلكيّ، بنهم دفقَ الماء المضيء. طويتُ الدفتر، ورحت أنظر إليه، وشعرت بالتأثُّر. كان كلبًا أكثر امتلاءً، وأكثر سمنةً من أوتو. حتى إنَّه بدا لي أقلّ طيبة، إلَّا أنَّه أثار عطفي مع ذلك. وردًّا على صفير سيِّده، ركض بدون تلكُّؤ. وعاد الحمام ليلعب تحت دفق الماء.

بحثتُ عصرًا عن رقم الطبيب البيطريّ المدعو موريلي، الذي كان ماريو يصطحب إليه أوتو إذا ما دعت الحاجة. لم تُتح لي يومًا فرصة التعرُّف عليه، إلَّا أنَّ زوجي طالما حدَّثني عنه بحماسة، فقد كان شقيق أستاذ في معهد البوليتكنيك، كانت تربطه به علاقاتُ عملٍ وصداقة. اتَّصلتُ به. فتصرَّف بلباقة كبيرة. كان

صوته عميقًا، كما لو كان صوت ممثِّل في فيلم ما. طلب منِّي التوجُّه إلى المستوصف صباح اليوم التالي. تركت الولديْن لدى بعض المعارف، وذهبت.

كان الطبيب البيطريّ يُشرف على عيادةٍ للحيوانات، تُشير إليها آرمة من النيون الأزرق مضاءةٌ ليل نهار. نزلتُ درجًا طويلًا، وألفيت نفسي أمام مدخلٍ صغيرٍ تنبعث منه رائحة قويَّة للغاية، وقد أُضيء جيِّدًا. استقبلتني شابَّة سمراء، طلبت منِّي أن أنتظر في قاعةٍ جانبيَّة، فقد كان الطبيب يُجري عمليَّة.

كان عدَّة أشخاص ينتظرون في قاعة الانتظار، بعضهم ترافقه الكلاب، والبعض الآخر القطط، وكانت هناك امرأةٌ في الثلاثينيَّات تحمل في حضنها أرنبًا أسود، وتداعبه باستمرار بحركةٍ آليَّة من يدها. قضيت الوقت في قراءة لوحة عُلِّقت عليها عروض مزاوجة حيوانات أصيلة، يليها وصفُ كلابٍ أو قططٍ ضائعة. بين الحين والآخر، كان يصل بعض الأشخاص يتسقَّطون أخبار حيوانهم المحبوب: كان أحدهم يطمئنّ على القطّ الذي يخضع للفحوصات، فيما كان آخر يسأل عن كلبه الذي يُعالج كيميائيًّا، بينما كانت امرأة تتألَّم لكلبها الصغير المحتضر. كان الألم في ذاك المكان يجتاز عتبةَ الإنسانيّ الهشَّة، ليمتدّ إلى عالم الحيوانات الأليفة الشاسع. ألمّ بي دُوار خفيف، وغطَّاني العرق البارد، عندما تعرَّفتُ في رائحة المكان الراكدة على رائحة عذاب أوتو، وكمِّيَّة الألم التي بات يعرف كيف يوحي إليَّ بها! سرعان ما تضخَّمت المسؤوليَّات التي كنتُ أخشى أن تكون مسؤوليَّاتي لموتِ الكلب؛ وبدا لي أنَّني كنتُ شديدة الطيْش، ونما داخلي

إحساسٌ بالأسف. حتى التلفزيون الذي وُضع في إحدى الزوايا، وكان يبثّ آخر الأخبار المريعة عن شؤون البشر، لم يفلح في التخفيف من إحساسي بالذنب!

انقضت ساعةٌ قبل أن أُقابل الطبيب. لستُ أدري لماذا! لكنَّني تصوَّرتُ أنَّني سأقابل ممسوسًا بدينًا يرتدي ثوبًا داميًا، ويداه مشعَّرتان، ووجهه عريض وخبيث. إلَّا أنَّ من استقبلني كان رجلًا طويلًا في الأربعينيَّات من العمر، نحيلًا ووجهه محبَّب، وعيناه زرقاوان، وشعره أشقر يغطِّي أعلى جبينه العريض، ونظيف في كلِّ زاوية من الجسد والعقل كما يوحي لنا الأطبَّاء، زِدْ إلى ذلك أنَّه كان يتمتَّع بلباقة الرجل الذي يُثري روحه المفعمة بالشجن، فيما العالم ينهار من حوله!

استمع الطبيب باهتمام إلى وصفي لاحتضار أوتو وموته. قاطعني فقط بين الفيْنة والأخرى، ليقترح عليَّ الكلمة العلميَّة التي كانت لتسبغ على مفرداتي الفائضة والانطباعيَّة مزيدًا من المصداقيَّة في نظره. سيلان اللعاب، عسر التنفُّس، تشنُّجات في العضلات، سلس الغائط والبول، تشنُّجات ونوبات صرع.. استخلص أخيرًا أنَّ أوتو قُتل بالتأكيد جرَّاء الستريكنين. لم يستبعد تمامًا المبيد الحشريّ الذي أصررت على ذكره مرارًا، إلَّا أنَّه أبدى بعض الشكّ. تلفَّظ بكلمات عصيَّة كديازين، وكاربارِيل.. وهزَّ بعد ذلك رأسه، قائلًا:

«لا، أعتقد أنَّه الستريكنين».

بحضوره أيضًا، كما جرى لي مع طبيب الأطفال، تملَّكني دافعٌ في أن أروي له وضعي الحرج. كانت تلحُّ عليّ الرغبة في

أن أجد الكلمات المناسبة لذاك النهار، كان ذلك يطمئنني. قال لي أخيرًا بصوت هادئ:

«مسؤوليَّتك الوحيدة هي أنَّك امرأةٌ غاية في الحساسيَّة».

أجبته قائلةً «الإفراط في الحساسيَّة قد يكون ذنبًا أيضًا».

أجابني «الذنب الحقيقيّ هو انعدام حساسيَّة ماريو» مؤكِّدًا بنظرته أنَّه يعرف تمامًا دوافعي، فيما يعتبر دوافع صديقه واهية. أضاف كذلك بعض ما يُروى عن مناوراتٍ انتهازيَّة، كان يقوم بها زوجي ليحصل على عملٍ ما، وهي أخبار وردته من طريق أخيه. تفاجأتُ، فلم أكن أعرف ذاك الجانب من ماريو. ابتسم الطبيب مُظهرًا أسنانًا منتظمة تمامًا، وأضاف قائلًا:

«عدا ذلك، فهو رجل يتمتَّع بميِّزات كثيرة».

بدت لي جملته الأخيرة تلك، وذاك الانتقال من الكلام السيِّء إلى الإشادة، ناجحيْن تمامًا، ما جعلني أرى في حياة الراشدين الطبيعيَّة فنًّا من هذا القبيل. عليّ أن أتعلَّم.

38

ذاك المساء، عندما عدت إلى البيت مع الطفليْن، شعرتُ للمرَّة الأولى بعد الهجران بفتورته المقفلة، والمريحة، ورحتُ أمازح ابنيَّ إلى أن اقتنعا بضرورة أن يغتسلا، وأن يأويا إلى الفراش. كنتُ قد أزلت تبرُّجي، واستعددت لأخلد للنوم عندما سمعت قرعًا على الباب بقبضة اليد. نظرت عبر العين السرِّيَّة، فرأيت كارانو.

نادرًا ما صادفته بعد أن دفن أوتو، وكان الولدان دائمًا برفقتي، فاكتفيْنا بتبادل التحيَّة. كان يبدو كعادته رجلًا متواضعًا، ومنحني المنكبيْن كما لو أنَّه يخجل من طول قامته. إحساسي الأوَّل كان يدفعني لأن لا أفتح له الباب، فقد بدا لي قادرًا على دفعي مجدَّدًا باتِّجاه القنوط. إلَّا أنَّني ما لبثت أن لاحظت أنَّه سرَّح شعره بطريقةٍ مختلفة، بدون أن يفرقه، وقد غسل شعره الشائب لتوّه، وفكَّرت بالوقت الذي قضاه في العناية بمظهره قبل

أن يقرِّر صعودَ درجاتِ طابقٍ واحد والوقوف أمام الباب. كما قدَّرتُ له أنَّه قرع الباب بيده، لئلَّا يوقظ الولديْن برنين الجرس. أدرت المفتاح في القفل.

أراني في الحال، بحركة غير واثقة، زجاجةَ نبيذ أبيض من نوع بينو باردة، وأشار إلى أنَّه نبيذ بينو دي بوتريو من عام 1998 نفسه الذي حملته معي عندما قصدته. قلتُ له إنَّني حملتُ أوَّل زجاجة وقعت في يدي في تلك المرَّة، ولم أكن أريد عبرها أن أُشير إلى أيِّ تفضيل. كنت أكره النبيذ الأبيض، فقد كان يُسبِّب لي صداعًا.

أغرق رأسه بين كتفيْه، ولم ينبس ببنت شفة، وهو يقف في المدخل يحمل الزجاجة بين يديْه وقد تغطَّت بطبقةٍ من الماء الذي بدأ يسيل. تناولتها متلفِّظة بشكرٍ سريع، مشيرةً إلى غرفة الجلوس، فيما توجَّهت إلى المطبخ باحثةً عن فتَّاحة الزجاجات. عندما عدتُ، ألفيته جالسًا على الأريكة مقلِّبًا بين يديْه عبوة المبيد الحشريّ المهشَّمة.

«لقد حطَّمها الكلب»، قال معلِّقًا «لِمَ لا ترمينها؟»

كانت كلمات لا ضيْر فيها لملء الفراغ، إلَّا أنَّه ساءني أن يسمِّي أوتو. سكبت له كأسًا، وقلت له:

«اشرب كأسك وامضِ، الوقت تأخَّر، وأنا تعبة».

اكتفى بأن يُشير بالإيجاب مرتبكًا، إلَّا أنَّه فكَّر بالتأكيد أنَّني لم أكن جادَّة، وكان يتوقَّع أن أصبح أكثرَ حرارةٍ وتجاوبًا، رويدًا

رويدًا. تنهَّدتُ تنهيدة أسف عميقة، وقلت له:

«استشرتُ اليوم طبيبًا بيطريًّا، وقال لي إنّ أوتو قضى بعد أن تسمَّم لتناوله الستريكنين».

طأطأ رأسه وقد بدا عليه تعبيرُ أسفٍ حقيقيّ.

قال هامسًا «الناس أحيانًا شرِّيرون حقًّا»، وظننتُ لبرهةٍ أنَّه يُشير على نحوٍ لامنطقيّ إلى الطبيب البيطريّ، لكنِّي ما لبثت أن فهمت أنَّه يعني بذلك مرتادي الحديقة العامَّة. نظرت إليه بانتباه.

«ماذا عنك أنتَ؟ لقد هدَّدت زوجي، قلتَ له إنَّك ستسمِّم الكلب، أخبرني الولدان بذلك».

رأيت علامات الدهشة ترتسم على وجهه، ومن ثم بان عليه أسفٌ حقيقيّ. لاحظتُ الحركة القلقة التي شكَّلها في الهواء، كأن ليُبعد عنه كلماتي، وسمعته يهمهم محبَطًا:

«كنت أريد أن أقول شيئًا آخر تمامًا، لم يفهم قصدي. كان التهديد بقتل الكلب قد تناهى إلى سمعي، وقد حذَّرتُك أنتِ أيضًا...».

لكنَّه انفعل عند ذلك، وباتت نبرته أكثر حدَّة:

«على كلِّ حال، أنت تعلمين تمامًا أنَّ زوجك يخال أنَّه سيِّد العالم».

بدا لي لا طائل من أن أُخبره أنَّني لم أكن أعلم ذلك. كنت قد شكَّلت فكرةً مختلفة عن زوجي. وعلى كلِّ حال، كنت

قد نفضتها عنّي، ومعه رحل المعنى الذي أوليته طويلًا لحياتي. حدث ذلك فجأةً، كما نرى في فيلم ثقبًا يُفتح على متن طائرةٍ تحلّق على علوٍّ شاهق. لم يتّسعْ لي الوقت حتى لأحتفظ بإحساسٍ ضعيفٍ بالودّ.

همستُ قائلةً «لديه عيوبه كسائر الناس»، وأضفت «مثله مثل الآخرين، نكون أحيانًا طيّبين وأحيانًا سيّئين. عندما ذهبت إلى بيتك، ألم أتصرّف تصرُّفاتٍ معيبة لم أكن لأتوقّع يومًا أن آتي بمثلها؟ كانت تصرُّفات لا حبّ فيها، ولا رغبة، كانت مجرّد شراسة. ومع ذلك، لستُ امرأةً شرّيرة على نحوٍ خاصّ».

بدا لي أنّ كلماتي تلك أثّرت في كارانو أيّما تأثير، فقال منفعلًا:

«ألم تكوني مهتمّة بي على الإطلاق؟»

«لا».

«ألستِ مهتمّة بي الآن أيضًا؟»

أشرت بالنفي، وحاولت أن أرسم على ثغري ابتسامةً تجعله يتعامل مع الأمر، كما لو كان أحدَ حوادث الحياة، كما لو خسر في لعبةِ ورق.

وضع الكأس، ونهض.

«كانت تلك الليلة بالنسبة إليّ هامّة جدًّا»، قال، وأضاف «وأصبحتِ اليوم أهمّ من قبل».

«أنا آسفة».

ارتسمتْ على وجهه شبه ابتسامة، وهزّ رأسه نافيًا. فبرأيه،

لم أكن أشعر بأيِّ أسف. وبرأيه، كانت تلك مجرَّد طريقة لأضع حدًّا للحديث. همس قائلًا:

«لستِ مختلفةً عن زوجك. على كلِّ حال، لقد قضيتما وقتًا طويلًا معًا».

توجَّه إلى المدخل، فتبعته بوَهَن. مدَّ إليّ عند العتبة العبوة التي كان يحملها معه، فتناولتها منه. خلت أنَّه سيصفق الباب خارجًا، إلَّا أنَّه أقفله وراءه بتؤدة.

مكتبة
t.me/t_pdf

39

شعرت بالمرارة لنهاية ذاك اللقاء. نمت نومًا مضطربًا، وقرَّرت أن أحدَّ علاقاتي إلى أدنى حدٍّ مع جاري، فالقليل الذي قاله نجح في إيلامي. عندما صادفته على الدرج، بادلته بالكاد التحيَّة واجتزته. شعرت بنظرته المهانة والمحبطة وراء ظهري، وتساءلت حتى متى سيستمرّ انزعاجي وأنا أفرّ من تلك النظرات المفعمة بالألم، والنداءات الخرساء! على كلٍّ حال، كنت أستحقّ ذلك، فقد تصرَّفت معه بخفَّة.

إلَّا أنَّ الأمور سرعان ما أخذت منحًى آخر. يومًا بعد يوم، وبحُرْصٍ شديد، تفادى كارانو كلّ لقاء معي. إلَّا أنَّه ظهر لي وجوده بإشارات تفانٍ عن بعد. فكنت أجد تارةً أمام بابي أحد أكياس التسوُّق الذي نسيته لعجلتي في مدخل بنايتنا، وطورًا الصحيفة أو القلم الذي نسيته على مقعدٍ في الحديقة. تفاديت حتى مجرَّد شكره. غير أنَّني لم أكفَّ عن استرجاعِ جملٍ مبتورة

في رأسي من لقائنا ذاك. ولفرط ما فكّرت في ذلك، اكتشفتُ أنَّ ما أثار اضطرابي على نحوٍ خاصّ كان اتّهامي الصريح بأنّي أُشبه ماريو. لم أستطع التخلُّص من الإحساس بأنَّه واجهني بحقيقةٍ أكثر إزعاجًا ممَّا كان ليتصوَّره. قلَّبت تلك الفكرة في رأسي طويلًا، لا سيَّما وأنَّه مع إعادة افتتاح المدارس، وبغياب الولديْن، وجدت لنفسي مزيدًا من وقت الفراغ أقضيه في التفكير.

قضيتُ صبيحاتٍ فاترة من بدايات الخريف جالسةً أكتب على مقعدٍ في الحديقة الصخريَّة. ظاهريًّا، كانت تلك ملاحظات لكتابٍ قد أكتبه، هكذا كنت أدعوها على الأقلّ. كنتُ أريد أن أُفصِّل لي الثوب الذي يلائمني، كما كنت أقول. كنت أريد أن أدرس نفسي بدقَّةٍ وقسوة راويةً عذاب الأشهر المقيتة كلّه. في الواقع، كنت أدور حول السؤال الذي أثاره فيَّ كارانو. هل كنت مثل ماريو؟ ولكنْ ما معنى ذلك؟ أيعني ذلك أنَّنا اخترنا بعضنا بعضًا لتقاربنا، وقد راح ذاك التقارب على مرِّ السنوات يتشعَّب؟ في أيِّ شيءٍ شعرتُ أنَّني قريبةٌ منه عندما أُغرمت به؟ ما الذي تعرَّفت عليه منه داخلي في بداية علاقتنا؟ كم من الأفكار، والحركات، والنبرات، والأذواق، والعادات الجنسيَّة قد نقل لي على مرِّ السنوات؟

في تلك الفترة، سوَّدتُ أوراقًا كثيرة من ذاك النوع من الأسئلة. الآن، وقد هجرني ماريو، وإذا ما لم يعد يحبّني، وإذا ما لم أعد أحبُّه أنا أيضًا، لماذا كان عليَّ أن أحمل في جسدي الكثير ممَّا له؟ ما وضعتُه داخله لا شكّ في أنَّ كارلا محته في سنواتِ علاقتهما السرِّيَّة. أمَّا أنا، وإذا كانت قد بدت لي

الحركات التي اكتسبتها منه في الماضي محبَّبةً، ونظرًا لأنَّها لم تعد تبدو لي كذلك اليوم، فكيف يمكن أن أقتلعها منِّي فعلًا؟ كيف يمكن أن ألغيها تمامًا من جسدي، وعقلي، من غير أن أكتشف أنَّني بذلك أُلغي نفسي؟

عند تلك النقطة، وفيما كانت بقع الشمس في الصبيحة ترتسم في الحقل بين ظلال الأشجار لتنتقل بعدها ببطء كغيوم خضراء منيرة في سماءٍ داكنة، عاودت ببعض الخجل مراجعة صوت كارانو المستاء. أكان ماريو بالفعل رجلًا عدائيًّا، على قناعة بأنَّه يستطيع أن يسود كلّ الأشياء وكلّ البشر؟ أكان بالفعل انتهازيًّا كما أخبرني الطبيب البيطريّ؟ وبما أنَّني لم أعتبره يومًا شخصًا من هذا النوع، ألا يعني ذلك أنَّني كنت أرى تصرُّفاته طبيعيَّةً، لأنَّها كانت تُشبه تصرُّفاتي؟

قضيتُ أمسياتٍ عدَّة أنظر فيها إلى الصور الفوتوغرافيَّة العائليَّة، بحثت في الجسد، الذي كان لي قبل أن أتعرَّف على زوج المستقبل، على علائم استقلاليَّتي. قارنت بين صُوَري وأنا فتاة شابَّة وبين صُوَر السنوات اللاحقة. أردت أن أكتشف كم تغيَّرت نظرتي بدءًا من تردُّدي عليه، أردت أن أعرف إذا ما راحت نظرتي على مرِّ السنين تُشبه نظرته. بذرة جسده دخلت في جسدي وشوَّهتني، ووسَّعتني، وأثقلتني، فحملتُ مرَّتين. كانت الصيغ هي التالية: حملتُ في أحشائي ابنَيْه، قدَّمت له طفليْن. وعلى الرَّغم من أنَّني كنت أحاول إقناع نفسي بأنِّي لم أقدِّم له أيّ شيء، وأنَّ الطفليْن كانا طفليَّ أنا، وأنَّهما بقيا دائمًا داخل شعاع جسدي، خاضعيْن لعنايتي، إلَّا أنَّني لم أكن أستطيع تفادي الكثير بما كان

كامنًا حتمًا لدى الطفليْن من طبيعته. كان ماريو ليتفجَّر من داخل عظامهما فجأةً، بعد أيَّام، بعد سنوات، وعلى نحوٍ جليّ. كم منه سأُجبر على أن أحبّ دائمًا من غير حتى أن أُدرك ذلك لمجرَّد أنّي أحبَّهما؟ أيُّ مزيج معقَّدٍ طافحٍ بالرغوة هما الزوجان! على الرَّغم من أنّ العلاقة تتحطَّم وتتوقَّف، إلَّا أنَّها تستمرّ في التأثير عبر دروبٍ سرِّيَّة، فلا تموت، ولا تريد أن تموت.

قصصت بالمقصِّ طوال أمسيةٍ طويلةٍ وصامتة عيونًا، وآذانًا، وسيقانًا، وأنوفًا، وأيادي لي وللولديْن، ولماريو. رحت ألصقها على ورقةِ رسم. حصلت على جسدٍ واحدٍ وحشيٍّ مستقبليٍّ يصعب تفكيكه، سارعت إلى رَمْيِهِ في القمامة.

40

عندما عاودتْ ليا فاراكو الظهور بعد بضعة أيَّام، فهمت في الحال أنَّ ماريو لم يكن ينوي إطلاقًا مواجهتي مباشرةً، حتى عبر الهاتف. ليس على الرسول سوى البلاغ، قالت لي صديقتي: بعد ذاك الاعتداء في الشارع، كان يرى زوجي من المستحسن أن نحدّ لقاءاتنا ما أمكن ذلك. إلَّا أنَّه كان يريد أن يرى الولديْن، فقد اشتاق إليهما، وكان يطلب منِّي أن أُرسلهما إليه في إجازات نهاية الأسبوع. قلت لليا إنَّني سأستشير ابنيّ، وسأُتيح لهما أن يختارا. فهزَّت رأسها، ولامتني قائلة:

«لا تتصرَّفي هكذا، أولغا، كيف يمكن للولديْن أن يختارا؟»

لم أعرها آذانًا صاغية، واعتبرت أنَّنا نستطيع أن نعالج هذا الوضع كثلاثيٍّ قادر على النقاش، والمداولة، واتِّخاذ القرارات بالإجماع أو بالأغلبيَّة. لذا، كلَّمت جاني وإيلاريا ما إن عادا من المدرسة، قلتُ لهما إنَّ أباهما يريد أن يزوراه خلالَ نهاية

الأسبوع، وشرحت لهما أنَّ القرار بالذهاب أو بعدمه يقع على عاتقهما. حذَّرتهما من أنَّهما قد يلتقيان زوجة (قلت زوجة تحديدًا) أبيهما الجديدة.

سألتني إيلاريا في الحال، من دون مواربة:

«ماذا تريدين أن نفعل؟»

تدخَّل جاني قائلًا:

«يا غبيَّة! قالت يجب أن نقرِّر نحن».

كانا قلقيْن بشكلٍ واضح، وسألاني إذا ما كانا يستطيعان استشارة بعضهما بعضًا. أقفلا باب غرفتهما، وسمعتهما يتشادَّان طويلًا. عندما خرجا، سألتني إيلاريا:

«أيزعجك أن نذهب؟»

دفعها جاني بعنف، قائلًا:

«قرَّرنا أن نبقى معكِ».

خجلت من الامتحان العاطفيّ الذي حاولتُ إخضاعهما له. أجبرتهما عصر الجمعة على الاغتسال بعناية، وألبستهما أفضل ثيابهما، وأعددت لهما حقيبتَيْن وضعتُ فيهما أغراضهما، واصطحبتهما إلى بيت ليا.

في الطريق، لم يكفَّا عن التأكيد أنَّهما لا يرغبان في مفارقتي، وسألاني مائة مرَّة كيف سأقضي السبت والأحد، وصعدا أخيرًا على متن سيَّارة ليا، واختفيا مع كلِّ ما يعتليهما من انفعالاتٍ وتوقُّعات.

تنزَّهت، وذهبت إلى السينما، وعدت إلى البيت، وتعشَّيتُ

وقوفًا من غير أن أعدّ المائدة، وشاهدت التلفزيون. اتَّصلت بي ليا في وقتٍ متأخِّر، وأخبرتني أنَّ لقاءً جميلًا مؤثِّرًا جمع الأب بابنيْه، وكشفتْ لي بشيءٍ من الانزعاج عنوان ماريو الحقيقيّ، فكان يُقيم مع كارلا في كروتشيتا، في منزلٍ جميلٍ تملكه عائلة الفتاة. دعتني أخيرًا إلى العشاء في اليوم التالي، وعلى الرَّغم من أنَّني لم أكن أرغب في ذلك، قبلتُ الدعوة، فحلقة اليوم الفارغ بشعة عندما يُطبق المساء على الأعناق كحبل مشنقة!

ذهبت إلى منزل عائلة فاراكو، حاولا تسليتي، وجاهدت في أن أكون ودودة. في إحدى اللحظات، ألقيتُ نظرة إلى المائدة المعدَّة لنا، وعددتُ الأطباق آليًّا، فألفيتها ستَّة. تصلَّبتُ. زوجان، ومن ثم أنا، ومن ثم شخص آخر. أدركت أنَّ ليا أرادت الاهتمام بي، وقد خطَّطت لتُتيح أمامي فرصة لقاءٍ تُفضي إلى مغامرة، إلى علاقة موقَّتة، إلى علاقة ثابتة، من يدري! تيقَّنت من ذلك عندما وصل الزوجان توري، اللذان تعرَّفتُ عليهما في عشاء السنة الماضية في دوري كزوجةٍ لماريو، والطبيب البيطريّ، الدكتور موريلي الذي قصدته لأعرف المزيد عن موت أوتو، وهو صديق عزيز لزوج ليا، لطيف المعشر، ويعرف كلّ ما يُروى عن مجتمع معهد البوليتكنيك، وقد دُعي بوضوحٍ ليُبهجني.

أحبطني ذلك. هذا ما ينتظرني! أمسيات من هذا النوع أظهر فيها في منازلَ غريبة مثقلةً بوضعي كامرأةٍ تنتظر أن تبني لها حياةً جديدة، أكون فيها تحت رحمة زوجاتٍ غير سعيدات يلهثن مقدِّماتٍ لي رجالًا يعتبرنهنَّ ساحرين. وعليَّ أن أقبل اللعبة، وألَّا أعرف كيف أعترف بأنَّ هؤلاء الرجال لا يُثيرون فيَّ سوى

الانزعاج لغايتهم الواضحة، والتي يعرفها جميع الحاضرين، ألا وهي أن يقيموا اتِّصالًا مع شخصي الجليديّ، ليدفِّئوا أنفسهم علَّهم يدفِّئونني، وليستحقُّوني بعدئذٍ متحقِّقين من أثر إغوائهم عليّ. رجالٌ وحيدون مثلي، ومثلي مذعورون من غربتهم، عذَّبهم الفشلُ والسنواتُ العجاف. رجال منفصلون، مطلَّقون، أرامل، مهجورون، ومغدورون.

لزمتُ الصمت طوال السهرة، أحطتُ نفسي بحَلَقَةٍ قاطعة لا مرئيَّة. وعند أيِّ جملةٍ يقولها الطبيب البيطريّ متوسِّلًا الضحك أو الابتسام، لم أكن أضحك، أو أبتسم، وأبعدت مرَّةً أو مرَّتين ركبتي عن ركبته، وتصلَّبت عندما لمس ذراعي، وحاول أن يهمس كلامًا في أذني بحميميَّةٍ لا مبرِّر لها.

لن يتكرَّر ذلك أبدًا، أبدًا. لن أتنقَّل بين منازل معارف فضوليِّين يفتعلون بودٍّ فرصَ لقاءات، ويتلصَّصون عليَّ ليروا إذا ما سارت الأمور على ما يُرام، إذا ما كان هو يقوم بما عليه أن يقوم به، وإذا ما جاءت ردود فعلي على مستوى التوقُّعات. هي مسرحيَّة للمتزوِّجين، وموضوع مسلٍّ عندما يخلو البيت، ولا تبقى سوى الفضلات على المائدة.

شكرتُ ليا وزوجها، وغادرت بيتهما باكرًا فجأةً عندما كانا يستعدَّان مع ضيوفهما للجلوس في الصالون، ليشربوا ويثرثروا.

41

رافقتْ ليا مساء الأحد الولديْن إلى البيت، فشعرت بارتياحٍ كبير. كانا تعبيْن، ولكنْ بدا من الواضح أنَّهما كانا بخير.

سألتهما «ماذا فعلتما؟»

أجاب جاني:

«لا شيء».

وما لبثتُ أن علمت أنَّهما ذهبا إلى مدينة الملاهي، وإلى فاريغوتي، ليريا البحر، وتناولا وجبتَي الغداء والعشاء في المطعم. فتحت إيلاريا ذراعيْها، وقالت لي:

«أكلت قرن مثلَّجات بهذا الحجم».

«هل أمضيتما وقتًا طيِّبًا؟» سألتهما.

«لا»، قال جاني.

«نعم»، قالت إيلاريا.

سألتهما: «هل كانت كارلا هناك؟»

«نعم»، قالت إيلاريا.

«لا»، قال جاني.

قبل أن تخلد إلى النوم، سألتني الطفلة وقد ساورها بعض القلق:

«هل تَدَعينا نذهب مجدَّدًا الأسبوع المقبل؟»

نظر إليَّ جاني من سريره بحَذَر، فأجبته أن نعم.

ليلًا، في البيت الصامت، وفيما كنت أحاول أن أكتب، خطر لي أنَّ الولديْن كانا ليُعزِّزا داخلهما، الأسبوع تلو الآخر، وجودَ الأب. كانا ليمتصَّا على نحوٍ أفضل حركاته، نبرته، خالطيْن إيَّاها بحركاتي ونبرتي. زواجنا الذي انفرط كان لينعكس مجدَّدًا داخلهما، فينجدل، ويتشابك، ويستمرّ في العيش على الرَّغم من أنَّه لم يعد لديه من أساسٍ أو من دافع. وشيئًا فشيئًا، سيفسحان المجال أمام كارلا كما فكَّرتُ، وكتبت. كانت إيلاريا لتتفحَّصها سرًّا، لتتعلَّم منها حركات التبرُّج، والمشية، وطريقتها في الضحك، واختيارها للألوان.. وهي تزيل وتضيف، كانت لتمزج ملامحها بملامحي، وذوقي، وحركاتي المدروسة والشاردة. أمَّا جاني، فكان ليرغب فيها سرًّا، حالمًا بها من قعر السائل الذي سبح فيه جنينًا. كان والدا كارلا ليتوغَّلا داخل ابنيَّ، وكانت سلالة أجدادها لتخيِّم مع أجدادي، وأجداد ماريو، وكانت وشوشةٌ خلاسيَّةٌ لتنتفخ داخلهما. وأنا أحلِّل ذلك، بدا لي أنِّي قبضت على العبثيَّة الكامنة في ضمير المتكلِّم المتملِّك «إبنيَّ». توقَّفت عن الكتابة عندما سمعتُ صوتًا، صوت لسان أوتو الحيّ

يلحس طبقَه. نهضتُ لأتأكَّد من أنَّه فارغٌ وجافّ. كانت روح الكلب وفيَّة تحرسنا. أويت إلى فراشي، ونمت.

في اليوم التالي، بدأت البحث عن عمل. لم تكن مهاراتي كثيرة. ولكنْ، وبفضل تنقُّلات ماريو، عشتُ طويلًا في الخارج. وكنت أُجيد ثلاث لغات على الأقلّ. وبمساعدة بعض أصدقاء زوج ليا، سرعان ما توظَّفت في وكالةٍ لتأجير السيَّارات أُوكلتُ فيها المراسلات الدوليَّة.

باتت نهاراتي أكثر إنهاكًا من المعتاد: العمل، والتسوُّق، والترتيب، والولدان، والرغبة في استئناف الكتابة، ولوائح الشؤون الملحَّة التي عليَّ أن أقوم بها، والتي كنت أضعها مساءً: كشراء القدور الجديدة، والاتِّصال بالسمكري لأنَّ الماء يسيل من المغسلة، وإصلاح درفة النافذة في غرفة الجلوس، وشراء ثياب رياضيَّة لجاني، وشراء زوج أحذية جديد لإيلاريا، فقد نَمَتْ قدمها..

شرعتُ في سباقٍ حيويّ مستمرّ من الاثنين حتى الجمعة، ولكنْ بعيدًا عن هَوَس الأشهر الماضية.

كنت أمدّ خيطًا مشدودًا يثقب الأيَّام، وأنزلق عليه بسرعة بدون هواجس، في توازنٍ كاذب، وبراعةٍ متنامية إلى أن أسلِّم الطفليْن لليا التي كانت تسلِّمهما بدورها إلى ماريو. عند ذلك، كان وقت نهاية الأسبوع الفارغ يُشرَّع أمامي، فأشعر وكأنَّني أقف مترنِّحةً على شفير بئر.

أمَّا عودة الولديْن مساء الأحد، فقد باتت نشرةَ ألمٍ اعتياديَّة. اعتاد الاثنان على التأرجح بين بيتي وبيت ماريو، وسرعان ما كفّا

عن تجنُّب ما قد يجرحني. فراح جاني يمدح طعام كارلا كارهًا ما أُعدُّه له. وروت لي إيلاريا أنَّها كانت تستحمّ مع زوجة أبيها الجديدة، وكشفت لي أنَّ ثدييْها أجمل من ثدييَّ، وأدهشها أن يكون شعر عانتها أشقر، ووصفت لي بدقَّة ثيابها الداخليَّة، وجعلتني أُقسم لها إنَّه ما إن ينبت ثدياها حتى أشتري لها حمَّالات النهديْن من اللون نفسه، ومن النوعيَّة نفسها. اعتمد كِلا الطفليْن محطّ كلام جديد، لم يسمعاه منِّي بالتأكيد، فراحا يقولان باستمرار «عمليًّا». أنَّبتني إيلاريا، لأنَّني رفضت شراء علبة مستحضرات فاخرة جدًّا كانت تمتلكها كارلا. وفي أحد الأيَّام، وفيما كنَّا نتجادل حول معطفٍ اشتريته لها ولم يكن يُعجبها، صاحت فيّ قائلةً: «أنتِ شرِّيرة، كارلا أطيب منكِ».

بلغتُ مرحلةً، لم أعد أعرف معها إذا ما كان حالي أفضل بوجودهما أم بعدمه. لاحظت على سبيل المثال أنَّه، على الرَّغم من أنَّني لم أعد أُبالي بالعذاب الذي يسبِّبانه لي وهما يرويان أخبار كارلا، كانا يحرصان كلّ الحرص على أن أهب نفسي لهما، لا لأيّ شخصٍ آخر. في يوم عطلةٍ مدرسيَّة، حملتهما معي إلى العمل. جلسا بهدوء على غير عادتهما. عندما دعانا زميل لي إلى الغداء، جلسا إلى المائدة بلباقة، صامتيْن، ومتنبِّهيْن، بدون أن يتجادلا، وبدون أن يتبادلا ابتساماتٍ ماكرة، أو كلمات مشفَّرة، وبدون أن يلوِّثا شرشف الطاولة بالطعام. أدركتُ لاحقًا أنَّهما قضيا الوقت في تفحُّص معاملة ذاك الرجل لي، والانتباه الذي كان يوليه إليّ، والنبرة التي كنت أُجيبه بها، راصدَيْن، كما يفعل الأطفال ببراعة، الذبذبات الجنسيَّة التي كان يرسلها إليّ،

والتي كانت شبه معدومة، فهي لم تتعدَّ اللعبة في استراحة الغداء.

«سألني جاني بفرحٍ حاقد: «أرأيتِ كيف كان يطقطق بشفتيْه عند نهاية كلّ جملة؟»

هززت رأسي، لم ألحظ ذلك. أمَّا هو، وليُريني ما فاتني، طقطق بشفتيْه بطريقةٍ مضحكة نافخًا شفتيْه الحمراويْن ومُصدرًا صوتًا بعد كلِّ كلمتيْن. ضحكت إيلاريا حتى انهمرت دموعها، وكانت تطالبه بعد نهاية التقليد بالمزيد. بعد قليل، رحت أضحك أنا أيضًا على الرَّغم من أنَّ حيويَّتهما الخبيثة تلك شتَّتتني.

جاء جاني مساءً إلى غرفة نومي لأقبِّله قبلة المساء المعهودة، وعانقني على حين غرَّة، وقبَّلني على وجنتيَّ مُصدرًا صوتًا وملوِّثًا إيَّاي بلعابه، وسرعان ما ذهب مع أخته إلى غرفتهما وهما يتضاحكان. ومذَّاك، راح كِلا الاثنيْن ينتقدان كلّ ما أقوم به. وبالمقابل، بدآ في الثناء الصريح على كلّ ما تقوم به كارلا. كانا يخضعاني للأحاجي التي علَّمتها لهما ليُرياني أنَّني لا أعرف الإجابة، وكانا يؤكِّدان كم كان بيت ماريو الجديد جميلًا، وكم كان بيتنا بشعًا وغير مرتَّب. سرعان ما بات جاني لا يُطاق. كان يصرخ من غير أيّ سبب، ويُحطِّم ما حوله، ويتعارك مع رفاقه في المدرسة، ويضرب إيلاريا، وأحيانًا كان يغضب من نفسه، ويحاول عضّ ذراعه، أو يده.

في أحد أيَّام نوڤمبر، صادف أن كان عائدًا إلى البيت من المدرسة مع أخته، وقد اشتريا قرنَيْ مثلَّجات كبيريْن. لست أدري ما الذي جرى بالضبط! ربَّما بعد أن أنهى جاني قرنه، طالب إيلاريا بأن تُعطيه حصَّتها، فقد كان نَهِمًا ويشعر دائمًا بالجوع.

خلاصة الحديث أنَّه دفعها دفعةً قويَّة، فوقعت على فتى في السادسة عشرة من العمر، ولوَّثت قميصه بالكريما والشوكولاتة.

بدا أنَّ الفتى في البداية لم يكن مهتمًّا سوى بتلوُّث قميصه، لكنَّه استشاط غضبًا فجأةً، وارتدّ على إيلاريا. ضربه جاني عندها بحقيبته على وجهه مباشرة، وعضَّ يده ولم يفلتها إلَّا عندما بدأ الفتى يوسعه لكماتٍ، وصفعاتٍ بيده الأخرى.

عندما عدت من العمل، فتحت الباب بمفتاحي، وسمعت صوت كارانو داخل بيتي. كان يتكلَّم في غرفة الجلوس مع الولديْن. في البداية، أبديت بعض البرود، ولم أفهم لِمَ كان في بيتي، وكيف سمح لنفسه بالدخول. ومن ثم، عندما رأيت حالة جاني، وقد لاحت كدمةٌ سوداء عند عيْنه، وانشقَّت شفته السفلى، نسيتُ وجوده، وهرعتُ إلى الولديْن والقلق ينهشني.

رويدًا رويدًا، فهمت أنَّ كارانو وهو عائدٌ إلى المنزل وجد ابنيَّ في وضع حَرِج، فأبعد جاني عن غضب الفتى المُهان، وهدَّأ روْع إيلاريا المذعورة، ورافقهما إلى المنزل. لا بل أكثر من ذلك: أفرحهما بقصص الضرْبات التي سدَّدها وتلقَّاها خلال طفولته، حتى إنَّ الطفليْن راحا يدفعانني بعيدًا، ويطالبانه باستكمال قصصه.

شكرته على ذلك، وعلى كلِّ البوادر اللطيفة التي صدرت عنه. بدا مسرورًا، لكنَّه أذنب مجدَّدًا بتلفُّظه جملةً خاطئة. استأذن بالخروج قائلًا:

«ربَّما ما يزالان صغيريْن جدًّا ليعودا إلى البيت بمفردهما».

أجبته:

«أكانا صغيريْن أم لم يكونا كذلك، فلا خيار لديّ».

أضاف قائلًا «أستطيع الاهتمام بهما بين الحين والآخر إذا شئتِ».

شكرته مجدَّدًا ببرود. وقلت إنَّني أستطيع تدبُّر شؤوني بمفردي، وأقفلت الباب.

42

لم يتحسَّن سلوك جاني وإيلاريا بعد تلك المغامرة، لا بل لم يكفَّا عن تحميلي ذنوبًا خطيرة يتخيَّلونها، مع أنَّني لم أرتكبها، ولم تكن تلك سوى أحلام طفوليَّة سوداء. في هذه الأثناء، وفي تبدُّل مفاجئ يصعب شرحه، كفّا عن اعتبار كارانو عدوًّا، قاتل أوتو كما كانا يدعوانه؛ وعندما كانا يصادفانه على الدرج، كانا يحيّانه دائمًا بودٍّ كما لو كان رفيقًا لهما في اللعب. أمَّا هو، فكان يُجيب غامزًا بعينيْه على نحوٍ مثيرٍ للشفقة، وبسلامٍ مقتضبٍ من يده. كان وكأنَّه يخشى المبالغة، لا شكَّ في أنَّه لم يشأ إزعاجي، إلَّا أنَّ الولديْن لم يكتفيا، وكانا يطالبانه بالمزيد.

«مرحبًا آلدو»، كان يصرخ جاني، ولا يكفّ عن إلقاء التحيَّة ما لم يهمهم كارانو وقد أحنى رأسه قائلًا: مرحبًا جاني.

أمَّا أنا، فكنت أهزّ ابني، وأقول له:

«ما هذه الحميميَّة؟ عليك أن تكون أكثر تهذيبًا».

إلَّا أنَّه كان يتجاهلني، ويروح يتلو عليَّ مطالبه من قبيل: أريد أن أثقب أذني، أريد أن أضع قرطًا، غدًا سأصبغ شعري باللون الأخضر.

أيَّام الآحاد، وعندما لم يكن ماريو قادرًا على الاهتمام بهما، وهي لم تكن بالأيَّام القليلة، كانت تنقضي الساعات في البيت مفعمةً بالعصبيَّة، واللوم، والجدال. كنت أصطحبهما عند ذلك إلى الحديقة العامَّة، حيث يلعبان ما شاءا بالأراجيح، فيما كان الخريف ينفخ الأوراق الصفراء والحمراء في زوابع، راميًا إيَّاها على الدروب المعبَّدة، أو مخلِّفًا إيَّاها على صفحة مياه نهر البو. ولكنْ أحيانًا، لا سيَّما عندما كانت أيَّام الآحاد رطبة يلفّها الضباب، كنَّا نتوجَّه إلى وسط المدينة، وكان يلاحق أحدهما الآخر حول أحواض الماء، التي كانت تبثّ خيوط الماء البيضاء من قعرها، فيما كنت أتجوَّل من غير حماسة مسكتةً هدير الصُّوَر المضطربة، والأصوات المتداخلة التي كانت تعود إلى ذهني في لحظات الإنهاك. في بعض اللحظات التي كانت تبدو لي مثيرةً للقلق، كنت أحاول رصد أصواتٍ من الجنوب بلكنة تورينو، ما كان يُثير فيَّ خدعةً طفوليَّةً لطيفة، وطيف ماضٍ، وسنواتٍ متراكمة، ومسافةً مناسبة للذكريات. غالبًا ما كنت أجلس جانبًا على الدرج، مولية ظهري لتمثال إيمانويلي فيليبرتو، فيما كان جاني، المسلَّح دائمًا برشَّاشٍ صاخبٍ من وحي الخيال العلميّ الذي أهداه إيَّاه والده، يلقِّن أخته دروسًا فظيعة حول حرب 1915 ـ 1918، وكان يتحمَّس لعدد القتلى من الجنود، والوجوه السوداء للمقاتلين المصنوعين من البرونز، وبنادقهم أسفل أقدامهم. كنت أنظر عند ذلك إلى المساحات المزروعة. أرقب المداخن الثلاث المتصلِّبة

والغامضة التي كانت تنتصب على العشب، وتحرس القلعة الرماديَّة كما لو كانت مناظير، وأشعر أن لا شيء، لا شيء على الإطلاق قادرٌ على مواساتي، حتى لو كنت أقول لنفسي أنا الآن هنا، وابناي حيَّان يلعبان معًا، وقد تراجع الألم، عذَّبني لكنَّه لم يحطِّمني. كنت ألمس بين الحين والآخر بأناملي، من فوق جاربي، أثر الجرح الذي تسبَّبت لي به إيلاريا.

ثم حدث ما فاجأني وجعلني أضطرب. في وسط الأسبوع، وعند نهاية يوم عمل، عثرت على المجيب الآلي لهاتفي الخلويّ على رسالةٍ من ليا. كانت تدعوني لحضور حفلٍ موسيقيٍّ مساءً مؤكِّدة لي أنَّها متمسِّكة بالذهاب إليه. شعرتُ بتأثُّرٍ خفيف في صوتها، بشيءٍ من التكلُّف الذي كانت تعتمده عندما كانت تتحدَّث عن الموسيقى الكلاسيكيَّة، التي كانت تكنّ لها شغفًا عظيمًا. لم أكن أرغب بالخروج، لكنْ، كما كان يجري لي مع شؤونٍ كثيرة في حياتي في تلك الفترة، أجبرت نفسي على ذلك. إلَّا أنَّني خشيت بعد ذلك أن تكون قد نظَّمت سرًّا لقاءً جديدًا مع الطبيب البيطريّ، وتردَّدتُ طويلًا، فلم أكن أرغب أن أمضي السهرة بكاملها متوتِّرة. في نهاية المطاف، قرَّرت الذهاب بحضور الطبيب البيطريّ أو بعدمه، فالحفل الموسيقيّ سيجعلني أسترخي، وللموسيقى دائمًا أثرٌ طيِّب، فهي تحلّ عِقَدَ الأعصاب المتشابكة حول الانفعالات. لذلك، أجريت مكالماتٍ هاتفيَّة عدَّة، لأجد من يرعى جاني وإيلاريا. عندما نجحت في ذلك، كان عليَّ أن أُقنعهما أنَّ الأصدقاء الذين قرَّرت أن أوكلهما إليهم لم يكونوا مقيتين جدًّا، كما كانا يزعمان. استسلما أخيرًا، على الرَّغم من أنَّ إيلاريا أعلنت مباشرة:

«بما أنَّك لستِ أبدًا في البيت، دعينا نذهب لنعيش دائمًا لدى بابا».

لم أجبها. كلّ إغراءٍ بالصراخ كان يوازنه الهلع في أن أمضي مجدّدًا على دربٍ قاتم وأضيع فيه، لذا حافظت على رباطة جأشي. التقيت بليا، وتنفَّست الصعداء، فقد كانت وحيدة. استقلينا سيَّارة أجرة، لنبلغ مسرحًا صغيرًا خارج المدينة يشبه قشرة جوزة لا زوايا فيها، ومصقولة. كانت ليا تعرف جميع من يرتادون تلك الأجواء، فشعرتُ بالارتياح، وتمتَّعتُ بانعكاس شهرتها عليّ.

كانت القاعة الصغيرة تعجّ بالضوضاء لبعض الوقت، أصواتٌ خافتة تنادي، تحيَّاتٌ تُلقى، غمامةٌ من العطور والأنفاس. جلسنا بعد ذلك، فعمّ الصمت، وخفتت الأنوار، ودخل الموسيقيُّون، والمغنِّية.

«إنَّهم بارعون جدًّا»، همست ليا في أذني.

لم أقل شيئًا. بين الموسيقيِّين، كنتُ قد تعرَّفتُ لتوِّي، وبدهشةٍ عارمة، على كارانو. كان يبدو مختلفًا تحت الأضواء الكشَّافة، وأكثر طولًا. كان نحيلًا وأنيقًا، وكانت كلّ حركة تصدر عنه تُخلِّف وراءها خطًّا ملوَّنًا، وكان شعره يلمع كما لو كان معدنًا ثمينًا.

عندما بدأ بعزف الفيولونسيل، فقدت كلّ ما تبقَّى من الرجل الذي يقطن في البناية التي أسكنها. أصبح ضرْبًا من التهيُّؤات المثيرة للذهن، جسدًا مليئًا بالغرائب المغرية، يستمدّ أصواتًا مستحيلةً من نفسه لفرط ما كانت الآلة جزءًا منه، حيَّةً وقد وُلدت

من جذعه، وساقيْه، وذراعيْه، ويديْه، وتجلّي عينيْه وفمه.

عاودت، بدون قلق، تدفعني الموسيقى، زيارة شقّة كارانو. زجاجة النبيذ على الطاولة، والكأسان الطافحان أو الفارغان، عباءة يوم الجمعة السوداء تلك، الجسد الذكوريّ العاري، اللسان، الجنس. بحثت بين صور الذاكرة تلك، وفي الرجل الذي يرتدي البرنس، رجل تلك الأمسية، عن ذاك الرجل الآخر الذي كان يعزف ولم أجده. يا للعبث! ذهبت إلى أقاصي الحميميَّة مع هذا السيِّد البارع والجذّاب، لكنّني لم أره. وأنا أراه الآن يبدو لي أنَّ تلك الحميميَّة لم تكن له، كانت حميميَّة رجل آخر حلّ مكانه، ربَّما كانت تلك ذكرى كابوس يعود لمراهقتي! ربَّما هو مجرَّد حلم صحوٍ ساور امرأةً منهارةً! أين أنا؟ في أيِّ عالم هوَيْت، وفي أيِّ عالمٍ عدتُ لأطفو على السطح؟ ما هي الحياة التي عدت إليها؟ وما الهدف من ذلك؟

«ماذا دهاكِ؟» سألتني ليا وقد أثار اضطرابي، ربَّما، قلقها.

همست قائلة:

«عازف الفيلونسيل جاري».

«إنَّه بارع، أتعرفينه جيّدًا؟»

«لا، لا أعرفه البتَّة».

في نهاية الحفل، صفَّق الجمهور تصفيقًا حارًا. خرج الموسيقيُّون إلى الخشبة، وعادوا. وكانت انحناءة كارانو كبيرة ورقيقة، كما لو كان شعلةً تنحني وقد نفختها الريح، فانقلب شعره المعدنيُّ باتِّجاه الأرض بدايةً؛ ومن ثم، عندما قوَّس ظهره ورفع

رأسه بحيويَّة، عاد لموضعه. عُزفت مقطوعةٌ أخرى، وتملَّك التأثُّر المغنِّية الجميلة بصوتها الشغوف، فعاودنا التصفيق. لم يكن الناس يرغبون بتركهم يذهبون، وبدا الموسيقيُّون على إيقاع التصفيق، كأنَّما امتصَّتهم خشبة المسرح بدايةً، ومن ثم وكأنّ أمرًا قاسيًا وُجِّه إليهم وطَرَدهم. كنت أشعر بالدهشة، وبأنَّ جلدي يشدّ بعنف على عضلاتي وعظامي. كانت تلك حياة كارانو الحقيقيَّة. أو ربَّما الزائفة، التي كانت تبدو لي الآن حياته أكثر من تلك الحياة الحقيقيَّة.

حاولت التخفيف من شدَّة الحماسة التي كنت أشعر بها، إلَّا أنَّني لم أفلح في ذلك، بدا لي وكأنَّ القاعةَ قد اتَّخذت وضعيَّةً عموديَّة، وقد بات المسرح في الأسفل، وبتّ أطلّ على شفير مُزْق من الأعلى. حتى عندما سمعت أحد المشاهدين ينبح بسخرية ليعاجل في العودة لبيته لينام، وعندما راح التصفيق يخبو رويدًا رويدًا، وعندما فَرَغتْ خشبة المسرح وقد تلوَّنت بالأخضر الباهت، وقد بدا لي أنّ ظلّ أوتو كان يجتاز الخشبة بفرحٍ كشريانٍ قاتم يتخلَّل جلدًا حيًّا ولامعًا، لم أخف. المستقبل، تراءى لي عندَ ذلك، سيكون كلُّه هكذا، الحياة الحيَّة المجبولة برائحة أرض الأموات الرطبة، والانتباه مع اللامبالاة، وتقلُّبات القلب المتحمِّسة مع فقدان المعنى المباغت.. إلَّا أنَّه لن يكون أسوأ من الماضي.

طرحت عليَّ ليا في سيَّارة الأجرة أسئلةً كثيرةً حول كارانو. أجبتها باقتضاب. عند ذلك، وبلا أيّ منطق، كما لو أنَّها غارت منِّي، لأنِّي احتفظت لنفسي بذاك الرجل الموهوب، راحت تُبدي استياءها من نوعيَّة الأداء.

«بدا وكأنَّه غائب»، قالت لي.

سرعان ما أضافت بعد ذلك جُمَلًا، مثل: بدا مضطربًا، أو لم ينجح بالقيام بقفزة نوعيَّة. إنَّها لموهبةٌ عظيمةٌ بذَّدها لعدم تمتُّعه بالثقة، إنَّه فنَّان لا يستخدم قدراته كافَّة لفرط حذره. قبل أن تغادرني، وقد بتنا أسفل منزلي، راحت تحدِّثني فجأة عن الدكتور موريلي. حملتْ له قطّها، فراح يسألها بإصرار عنِّي، إذا ما كنت بخير، إذا ما كنت قد اجتزت صدمة الانفصال.

«طلب منِّي أن أقول لكِ»، راحت تصرخ وأنا ألج البوَّابة «أنَّه أعاد النظر، وأنَّه ليس واثقًا من أنّ أوتو قد قضى لتناوله الستريكنين، فالمعطيات التي قدَّمتها له غير كافية، ويجب أن تروي له بشكلٍ أكثر تفصيلًا ما جرى».

ضحكتْ بخبث من نافذة سيَّارة الأجرة التي انطلقت ماضيةً:

«أعتقد أنَّها ذريعة يا أولغا، يريد أن يراكِ مجدَّدًا».

بطبيعة الحال، لم أزر أبدًا الطبيب البيطريّ، على الرَّغم من أنَّه كان رجلًا لطيفًا، ويوحي بالثقة. كنت أخشى اللقاءات الجنسيَّة الخفيفة، وأشعر بالقرف منها. ولكنَّني لم أكن أريد، على وجه الخصوص، أن أعرف إذا ما كانت الستريكنين أو غيرها قد قتل أوتو. كان الكلب قد مضى عبر مُزَق في شبكة الأحداث. فنحن نخلِّف الكثير من جراح عدم الاهتمام، عندما نجمع الأسباب إلى النتائج. المهمّ الآن أن يكون الحَبْل، والجديلة التي تحملني، متينيْن!

43

لأيَّام بعد تلك الأمسية، كان عليَّ أن أتصدَّى لنموِّ استياء جاني وإيلاريا. أنّباني، لأنِّي تركتهما مع غرباء، وأنَّباني لقضائي الوقت مع غرباء. اتَّهماني بأصواتٍ قاسية، من دون عاطفة، من دون حنان.

«لم تضعي لي في الحقيبة فرشاة الأسنان»، قالت إيلاريا.

«أُصبت بالزكام، لأنَّهم لم يشعلوا المدفأة»، قال لي جاني.

«أرغموني على أكل التونة وقد تقيَّأت»، كانت الطفلة تقول لي لائمة.

إلى أن حلَّت نهاية الأسبوع، كنت سبب كلّ ما يكدِّرهم. وفيما كان جاني يحدِّق إليَّ ساخرًا، وكنت أتساءل إذا ما كانت تلك النظرة نظرتي، ولذلك كنت أكرهها، أو كانت نظرة ماريو، أو ربَّما نقل النظرة عن كارلا متمرِّنًا على الصمت المقلق، كانت إيلاريا تُطلق صيحاتٍ طويلةً حادَّة لأتفه الأسباب، وترتمي أرضًا،

وتعضُّني، لأجل قلم رصاص لا تعثر عليه، أو قصَّة شرائط مصوَّرة تمزَّقت إحدى صفحاتها بالكاد، وشعرها المجعَّد، والذي كانت تريد له أن يكون أملس. كان أحد ذنوبي، لأنَّ شعري كان مجعَّدًا فيما كان شعر أبيها جميلًا.

تركتهما وشأنهما، فقد كنت قد اختبرت ما هو أسوأ من ذلك. وقد بدا لي فجأةً أنَّ السخرية، والصمت، والصراخ كانت طريقتهما التي اتَّفقا عليها بصمت، ربَّما، في السيطرة على استيائهما واختراع أسبابٍ تخفِّف منه. كنت أخشى فقط أن يتَّصل الجيران بالشرطة!

كنَّا نكاد نخرج في إحدى الصبيحات، وكانا قد تأخّرا عن موعد المدرسة، فيما تأخَّرت أنا عن عملي. كانت إيلاريا عصبيَّة، ومستاءة من كلِّ شيء، فأغضبها حذاؤها، إنَّه الحذاء الذي تنتعله منذ شهر على الأقلِّ، والذي راح يؤلمها الآن فجأةً. ارتمت باكيةً أمام باب المنزل، وراحت تركل الباب الذي أقفلتُه لتوِّي. كانت تبكي وتصرخ قائلة إنَّ قدميْها تؤلمانها، وإنَّها لا تستطيع الذهاب إلى المدرسة على هذه الحال. كنت أسألها عن موضع الألم، من دون إصرار إنَّما بصبر. كان جاني يكرِّر باستمرار ضاحكًا: قطِّعي قدمك، صغِّريها ليناسبك الحذاء: أمَّا أنا، فكنت أهمس قائلةً كفى، سكوت، فلنذهب وإلَّا تأخَّرنا!

على إثر ذلك، سُمعت جلبة قفلٍ في الطابق أسفلنا، وصوت كارانو الناعس، وهو يقول:

«هل تحتاجون مساعدة؟»

خضَّب الخجل وجهي، كما لو قُبض عليَّ وأنا أقترف ما

يندى له الجبين. وضعت يدي على فم إيلاريا، وأغلقته قسرًا. بيدي الأخرى، أجبرتها على النهوض بقوّة. صمتتِ الطفلة في الحال وقد فاجأها سلوكي الذي لم يعد متهاونًا. حدَّق فيَّ جاني متسائلًا، فيما رحت أبحث عن صوتي في قعر حلقي، وعن نبرةٍ شبه طبيعيَّة.

«لا»، قلت له «شكرًا اعذرنا».

«هل أستطيع أن أساعد...».

«كلّ شيء على ما يُرام، لا تقلق، شكرًا مجدّدًا على كلّ شيء».

حاول جاني أن يصرخ:

«مرحبًا آلدو»، إلَّا أنَّني ضغطت أنفه، وفمه إلى قماشِ معطفي بعنف.

أُقفل الباب بتؤدة. وبمرارة، اعترفت بأنّ كارانو باتت له سلطة عليّ. كان الرجل المقيم في الطابق أسفلنا قد أصبح في نظري حارس قوَّة غامضة، يتمتَّع بها ويخفيها من باب التواضع، واللباقة، والتهذيب.

44

عملت في المكتب من غير تركيز طيلة الصباح. يبدو أنَّ عاملة التنظيفات قد بالغت في استخدام إحدى موادّ التنظيف المعطِّرة، فقد كانت رائحة صابونٍ وكرز قويَّة تفوح، وكانت أجهزة التدفئة الملتهبة تجعلها حامضة. كتبت مراسلاتٍ بالألمانيَّة لساعاتٍ من دون مثابرة تُذكر، فكان عليَّ أن أستشير باستمرار القاموس. فجأةً، سمعت صوتًا ذكوريًّا يأتي من قاعة استقبال العملاء. بلغني الصوت واضحًا للغاية، كان محمَّلًا بالعداء البارد إزاء بعض الخدمات التي دُفع ثمنها باهظًا، إلَّا أنَّه تبيَّن أنَّها لم تكن عند مستوى التوقُّعات عند الوصول إلى الخارج. إلَّا أنَّني سمعت الصوت من بعيد، كما لو كان يصلني لا من على بعد أمتارٍ قليلة بل من مكانٍ ما في دماغي. كان صوت ماريو.

شققت باب غرفتي، ونظرت إلى الخارج. رأيته جالسًا أمام مكتبٍ تحت لوحة بوستر ملوَّنة جدًّا، تظهر فيها برشلونة. كانت

ترافقه كارلا، وتجلس إلى جانبه، فبدت لي ظريفةً، أكبر، وقد سمنت قليلًا فقط، ولم تكن جميلة. بدا لي كلاهما كما لو كانا على شاشةٍ تلفزيونيَّة، كممثِّلَيْن معروفَيْن يؤدِّيان دورًا في مسلسلٍ ما في فصلٍ من حياتي. بدا لي ماريو تحديدًا غريبًا، يمتلك من باب المصادفة الملامح المتبدِّلة لشخصٍ كان أليفًا جدًّا في ما مضى. كان قد سرَّح شعره بشكلٍ كشف عن جبينٍ عريض، يحدّه الشعر الكثيف والحاجبان. كان وجهه قد نحل، وخبت الخطوط البارزة عند الأنف، وأعلى الوجنتيْن، فخطَّت رسمًا أجمل ممَّا كنت أذكره. بدا وكأنَّه أصغر بعشر سنين، وقد اختفت السمنة عند الوركيْن، والصدر، والبطن، حتى إنَّه بدا أطول.

شعرتُ بما يُشبه اللمسة الخفيفة إنَّما الحاسمة وسط جبيني، وشعرت بيديّ وقد تعرَّقتا. إلَّا أنَّ الانفعال فاجأني للطافته، كما عندما يجعلنا كتابٌ، أو فيلمٌ، نحزن لا الحياة. قلت بصوت هادئ للموظَّفة التي كانت تربطني بها صداقة:

«هل من مشاكل مع السيِّديْن؟»

استدار ماريو وكارلا بقوَّة. لا بل قفزت كارلا على قدميْها وقد بدا الخوف بوضوحٍ عليها. أمَّا ماريو، فلزم جلسته، وراح يتلمَّس أنفه ممرِّرًا إبهامه وسبَّابته عليه لثوانٍ معدودة، كما اعتاد أن يفعل إذا ما شعر بأيِّ انزعاج. قلتُ بسعادة ظاهرة:

«يسعدني جدًّا أن أراكما».

تقدَّمتُ منه، فمدَّت كارلا بشكل آليّ يدها لتجذبه إليها وتحميه. وقف زوجي متردِّدًا، فقد كان من الواضح أنَّه لا يعلم ماذا ينتظره. مددتُ إليه يدي، وتبادلنا القُبل على الخدَّيْن.

«أراكما في حالة جيِّدة»، تابعتُ القول، وصافحتُ يدَ كارلا شادَّةً عليها أيضًا، إلَّا أنَّها لم تبادلني المصافحة، لا بل قدَّمت لي أصابع الكفِّ وباطنه التي بدت من لحمٍ رطب ذاب الجليد لتوِّه عنه.

«أنتِ أيضًا تبدين بخير»، قال لي ماريو بنبرةٍ حائرة.

«نعم»، قلت له بفخر «لم أعد أشعر بالألم».

«كنت أريد الاتِّصال بكِ لنتكلَّم على الولديْن».

«ما يزال الرقم هو نفسه».

«علينا أن نتحدَّث عن الانفصال أيضًا».

«متى شئتِ ذلك».

وضع، وقد قال كلّ ما لديه من كلام، يديْه في جيبيْ معطفه بعصبيَّة، وسألني بنبرةٍ مبهمة إذا ما كان هناك من جديد، فأجبته:

«لا جديد يُذكر، لا شكّ في أنَّ الولديْن أخبراك أنَّني لم أكن بخير، وأنّ أوتو مات».

«مات؟» قال هامسًا.

كم أنَّ الأطفال غامضون. أخفيا عنه الخبر، ربَّما لأنَّهما لم يشاءا إيلامه، أو لأنَّهما كانا على قناعةٍ أنَّ كلّ ما ينتمي إلى الحياة السابقة لم يعد يعنيه!

«لقد سُمِّم»، قلت له. فسأل بغضب:

«من قام بذلك؟»

«أنتَ» أجبته بهدوء.

«أنا؟»

«نعم. اكتشفت أنَّك رجل عديم التهذيب، والناس يردُّون على قلَّة التهذيب بأفعال شرِّيرة».

نظر إليَّ ليتبيَّن إذا ما كانت الأجواء الودِّيَّة قد بدأت بالتبدُّل، وإذا ما كنت أنوي استئناف المشادَّات. حاولت طمأنته باعتماد نبرةٍ محايدة:

«أو ربَّما كان لا بدَّ من كبش محرقة، وبما أنّي انتحيْت جانبًا، كان الدور من نصيب أوتو».

عند ذلك، بدرت منِّي حركةٌ غير متوقَّعة وآليَّة، فقد نفضت عن سترته بعض ذرَّات القشرة، كانت تلك عادةً تعود إلى السنوات الماضية. تراجع وكاد يقفز إلى الخلف، فاعتذرْت، وتدخَّلت كارلا لتستكمل بعنايةٍ أكبر العمليَّة التي عاجلت في إنهائها.

تبادلنا التحيَّة، بعد أن أكَّد لي أنَّه سيتَّصل ليعيِّن موعدًا.

«تستطيعين المجيء أنتِ أيضًا»، قلت لكارلا.

أجاب ماريو بحسم، حتى من غير أن يستشيرها بنظرته:

«لا».

45

بعد يوميْن اثنيْن، وصل إلى المنزل محمَّلًا بالهدايا. حيَّاه جاني وإيلاريا، خلافًا لتوقُّعاتي، كعادتهما بدون حماسة، فلا شكّ أنّ طقس نهاية الأسبوع أعاد إليه دوره الطبيعيّ كأب. شرعا في الحال في تمزيق ورق الهدايا التي راقت لهما. حاول ماريو التدخُّل واللعب معهما، من دون أن يلقى ترحيبًا منهما. تجوَّل في النهاية قليلًا في الغرفة، ولمس بعض الأغراض برؤوس أصابعه، ونظر عبر النافذة. سألتُه:

«أتريد فنجان قهوة؟»

قَبِلَ في الحال، وتبعني إلى المطبخ. تحدَّثنا عن الولديْن، فقلت له إنَّهما يجتازان مرحلةً صعبة، فصُعق، وأكَّد لي أنَّهما كانا طيِّبيْن معه، ومنضبطيْن جدًّا. وما لبث أن أخرج قلمًا وورقة، ووضع برنامجًا دقيقًا للأيَّام التي سيخصِّصها لهما، والأيَّام التي سأُخصِّصها أنا لهما، وقال لي إنَّ لقاءهما على نحوٍ آليٍّ عند نهاية

كلّ أسبوع كان أمرًا خاطئًا.

«آمل أن يكفيكِ الراتب الشهريّ الذي أدفعه لك»، قال لي.

«لا بأس»، قلت له «إنَّك كريم».

«سأهتمّ أنا بمسألة الانفصال».

قلت له بغية الإيضاح:

«إذا ما اكتشفتُ أنَّك تترك الطفليْن لكارلا لتصرِّف شؤون عملك من غير أن تهتمّ بهما، لن تراهما بعد ذلك».

تظاهر بالارتباك، وحدَّق بالورقة.

«لا تقلقي، كارلا تتمتَّع بميِّزات كثيرة».

«لا شكَّ في ذلك، ولكنَّني أفضِّل ألَّا تتعلَّم إيلاريا التأنُّق والتدلُّل كما تفعل هي. ولا أريد لجاني أن يرغب في تلمُّس صدرها كما تفعل أنت».

ترك القلم على الطاولة، وقال آسفًا:

«كنت أعلم ذلك. لم تتجاوزي أيّ شيء».

رسمتُ تعبيرًا على وجهي وشفتاي مطبقتان، وأضفت:

«تجاوزت كلّ شيء».

نظر إلى السقف، والأرض، وشعرت بأنَّه مستاء. أرخيت ظهري إلى الكرسيّ. الكرسيّ الذي كان جالسًا هو إليه بدا لي بدون أيّ مساحة وراء الكتفيْن، كرسيٌّ أُلصق إلى جدار المطبخ الأصفر. لاحظت أنَّه خلَّف على شفتيْه ضحكةً خرساء، لم أكن قد رأيتها يومًا. كانت تليق به. فقد بدت ضحكةَ رجلٍ لطيف، يريد أن يُثبت أنَّه يعرف الحياة حقَّ المعرفة.

«ما رأيك فيَّ»، سألني.

«لا شيء. يُدهشني فقط ما سمعته عنك هنا وهناك».

«ماذا سمعتِ؟»

«أنَّك انتهازيٌّ ومتقلِّب الأهواء».

توقَّف عن الابتسام، وقال ببرود:

«أولئك الذي قالوا ذلك ليسوا أفضل منِّي».

«لا يعنيني ما هم عليه. أريد فقط أن أعرف كيف أنتَ، وإذا ما كنت كذلك في السابق أيضًا».

لم أشرح له أنَّني أريد أن أمحوه تمامًا من جسدي، وأن أسحب منِّي تلك الجوانب منه التي لم أستطع يومًا، بسبب حكم إيجابيٍّ تجاهه أو استسهالًا، أن أراها. أخفيت عنه أنَّني أريد أنْ أفرّ من صوته الذي يمتصّني، ومن تعابيره الكلاميَّة، وحركاته، ومن إحساسه تجاه العالم. أريد أن أكون أنا نفسي، إذا كان ما يزال لهذا التعبير من معنى. أو كنت أريد على الأقلِّ أن أرى ما تبقَّى منِّي بعد أن أنزعه.

أجابني بحزنٍ زائف:

«ما أنا عليه، وما لست عليه، ما أدراني».

ثم أشار بوَهَن إلى طَبَق أوتو الذي كان ما يزال في إحدى الزوايا قرب البرَّاد.

«أودُّ أن أهدي الولديْن كلبًا جديدًا».

هززت رأسي، تحرَّك أوتو في البيت، سمعت صوتًا خفيفًا يصدر من أظافر قوائمه على الأرض، نوعًا من التكتكة. ضممتُ

يديَّ، وفركت إحداهما بالأخرى ببطء، لأُلغي بخار الاستياء من باطنهما.

«لا أقبل التبديل».

ذاك المساء، عندما رحل ماريو، عاودت قراءة الصفحات التي تذهب فيها آنّا كارينينا باتِّجاه الموت. تصفَّحت الصفحات التي تتناول النساء المهشَّمات. كنت أقرأ وأشعر بأمان، لأنِّي لم أعد كنساء تلك الصفحات، لم أعد أشعر بهنَّ زوبعة تمتصّني. حتى إنَّني أدركت أنَّني دفنتُ في مكانٍ ما الزوجة التي هُجِّرت في طفولتي في نابولي، ولم يعد قلبي يخفق في صدرها، وقد تقطَّعت أنابيب الشرايين. عادت «المسكينة» لتُمسي صورةً قديمة، وماضيًا متحجِّرًا بدون دم.

46

بدأ الولدان كذلك بالتغيّر فجأةً، على الرَّغم من أنَّهما أبقيا على عدائهما تجاه بعضهما بعضًا، واستعدادهما الدائم لشدّ الشعر. أقلعا رويدًا رويدًا عن محاسبتي.

قال لي جاني في إحدى الأمسيات «بابا أراد أن يشتري لنا كلبًا جديدًا، لكنّ كارلا لم تقبل».

«ستربّي كلبًا عندما تعيش بمفردك»، قلت له مواسية.

سألني «أكنت تحبّين أوتو؟»

«لا» أجبته «أثناء حياته لم أكن أحبّه».

أدهشني الهدوء الصريح الذي كنت أستطيع أن أُجيب به الآن على كلِّ الأسئلة التي يطرحانها عليّ. هل سينجب بابا وكارلا طفلًا آخر؟ هل ستترك كارلا بابا لتذهب مع رجلٍ أصغر سنًّا؟ هل تعرفين أنَّه فيما هي تغتسل بعد قضاء حاجتها يدخل بابا ليبول؟

كنت أناقشهما، وأشرح لهما.. حتى إنَّني كنت أتمكَّن أحيانًا من الضحك.

سرعان ما اعتدتُ على لقاء ماريو، والاتِّصال به بسبب الهموم اليوميَّة، والاحتجاج إذا ما تأخَّر في إرسال الحوالة إلى حسابي. ثم ما لبثتُ أن لاحظت أنَّ جسده عاد ليتبدَّل. كان يضرب إلى اللون الرماديّ، وراح أعلى خدَّيْه ينتفخ، وكذلك الوركان، والبطن، والجذع. كان يحاول تارةً ترك شاربَيْه ينبتان، وكان يرخي لحيته طورًا، كما كان يحلق ذقنه بالكامل في بعض الأحيان بعنايةٍ كبيرة.

ظهر في البيت في إحدى الأمسيات من دون سابق إنذار، بدا لي محبطًا، وكان يرغب في الكلام.

قال لي «لديَّ شيء بشع أخبركِ به».

«تكلَّم».

«لا أستلطف جاني، وإيلاريا تثير أعصابي».

«هذا ما شعرت به أنا أيضًا».

«لا أشعر أنَّني بخير إلَّا عندما لا أكون معهما».

«نعم، قد يحدث ذلك أحيانًا».

«ستسوء العلاقة مع كارلا إذا ما استمررنا برؤيتهما بهذه الوتيرة».

«ربَّما».

«هل أنتِ بخير؟»

«أنا، نعم».

«هل صحيح أنَّكِ لم تعودي تحبِّينني؟»

«نعم».

«لماذا؟ ألأنَّني كذَّبت عليكِ؟ ألأنَّني هجرتكِ؟ ألأنَّني أهنتكِ؟»

«لا. عندما شعرتُ أنَّني خُدعت، وهُجِّرت، وأُهنت، أحببتك كثيرًا، واشتهيتك أكثر من أيِّ وقتٍ من حياتنا معًا».

«ماذا إذًا؟»

«لم أعد أحبُّك، لأنَّك، ولتبرِّر نفسك، قلت إنَّك وقعت في الفراغ، في غياب المعنى، ولم يكن ذلك صحيحًا».

«كان صحيحًا».

«لا. أنا أعرف الآن ما هو غياب المعنى، وماذا يحدث إذا ما نجحتُ في العودة إلى السطح. أمَّا أنت، فلا تعرف ذلك. أنت ألقيت، كأقصى تعديل، نظرةً من الأسفل، فخفت وسددت الهوَّة بجسد كارلا».

بدا على وجهه تعبيرُ مستاء، وقال لي:

«عليكِ أن تهتمِّي لأيَّام أكثر بالولديْن. كارلا تعبة، وعليها أن تقدِّم الامتحانات، ولا يمكنها الاهتمام بهما. أنتِ أمُّهما».

نظرتُ إليه بانتباه. هذا ما كان عليه. لم يعد هناك ما يُمكن أن يُثير اهتمامي فيه. لم يكن حتى شظيَّة من الماضي، كان مجرَّد بقعة، كبصمةٍ خلَّفتْها يدٌ على جدار لسنواتٍ كثيرة خلت!

47

بعد ثلاثة أيَّام، وأنا أعود إلى البيت بعد العمل، عثرت على الممسحة أمام الباب على قطعةٍ من مناديل المطبخ، وعليها شيء شديد الصغر صعب عليّ التعرُّف عليه. كانت هبة جديدة من كارانو، وكنتُ قد اعتدت على تصرُّفاته اللطيفة الصامتة. فقد كان قد ترك لي مؤخَّرًا زرًّا أضعته، ومشطًا صغيرًا كنت حريصةً عليه. أدركتُ أنَّ الهبة هذه المرَّة كانت الأخيرة. كان البخَّاخ الأبيض لعبوة رذاذ.

جلست في غرفة الجلوس، وبدا لي البيت فارغًا، كما لو أنَّه لم تسكنه يومًا سوى دمى من الورق، أو ثيابٍ لم تلتفُّ يومًا على أجسادٍ حيَّة. نهضت بعد ذلك، ورحت أبحث في غرفة المؤونة عن العبوة التي لعب بها أوتو على الأرجح في الليل الذي سبق نهار أغسطس المقيت. بحثتُ عن آثار الأنياب، ومرَّرتُ أصابعي لأتبيَّن ذاك الأثر. حاولتُ وضع البخَّاخ عند أعلى العبوة. عندما

بدا لي أنَّني نجحت في ذلك، ضغطتُ بسبَّابتي، لكنَّ الرذاذ لم يخرج، وفاحت فقط رائحة مُبيدٍ حشريٍّ خفيفة.

كان الطفلان لدى ماريو وكارلا، وكان يُفترض أن يعودا بعد يوميْن. تحمَّمتُ، وتبرَّجتُ بعناية، وارتديت فستانًا يليق بي، وذهبت لأقرع باب كارانو.

شعرتُ بأنَّني أُراقَب من العين السرِّيَّة طويلًا: تصوَّرتُ أنَّه يحاول أن يُهدِّئ ضرْبات قلبه، وأنَّه يريد أن يمحو عن وجهه الانفعال إزاء تلك الزيارة غير المتوقَّعة. خطر لي أنَّ هذا هو وجودنا، هو ارتجافة فرح، ومتعة خالصة، وشرايين تنبض تحت الجلد، ولا شيء أصدق نستطيع أن نرويه. لأقدِّم له انفعالًا أقوى، عمدتُ أن يبدو صبري وقد نفد، فقرعت الجرس مجدّدًا.

فتح كارانو الباب. لم يكن قد سرَّح شعره، وكانت ثيابه في حالة فوضى، وقد فكّ حزام بنطاله. مسَّد بيديْه الاثنتيْن على سترته القطنيَّة الداكنة، وسوَّاها ليغطِّي الحزام. صعب عليَّ عند رؤيته أن أتذكَّر أنَّه قادر على استنباط نغماتٍ ناعمةٍ وحارَّة، ليقدِّم متعة التناغم.

سألته عن هديَّته الأخيرة، وشكرته للهدايا الأخرى. بالكاد تكلَّم، واكتفى بالقول إنَّه عثر فقط على البخَّاخ في صندوق سيَّارته، واعتقد أنَّه قد يُفيدني في ترتيب مشاعري.

قال «لا شكَّ أنَّه كان بين قوائم أوتو، أو في وبره، أو حتى بين أنيابه».

فكَّرت بامتنان أنَّه خلال الأشهر الأخيرة، وبهدوء، عمل على أن ينسج حولي عالمًا أهلًا بالثقة، وقد بلغ الآن عمله الأكثر

لباقة. كان يريد أن يُفهمني أنَّه ليس عليَّ بعد الآن أن أشعر بالهلع، فكلّ حركة كانت قابلة لأن تُروى بدوافعها الخيِّرة والشرِّيرة، وأنَّه آن الأوان للعودة إلى صلابة الروابط التي تجمع معًا المساحات والأزمان. كان يحاول عبر تلك الهبة أن يُبرِّئ ساحته، وساحتي. كان يُحيل موت الكلب إلى عبثيَّة ألعاب الكلب ليلًا.

قرَّرتُ اعتماد نظرته. بدا لي في تلك اللحظة، لقدرته على التأرجح بين صورة الرجل الشجيِّ الذي لا يمتلك له ألوانًا، والمؤدِّي البارع للأنغام المنيرة القادرة على بثِّ الحرارة في القلوب، وإسباغ انطباع بحياةٍ كثيفة، بدا لي الرجل الذي أحتاجه. كنت أشكّ فعلًا أن يكون البخَّاخ بخَّاخ عبوة المبيد الحشريّ الذي رششته، وأن يكون قد عثر عليه في صندوق سيَّارته. إلَّا أنَّ النيَّة التي دفعته ليقدِّمه لي أشعرتني أنَّني خفيفة، وأنَّني ظلٌّ جذّاب خلف زجاجٍ أغبش.

ابتسمت له، وألصقت شفتيّ بشفتيْه، وقبَّلته.

«هل ما جرى كان بشعًا جدًّا؟» قال لي بارتباك.

«نعم».

«ماذا دهاك في تلك الليلة؟»

«تملَّكني ردُّ فعلٍ مبالَغٌ به ثَقَب سطح الأشياء».

«وبعد ذلك؟»

«وقعتُ».

«وأين آل بكَ الأمر؟»

«لم أصل إلى أيّ مكان. لم يكن هناك من عمق، لم تكن هناك من هاوية. لم يكن هناك أيّ شيء».

عانقني، وشدَّني إليه لبعض الوقت من غير أن ينبس ببنت شفة. كان يريد أن يعلِّمني عبر صمته أنَّه يعرف، بفضل هبةٍ غامضة لديه، أن يُقوِّي المعنى، أن يخترع إحساسًا بالامتلاء وبالفرح. تظاهرتُ بأنَّني أصدِّقه، ولذا تحابَّينا طويلًا، في الأيَّام والأشهر الآتية، بهدوء.

مكتبة
t.me/t_pdf

تصميم الغلاف: نجاح طامر

يقرِّر ماريو فجأةً هجرَ أولغا ، مع طفليْن وكلب، بعد خمسة عشر عامًا من الزواج. وتبدأ رحلةُ أولغا إلى ظلمة دواخلها، فتعرِّي هشاشتَها المرعبة، وتكشف عجزَها المروِّع عن التعامل مع طفليْها ومع العالم.

كم مرَّةً سمعنا عن قصَّةٍ مماثلة؟ لكنَّ فرّانتي، كعادتها، تأخذ الدراما العاديَّة لتحوِّلها إلى حدثٍ استثنائيّ.

telegram @t_pdf

إيلينا فرّانتي: روائيّة إيطاليّة. صدر لها عن دار الآداب رباعيَّة «صديقتي المذهلة».

«ربَّما هي أفضلُ كاتبةٍ عرفتْها الروايةُ الحديثة. أدبُها شفّافٌ كالبلُّور، حكاياتُها غرائزيَّة وعميقة في آنٍ واحد».

The Economist

ISBN: 978-9953-89-697-7

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 1795135 - 1861633 (961+)